

بسم الله الرحمن الرحيم



حياة و آثار

نصر الله أبى الفتح ضياء الدين ابن الأثير الجزرى:

دراسة نقدية

تلخيص مبحث

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة فى اللغة العربية و آدابها

إعداد و تقديم

محمد محسن الدين

تحت إشراف

سماحة الدكتور محمد سمیع اختر

الأستاذ المشارك

قسم اللغة العربية و آدابها

جامعة علي كره الإسلامية - الهند

تلخيص المباحث

الحمد لله على ما أنعم، وعلم من البيان ما لم نعلم، والصلاة والسلام على خير من نطق بالصواب، وأفضل من أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار، وتابعيهم وأتباعهم الى يوم القرار وبعد.

فان ضياء الدين بن الأثير عاش في عصر الحروب الصليبية، وهو عصر الفتن والمعارك والقتال، وعصر التنافس بين الدويلات الإسلامية، وعصر الصراعات بين المذاهب والجماعات المختلفة، ومع ذلك فقد شهد هذا العصر حركة علمية وأدبية واسعة تتمثل في نواح شتى، فألفت الكتب المختلفة في الأدب والنقد والبلاغة والإنشاء والتاريخ والنحو واللغة والجغرافية والفقه وغيرها، وكانت الكتابة والإنشاء من أهم ما درس في هذا العصر، إذ كانت المقدرة الكتابية أحيانا سبيلا ممهدا للوصول الى الوزارة.

وكان ضياء الدين ابن الأثير من أولئك العلماء من نال الوزارة لتلك المقدرة فقد اتصل بصلاح الدين الأيوبي وكتب له بمصر والشام، ووزر لابنه الأفضل بالشام، والتحق بصاحب حلب وبصاحب الموصل، واتصل بأولى الأمر وافدا ورسولا، وكانت حياته قبل أن يتصل بصلاح الدين ليست بذات خطر، ولذلك لا نجد المؤرخين يتحدثون عنها حين يتحدثون عنه.

ومن العجب أنه مع أعماله الرسمية لم يزل مجدا في الطلب، عاكفا على المطالعة، منقطعا لاقتطاف ثمرات العلوم، حتى أصبح علما من أعلام العلم والأدب، وركنا قويا من أركان النقد والبلاغة، تقدم بجده واجتهاده وطار في كل مطار، فلم يدع صنفا من الأصناف الأدبية الا وساهم فيها مساهمة محمودية، لم تزل كتاباته وأبحاثه مليئة بالثقافة الواسعة وبالفكر العميق لا نراها فارغة مجردة من المعاني السامية والأفكار النادرة.

فالموضوع الذي اخترته لنيل شهادة الدكتوراة هو " حياة وآثار نصر الله أبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير الجزري: دراسة نقدية" وبعد مطالعة المصادر ودراسة الموضوع قسمت البحث الى خمسة أبواب، وقدمت في بدايتها مقدمة وبينت فيها البواعث الدافعة الى اختياري لهذا الموضوع للبحث وأهميته وغايته التي أردت بالبحث،

فذكرت هناك من البواعث أن ضياء الدين بن الأثير مع كونه ركنا ركيننا للنهضة الأدبية والنقدية والبلاغية لم ينصف الأدباء والمؤرخون معه فلم ينوهوا بجهوده وما قدره حق قدره، فتخيرت هذه الشخصية وقمت على قدم وساق لتحقيق حقه الضائع ولإبراز الحقائق المنحوسة، ثم بينت فيها خطة البحث وقدمت في ذيلها الشكر والتقدير إلى من يستحقه.

أما تلخيص المباحث في الأبواب الخمسة فكما يلي:

الباب الأول: تكلمت فيه عن البيئة التي شهدت وقائع حياة ضياء الدين فبينت أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية أما أوضاعها السياسية فكانت في عصره مقلقلة ومضطربة جدا لكثرة الحروب والمعارك بين المسلمين وبين كل من التتر والصليبيين وللتنازع بين الدويلات، وكانت الدولة الأيوبية لعبت دورا بارزا في تحقيق ثلاثة أهداف عظيمة وهي : إحلال السنة محل الشيعة في مصر، وتوحيد الشام ومصر تحت سلطانهم، وتصفية الإمارات الصليبية من البلدان الإسلامية كلها، وقد نجحوا في تحقيق تلك الأهداف الثلاثة على حد يعتد ، حيث قام البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي بتوحيد مصر والشام تحت إمرته ، بأن جعل إمبراطورية عظيمة ، وأحل السنة محل الشيعة في مصر، واستطاع أن يسترد أكثر البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة تحت سيطرت الصليبيين، و أخفق حملتهم وكسر شوكتهم ونازلهم توا في مختلف المواقع خاصة في موقعة حطين بجانب طبرية.

وأما الحياة الاجتماعية فهي تعاني ما تعانيه الدولة من الاضطرابات والصراعات العاتية، وقد شاعت في المجتمع بدعة نظم الإقطاع التي استحدثها ملك الشاه السلجوقي و وزيره نظام الملك، وبسببها انقسم الشعب إلى طبقات ثلاث : العليا والوسطى والسفلى.

فانتشرت المظالم وغرقت البلاد في المفاسد، وانتابتها الأمراض الاجتماعية، وسيطرت الأوهام على النفوس والعقول، واضطرب الشعب في مجموعة من العادات والتقاليد الفاسدة، كما اضطرب الاقتصاد للفروق الشاسعة بين الطبقات، وتوالى الحروب بين الشرق والغرب وبين الشرق أنفسهم فزادت شدة المجاعة والقحط وانتشر الكساد والزلازل ثم الأوبئة التي تحصد ملايين من البشر.

ومع هذه الاضطرابات السياسية و الاجتماعية أنهم قد جمعوا الصلاح والاستمسك بقواعد الدين الحنيف من صلاة و زكاة، وتشديد العماثر الدينية وما إلى ذلك، بينما كانوا في حياتهم الخاصة لا يتورعون في إتيان أشنع المنكرات والتعسف في أذى الخلق و إهراق الدماء، ولكن أستثنى منهم بعض الحكام مثل صلاح الدين الأيوبي وغيره الذين كانوا محبين للدين مخلصين له حتى طهروا البلاد.

وأما الحياة الثقافية فهي رغم الاضطرابات في السياسة والاجتماع قد تطورت في عصره تطورا ملحوظا، وكان الحكام والسلاطين يشجعون العلم والعلماء واهتم كذلك عامة الشعب فاتسعت بها ثقافة العلماء والأدباء وأصبح الأدب ثقافة شاملة، فتدفق عديد من العلوم والفنون وكثرت الكتب والمؤلفات التي اكتظت بها خزانات الكتب والمكتبات، كما كثرت المدارس والمكاتب ودور الحديث ودور الأيتام والربط والخانقات ومؤسسات دينية التي تفد إليها العلماء والأدباء من أقطار الأرض شرقا وغربا مما أدى إلى نشاط ثقافي ملحوظ ظهرت آثارها واضحة.

وقد برزت فيه نخبة من كبار الأدباء والكتاب والمؤرخين والمحدثين والمفسرين الذين خلفوا آثارا قيمة التي لا تزال تعد من الثروات الأدبية والعلمية الخالدة، فكان عصره عصر إحياء للفكر والثقافة العربية من ناحية، وعصر إحياء سياسي من ناحية أخرى.

والباب الثاني: خصصته ببيان حياة ضياء الدين بن الأثير ونشأته الأولى ودراسته وتعليمه وثقافته وأعماله وآثاره، فتناولت الكلام أولا عن مسقط رأسه فإنه ولد سنة ٥٥٨ هـ في جزيرة ابن عمر الواقعة على الضفاف الغربية لأعالي نهر دجلة ثم بينت اسمه الكامل وهو "أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الموصلية الشافعي المعروف بابن الأثير الجزري"، ثم وقفت قليلا عند أسرته فذكرت أنه ولد في أسرة عربية من شيبان، وكان له أخوان كبيران نابهان وهما: مجد الدين المبارك المحدث وعز الدين على المؤرخ كل منهما اندفع في الطريق الذي اختاره يشكل معالم نهضتنا الفكرية ويثرى جوانبها بإنتاجه الخصب الوفير.

ثم وقفت وقفة طويلة عند نشأته وتعاليمه ورحلاته وسياساته فذكرت معتمدا على المصادر أنه بدأ خطوته الأولى الى العلم فى مسقط رأسه كغيره من أطفال المسلمين ثم انتقل مع أسرته الى الموصل فحفظ كتاب الله الكريم وحصل العلوم العالية على يد كبار علمائها ولما كملت له أدواته العلمية قصد الملك صلاح الدين فالتحق به عام ٥٨٧ هـ وكتب له فى الحل والترحال ثم وزر لابنه الملك الأفضل والتحق بصاحب حلب وبصاحب الموصل واستقر أخيرا بالموصل. وفى تلك الحقبة خلص نفسه للعلم فألف أهم كتبه، ثم ذكرت عن نهاية حياته بأنه انتقل الى رحمة الله تعالى فى إحدى الجماديين سنة ٦٣٧ هـ فى سفارة ببغداد وقد أوفده الأمير بدر الدين لؤلؤ، وكان عمره إذ ذاك ثمانين سنة وصلى عليه من الغد ودفن بمقابر قریش فى الجانب الغربى بمشهد موسى بن جعفر رضى الله عنهم.

وفى ختام الباب تناولت الكلام عن مكانته بين الأدباء وعن أخلاقه وصفاته النفسية، وذكرت فيه أقوال الأدباء والمؤرخين، فبينت أنه كما كان يملك أخلاقا حميدة وأوصافا عظيمة، كذلك كان فيه بعض الأوصاف التى بلغ بها حد الغرور والعجب مما تسبب توجيه النقد والنقم عليه، ومع ذلك إنه كان فريد دهره ووجيه عصره، انتهى إليه علم الكتابة فى زمنه، وبه ختم فن البلاغة كما عد خاتمة النقاد البلاغيين العرب.

تضمن الباب الثالث بيان مساهمته فى الأدب و النقد والبلاغة وصناعة الإنشاء، فوقفت عنده أديبا وشاعرا وكاتبا وبلاغيا وناقدا، و بينت أنه دخل فى مجال الأدب من بابين النظم والنثر، لكنه ما نظم قصائد مختلفة الموضوعات فى ديباجة مشرقة ورونق وجمال، بل مال الى النثر فاتخذة صناعته تتيح له أن يكون من أكبر بلغاء الكتاب، وارتقى أعلى درجة من درجات البلاغة العربية التى تمنح له أن يكون خاتمة النقاد البلاغيين العرب، وقد وهبه الله ذوقا فنيا مرهفا وعمقا فى التفكير، وإحساسا أدبيا بعيدا عن كل تطرف، كان صاحب أسلوب منمق يلبس الكلام بلباس موشى تثقله الزخارف البديعية واللفظية، ومع هذا فقد كان يستعمل أحيانا الأسلوب المرسل المتحرر الذى يكاد يخلو من كل تنميق وتصنع، ومن كل قيود لصناعة البديع التى عرفت فى عصره، وهذا الأسلوب

رائع رائق، فيه صفاء وروحانية، وعاطفة مشوقة، وفي قلمه غيرة على العروبة والإسلام، يعبر أفكاره وأحاسيسه بعبارة أدبية مشرقة، لا تكون مغلقة ولا غامضة بل تجري كالماء، فما يواجه القارئ مشكلة ولا صعوبة، وهذا الأسلوب العاطفي يستعمله في مؤلفاته كالمثل السائر والجامع الكبير وغيرهما، وأما الأسلوب الأول الذي يستعمله في رسائله فقد سار فيه على طريقة القاضي الفاضل.

ثم تحدثت عن شاعريته فبينت هناك بأنني بعد دراسة حياته الحافلة وصلت الى نتيجة أنه ما كان شاعرا مقلقا بل كان مولعا بالشعر شغوبا به يستمد منه في مادة توسيع ثقافته ولذلك كان ضئيلا الإنتاج فيه كما قال بن خلكان: لم يكن له في النظم شئ حسن (وفيات : ٣١/٥).

ثم تكلمت عنه كاتبا، فذكرت أنه بلغ أقصى غايات المجد في الكتابة وفنونها، واستطاع إحراز قصبات سبق فيها على من كانوا يعاصرونه، حتى إن علم الكتابة انتهى إليه في زمنه، وانتهت إليه كذلك رئاسة الإنشاء والترسل (الذهبي : العبر في خبر من غير : ١٥٦/٥)، ولذلك كان يحاول معارضة القاضي الفاضل في رسائله، كما يحاول موازنة رسائله برسائل كتاب عصره كالصابي والصاحب بن عباد وغيرهما، ومع هذا يلوح منه ظاهر التأثير بالقاضي الفاضل وأسلوبه المملوء بالصناعة البديعية.

ثم وقفت عنده بلاغيا فبينت أنه برع في فن البلاغة والبيان فقام ببحث البلاغة بحثا أدبيا بعيدا عن النزعة الكلامية حتى عد من أقطاب هذه النزعة وعد خاتمة النقاد البلاغيين العرب، وكان مجددا في ابتداع كثير من المسائل البلاغية فخالف ونقد البلاغيين الكبار في كثير من جزئياتها، وهو الذي سمي البلاغة علم البيان ولم يحاول التفريق بين المعاني والبيان والبديع. ويمتاز ضياء الدين في بحث البلاغة من بين أكثر البلغاء بأنه درس البلاغة وفنونها دراستين : الأولى قاعدية وهي الجانب العلمي الذي عنى فيه بالحدود والتعارف وحصر الأقسام، والثانية نقدية: ألم فيها بكثير من العيوب التي يقع فيه مستعملوا تلك القواعد مع موازنات رائعة تدل على إصالة في الذوق الأدبي.

وفى ختام هذا الباب استعرضته ناقدا فذكرت تطور النقد عبر التاريخ ثم بينت أن النقد قد ارتقى فى عصره ارتقاء مفرطا حتى تغيرت أوضاعه السابقة المعتمدة على العصبية والأهواء فألفت الكتب فى النقد ومناهجه من وجهة نظر السابقين، واعتمد على الشعور الهادئ والتحليل والبرهان والذوق السليم، ثم استعرضت أن ضياء الدين كان من أولئك النقاد الذين وضعوا اللبنة فى هذا الصرح العتيد و "كتابه المثل السائر" من أعظم المؤلفات النقدية فى أصول النقد والبلاغة حتى ليعد خلاصة ذكية لا تخلو من إصالة لدراسات النقاد والبلاغيين السابقين، أفاض فيه بكثير من الآراء الحرة فى الأدب والأدباء، وبهذا الكتاب عد خاتمة النقاد العرب، ولولا خلف هذا الكتاب لما جرى له هذا الذكر، ثم بينت أن نقده كان تطبيقيا عمليا لا تنظيريا فلا يكتفى بحكم المعرفة فحسب بل يكبر حكم الذوق السليم الذى يراه أكبر من حكم القواعد الموضوعية، و نقد اللفظ والمعنى والسرقات الأدبية والمعارضات المتنوعة وحل المنظوم وكان له فى هذه الاتجاهات آراء نقدية.

وأما الباب الرابع فقد استعرضت فيه آثاره الأدبية والنقدية والبلاغية، ودرستها دراسة نقدية وحاولت إحصاءها حسب الموضوعات، ولما لم يوجد جميع آثاره لفقد بعضها كر الغداة ومر العشي قسمتها الى أقسام أربعة: وهي إما موجودة أو مفقودة والموجودة منها إما مطبوعة أو مخطوطة، فمن خلال دراسة آثاره أشرت الى ما هو مخطوط وما هو مطبوع وما هو مفقود وما احتوت عليه من المباحث وبينت فى المطبوع سنة الطبع والمطبعة، وفى المخطوط اسم المكتبة، وفى المفقود مصادره ولما لم يكن فى وسعى الإطلاع على جميع مخطوطاته اعتمدت فى تعيينها ودراستها على أقوال الأدباء والمؤرخين.

وأما الباب الخامس ففي الخاتمة وبيان المصادر والمراجع وبينت فى الخاتمة النتائج التى وصلت إليها أثناء البحث والدراسة.

تم تلخيص المباحث والحمد لله.



**LIFE AND WORKS OF NASRULLAH ABUL FATAH
ZIAUDDIN IBN ATHAR AL-JUZARY
(A CRITICAL STUDY)**

ABSTRACT

Thesis Submitted for the award of the Degree of

Doctor of Philosophy

IN

Arabic Literature

By

Md. Mohsin Uddin

UNDER THE SUPERVISION OF
DR. MOHD. SAMI AKHTER
(READER)

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)

2000

دار الكتب والعلوم



حياة و آثار

نصر الله أبى الفتح ضياء الدين ابن الأثير الجزرى:

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة فى اللغة العربية و آدابها

إعداد و تقديم

محمد محسن الدين

تحت إشراف

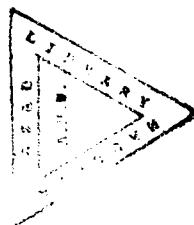
سماعة الدكتور محمد سميع أختر

الأستاذ المشارك

قسم اللغة العربية و آدابها

جامعة علي كره الإسلامية - الهند

T. 5611



T5611

قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة عليكره الاسلاميه، عليكره (الهند)



External
Internal
DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH—202002 (U.P.)

Dated

التاريخ

TO WHOM IT MAY CONCERN

This is to certify that **MD. MOHSIN-UDDIN** has done his Ph.D. work entitled "**LIFE AND WORKS OF NASRULLAH ABUL FATAH ZIAUDDIN IBN ATHAR AL-JUZARI : A CRITICAL STUDY**". The thesis embodies the findings and results of investigation conducted under my supervision.

The work is an original contribution and entirely his own. It is now forwarded for the award of **Ph.D. degree in Arabic Language and Literature**.

M. S. Akhtar
(Dr. M. Sami Akhtar)

Supervisor

الإهداء

إلى

أبي وأمي

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

المقدمة

إن الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله، وعلى خاتمهم و صفوتهم محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للناس أجمعين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين . أما بعد، فإن أهمية الشرق الأوسط الإسلامي أدت إلى تنافس الأمم والملوك فيه ، وإلى احتلاله مرة بعد أخرى، فأصيب بكثير من الفتن و الاضطرابات ، ودارت فيه رحى كثير من الحروب والمعارك، فمن أدمى حروب رآها الشرق هي الحروب الصليبية - التى ابتدأت بالخمس الأخير من القرن الخامس الهجري حوالي سنة ٤٨٩ هـ ، واستغرقت القرن السادس كله حتى وصلت القرن السابع الى عام ٦٦٦ هـ تقريبا .

وكانت الدولة الأيوبية لعبت دورا هاما فى إخفاق حملة الصليبيين وكسر شوكتهم وتصفية الإمارات الصليبية من البلدان الإسلامية كلها، كما أنها بذلت جهودها فى تقدم الأمة العربية الإسلامية وتطوير علومها وثقافتها وحضارتها، وفى عصرها برزت نخبة من كبار الأدباء والكتاب فى مختلف العلوم والفنون الذين عكفوا حياتهم على إيقاظ الأفكار الخاملة واستعادة تراثهم العلمي والأدبي والثقافي الذى توقف نهوضه بالصراعات والاضطرابات التى اشتعل لهيبها بحملة الصليبيين وغيرهم على البلاد الإسلامية.

وكان ضياء الدين بن الأثير من هؤلاء العلماء البارزين الذين عملوا بدأب وجهد فى ميدان العلم والأدب والفكر والفن ، فلقد فتح نوافذ متعددة فى مختلف الجهات من النقد والبلاغة وصناعة الإنشاء ، وفهم النقد والبلاغة بأوسع معانيهما ، فاستخدم بمناهج جديدة متنوعة أنيقة لا ينساه العالم الأدبي أبد الدهر، بل يفتخر افتخارا بالغا بأن يسجل اسمه فى طليعة الأدباء الذين تم بمجهوداتهم المشكورة النقد الأدبي والبلاغة العربية بالأحرف الذهبية.

لقد انفجرت من نشاطاته الفعالة وثقافته البارة عين جارية من المؤلفات القيمة النادرة التى لا تزال تعد من الثروات الأدبية الخالدة ، ولا شك أن كتابه "المثل السائر" من أعظم المؤلفات التى عالجت الأدب ووضعت لأركانه حدودا ومقاييس ، أخذها غيره من الذين نسبت إليهم ونفقت كتبهم وأصابوا من الدرس والعناية بعض ما يستحقون مما لم يصب الرجل منه إلا قليل.

فكان من الواجب أن يبحث عن هذا العصر وعن هذه الشخصية، فاختراري لموضوع بحثي " حياة وآثار نصر الله أبى الفتح ضياء الدين بن الأثير الجزرى : دراسة نقدية " وليد الرغبة الصادقة فى أداء هذا الواجب أن أعرف به وأنوه بجهوده ومنزلته بين رجال البلاغة والنقد وأثره فى الذين خلفوه.

يقول الأديب الكبير والفيلسوف العظيم عباس محمود العقاد : "القاعدة فى اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حق ضائع وحقيقة مجهولة وتستوي فى ذلك سير العظماء والنوابغ من كل الطراز وفى كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ فالحافز الأكبر على تأليف كتابي عن ابن الرومي أنه مجهول القدر منحوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره" ^١.

فقول صاحب العبقريات وتلك البواعث دفعتني الى اختيار هذه الشخصية الجليلة " لموضوع البحث للحصول على شهادة "الدكتوراة العالمية" كي أنزله على منزلته الرفيعة فى ذلك المكان المرموق الذى كان يستحق به ، وأحقق له الحظ الذى كان يليق به ، مبرأ من كل إفراط وتفریط ، ولكى أضيف الى الثروات الأدبية خدمة جامعة ينفع الله بها متذوقين رحيق الآداب ، والمطلعين على حقائق الأشياء ، والسائرين الى الانتفاع من سلسيل واحد ، من الأدباء المحدثين والجدد من الباحثين.

وقد سبقني بعض الباحثين بالكتابة والدراسة عن هذا الموضوع نجد على مقدمتهم الدكتور محمد زغلول سلام ، و الدكتور أحمد محمد عنبر ، وبعض الباحثين الآخرين حيث كتبوا عنه ولكنهم لم يستوعبوا جميع الجوانب ولم يحاولوا الإحاطة بجميع اتجاهاته العلمية والأدبية بل كان جل عملهم يدور حول جهوده النقدية ، وهذا لا يعنى إنكار جهودهم فإنني وجدت مباحثهم كمقدمة للجيش فى تشجيع همتي وتوجيه فكري الى البحث.

وحيثما تمنيت دراسة حياته الحافلة وآثاره القيمة وجدته فوق ما تصورت كأنه فى منازل القمر وأنا فى الأرض أريد أن أبلغه وليس عندي سلم أو طيارة مخترعة الحديث أصل بها إليه ، فأحسست بجسامة العبء وثقل المسئولية ، فتشبثت همتي وضعف عزمي ولكنني فكرت بأنني طالب اللغة العربية قطعت فترات من الزمن فى تحصيل هذه اللغة العريقة

وآدابها العالية ، وأن والدي أدخلني فى مستهل دراستي بالمعاهد الإسلامية العربية ثم توجه دائما بإرشاداته اللطيفة على أهمية هذه اللغة ونصحتني و شجعتني أن أبذل غاية جهودي فى تحصيل هذه اللغة السماوية ، فاجترأت مع قلة مؤهلاتي ببضاعة مزجاة لإبراز عمله الجليل وتوفية ما انتقص من حقه ، فانغمست فى المطالعة العميقة لجمع المعلومات المتفرقة والحقائق المكتمنة فى بحثي ، واعتمدت فى دراسة الموضوع على المصادر القديمة والحديثة وبذلت جهودي كلها فى إعداد الرسالة ، وزرت الأساتذة الأجلاء لأكثر جامعات الهند و بنغلاديش ومكتباتها ، منها الجامعة العثمانية ومكتبتها ، ومكتبة دائرة المعارف ، ومكتبة المعهد المركزي للغة الإنكليزية واللغة الأجنبية بحيدرآباد ، وجامعة كاليكوت و مكتبتها بكيرالا ، وجامعة دلهى ومكتبتها ، وجامعة جواهرلال نهرو ومكتبتها بدلهى الجديد ، والجامعة المليية الإسلامية ومكتبتها بدلهى ، ومكتبة الوطنية بلككوتا ، وجامعة داكا ومكتبتها ، ومكتبة مؤسسات بنغلاديش الإسلامية بداكا ، و جامعة الكويت ومكتبتها ، وهناك بعض الجامعات والمكتبات الأخرى التى زرتها واستفدت من مكتبتها ، كما استفدت من إرشادات وتوجيهات الأساتذة الكرام الذين شافتهم وناقشتهم عن الموضوع فأخذت منهم الأقوال القيمة والنصائح الغالية ، ولا أنسى إفادة هؤلاء البارزين من العلماء والأساتذة الذين زرتهم خلال بحثي فوجدتهم مكتبة حية أمثال الدكتور البروفيسور مختار الدين أحمد ، و أستاذي الدكتور البروفيسور محمد راشد الندوي ، والدكتور عبد الهادي محبوبة أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة الكويت ، والدكتور محمد سميع الله المدير المساعد بدائرة المعارف بحيدر آباد وغيرهم.

ولا أدعى بأنني صعدت فى هذه الدراسة ذروتها فإن للبحث والدراسة عن شخصية يتسع فيهما المجال للآراء والمذاهب و الأقوال ولكنني أعترف بأنني بذلت ما فى وسعى من الجهود فى إعداد الرسالة ، وبعد مطالعة المصادر ودراسة الموضوع قسمت الرسالة على خمسة أبواب وهى حسب ما يلى :

الباب الأول: تحدثت فيه عن البيئة التى عاش فيها ضياء الدين فبينت عن أحوالها

السياسية والاجتماعية والثقافية مع الإلمام بالأقاليم والمناطق الثقافية فى ذلك العصر فتناولت الكلام عن العراق والشام ومصر وعن بعض البلاد الأخرى التى رحل اليها أديبنا للسياسة والعلم.

والباب الثانى : خصصته لدراسة حياته فعمدت الى دراسة مسقط رأسه وأسرته ونشأته ودراسته وأعماله وآثاره كما تناولت الكلام عن بعض معاصريه وأساتذة الأدب الكبار، ثم تحدثت عن مكانته بين الأدباء وصفاته النفسية وانتهيت الكلام عن بيان النهاية الأليمة. و أما الباب الثالث : فذكرت فيه نواحي ثقافته المتنوعة فاستعرضته أديبا ثم وقفت عنده شاعرا وكاتبا وبلاغيا وناقدا كما تناولت الحديث عن أسلوبه وذوقه وخصائصه الفنية وما إلى ذلك.

وأما الباب الرابع : فقد تحدثت فيه عن آثاره الخالدة ومؤلفاته النادرة وما احتوت آثاره من العلوم والمعارف وما قيمتها وخصائصها الفنية، وحاولت فى عرض الآثار ترتيبها حسب الموضوعات ثم فصلت القول فيها حسب الموجودات والمطبوعات والمفقودات. وأما الباب الخامس : ففي الخاتمة ومصادر البحث وألقيت فيها الضوء على نتائج عديدة ظهرت لى أثناء البحث والدراسة.

كلمة الشكر والتقدير:

أشكر الله عز وجل على منه وكرمه، فانه تعالى يسر لى طريق البحث و وفقني بالوصول إلى النهاية وهو لى التوفيق.

ثم أول شخص يستحق منى الشكر الجزيل والتقدير البالغ والاحترام الخالص هو أستاذي المشرف سماحة الدكتور محمد سميع اختر الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها، الذى ساعدني مساعدة كريمة وشجعني تشجيعا بالغا بعلمه الواسع وتوجيهاته السليمة وأفكاره القيمة وأبحاثه الرائعة أثناء عمل البحث فانه لم يكن مشرفا رسميا فحسب بل كان مربيا مخلصا وناصحا أميناً فوجهني الى أمهات المصادر وحثني على بذل الجهود فى دراسة النصوص فجزاه الله جزاء حسنا وأطال حياته آمين .

ثم أستاذي المحترم العطوف البروفيسور الدكتور عبد الباري حفظه الله الذى تولى رئاسة القسم مرات وهو محبوب لدى جميع الطلبة والطالبات لكرمه وعطفه عليهم وقد أعانني بأفكاره القيمة ونصائحه الغالية فله الشكر الجزيل.

كما أقدم الشكر والتقدير البالغ إلى أستاذي الدكتور البروفيسور سيد كفيل أحمد رئيس قسم اللغة العربية وآدابها حفظه الله الذى بلغ فى العلم مرتبة رفيعة له كثير من الأبحاث والمقالات المنشورات فى مختلف الجرائد العربية وغير العربية .

وكذلك أشكر جميع أساتذة القسم الذين لا يبخلون فى توفير الغذاء الروحي للطلاب ، و كذلك أقدم أطيب الشكر إلى سماحة الدكتور الأستاذ المشارك المتقاعد محمد ظهور الحق حفظه الله وبارك الله فى حياته وهو كان أول مشرفي فاستفدت من توجيهاته السليمة ونصائحه الفريدة .

وأجدني مضطرا إلى تقديم الشكر و الامتنان إلى أخي الدكتور محمد محبوب الرحمن الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة كوستيا الإسلامية بنغلاديش على مساعدته التى لا أنساها أبدا ، وأشكر الدكتور أبى البرهان محمد مخلص الرحمن الأستاذ المشارك ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقا بجامعة كوستيا الإسلامية لمساعدته المشكورة، والى الأخ الباحث محمد شمس الحق الصديقي لمساعدته على جمع المصادر وإتيانها من المملكة العربية السعودية ، والى صديقي وزميلي الأخ الباحث محمود بن سعيد لمساعدته .

وكذا أشكر والدي ووالدتي الذين أهلاني بتربية متميزة ، وكيف لا أزجى أطيب الشكر وأعطر الامتنان إلى زوجتي الحبيبة "فردوسي محسن" فإنها قدمت إلى مساعداتها وقاست الشدائد عند غيبتني فاخترت صبورا جميلا فجزاها الله أحسن الجزاء، ولا يسعني إلا أن أقدم الشكر الى صهري و صهرتي على مساعدتهما وتشجيعهما على الإقبال الى الدراسات العليا.

ومن الواجب أن أذكر تضحيات أصدقائي وأحبائي الذين قدموا إلى كل المعونات والمساعدات التى أحتاج إليها فأشكرهم جميعا.

وأخيرا ارجوا من الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد وأسأله أن يجعل عملي هذا خالصا
لوجهه الكريم ويجعله لى ولوادي عدة فى الآخرة ، و يوفقني دائما للأصول الى الحق عليه
توكلت وإليه أنيب وهو حسبي ونعم الوكيل.

التاريخ: يونيو ٢٠٠٠م

محمد محسن الدين

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة على كرة الإسلامية

- الهند -

الباب الأول

في

عصر ضياء الدين ابن الأثير الجزري

* الحالة السياسية

* الحالة الاجتماعية

* الحالة الثقافية

الحالة السياسية

إن أهمية الشرق الأوسط الإسلامي أدت إلى تنافس الأمم والملوك فيه وإلى احتلاله مرة بعد أخرى وكان الغرب تطلعت أنظاره إلى هذه البقعة للاستيلاء على خيراتها والاستحواذ على مرافقها وذلك بعد أن أخذت المنازعات تتقاسمها والمشاحنات بين الأمراء والوزراء تضعف من قوتها ووحدتها . وكانت العراق مركز الخلافة الإسلامية يحكمها سلاطين السلاجقة^١ تحت راية العباسيين.

وهؤلاء السلاجقة كانوا يعادون العباسيين ويقاتلونهم ويدسون لهم إلا أنهم لم يستطيعوا مقاومتهم في نفوذهم الدينية يروى أن السلطان محمود السلجوقي طلب أن يحمل في مرضه إلى قصر الخليفة عدوه السياسي للدعاء له بالشفاء^٢

والملكة السلجوقية تضععت بالانقسام إلى أقسام ثلاثة يمتاز بعضه عن بعض في مدة حكمه وحدوده ويسيطر على كل قسم منها سلطان . فسلاجقة المشرق يسيطرون على خراسان وبعض بلاد المشرق ، وسلاجقة العراق يسيطرون على العراق والجزيرة - التي ولد فيها ضياء الدين ثم سلاجقة الروم يسيطرون الجزء الغربي من الجزيرة الفراتية وشمال الشام ثم شبه جزيرة آسية الصغرى . والمدة التي حكم فيها السلاجقة على الإجمال نحو ثلاثة قرون وبلغ اتساع مملكتها من حدود الصين إلى آخر حدود الشام^٣

وكان سلاطين المشرق في صراع عنيف آنذاك مع الدولة الخوارزمية وأنتهز هؤلاء النزاع بين سلاطين السلاجقة والخلفاء بغداد فحاولوا القضاء على السلاجقة والحلول

^١ - السلاجقة : هم قوم من أصل الترك ، كان زعيمهم سلجوق وكانت أمارات النجابة لائحة عليه ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته فقر به ملك الترك واختص به ولقبه "شيبش" ومعناه في لغتهم قائد الجيش: الدكتور بكرى شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: ص ١٨ ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٦م

^٢ - صدر الدين أبو الحسن علي بن السيد أبي الفوارس: أخبار الدولة السلجوقية : ص ٩٨ ط دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٤م

^٣ - جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٩/٣ .

محلهم فى الدولة العباسية وأملكها وقد هزموا طغرل بك السلجوقي سنة ٥٩٠ هـ، ولكنهم لم يستطع الوصول إلى العراق وبسط نفوذهم فيها^٤.

وفى مصر كانت الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها وقد دب فى جسمها الضعف والاضمحلال وعمت فيها عوامل الفساد والانحلال، وكان خلفاءها يتولون الأمر صغار السن لا يملكون من أمرهم شيئا فكان المتصرف فى دولتهم الوزراء والقواد وسيدات القصر والخدم فأثر هذا فى قوة مصر وجيشها فلولا بعض أبناء الوطن أمثال اليازوري وابن زريق الوزير الشاعر- لم تبقى مصر أمام صراعات الصليبيين . فأنهم لفتوا أنظارهم منذ قديم إلى الشرق الاسلامي والبلاد العربية حتى إذا قدموا إلى مصر لم يجدوا أمام هجماتهم قوة تدفعهم دفعا فلا السلجوقيون يحتفظون بقوتهم القديمة ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة ليدفعوا بها هذا الوباء الجارف عن بلدانهم فتآمروا مؤامرة شنيعة وهاجموا هجمات عديدة لتوطيد نفوذهم الاستعمارية فى هذه البلاد الإسلامية - وتمتد صراعاتهم التى تشتهر بالحروب الصليبية مأتى سنة أو تزيد قليلا ؛ تلاحت فيها موجاتهم على الشام ومصر من إنجلترا وفرنسا وألمان وعمت فى البلاد تقتيلا وتدميرا وارتكبوا كثيرا من الفظائع مما كان له أعماق الأثر فى نفوس المسلمين والعرب كافة^٥.

وكان الإفرنج أسسوا فى شرق البحر الأبيض المتوسط ثلاث معالك - مملكة القدس وإمارة طرابلس وإمارة إنطاكية ، كان حكامها فرنجيون فاحتلوا جميع شواطئ آسية الصغرى والسورية ونصف شواطئ جزيرة سيناء حتى لم تبقى للسلاجقة ولا للعرب مكان يطلون منه على الجانبين الشمالي والشرقي فمضوا مدة من الزمان تحت حكم الأجانب ثم استيقظوا من غفلتهم وشدوا أعناق مطاياهم لترجيع وطنهم المحبب و الاحتفاظ على أراضيهم وإقلاع عدوهم وعدو الإسلام من أراضيهم المقدسة فاستطاع عماد الدين الزنكي السلجوقي تأسيس إمارة فى الموصل وضم إليه حلب ومدن شمالي شام مثل حماة وحمص وبعلبك ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرة النعمان وكفر طالب ولم يلبث أن

^٤ - محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر الأيوبي ص ٢١ ط مشاة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٠م

^٥ - نفس المصدر ص ٢١-٢٢

أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها وبذلك محار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في قلب الدولة السلجوقية وبه اخذ المد الصليبي بالتراجع والانحسار .^٦

و كان العاضد لدين الله الفاطمي ضعف أمره فوصل الفرنج إلى القاهرة و وطدوا نفوذهم فيها فاستغاث العاضد بنور الدين زنكي ، فأرسل نور الدين جيوشه إليه بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وكان نور الدين بعيد النظر بعدا و جعله يرى أن مفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يفعل و بها دولة منهاره وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة و خاف منهم خوفا شديدا و لم يلبث أن وافته فرصة عظيمة ، فأن وزيرها ضرغام بن عامر و شاور بن مجير السعدي تحاربا و لجأ إليه شاور مستغيثا فأنجده بأمرين أيوبيين شيركوه و ابن أخيه صلاح الدين و يحدثهما بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة وتتطور الظروف فاستنقذا مصر من الصليبيين و تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ثم بعد وفاته خلفه صلاح الدين و يكتب إليه نور الدين مرارا بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين و تصادق أن مرض العاضد مرض الوفاة وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين فألقى الخطبة لبنى العباس فلم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد ، و بذلك انتهى أمر الفاطميين و حكمهم للديار المصرية فتصبح مصر خالصة لصلاح الدين و يؤسس بها الدولة الأيوبية بعد وفاة نور الدين ، وأن كان مؤسسها الحقيقي هو نور الدين ثم بعد استقلال صلاح الدين بمصر أراد أن يسترد البلدان الإسلامية من الإفرنج الصليبيين ولكنه رأى الشام والعراق منقسمين بين أمراء ضعاف متنازعين فوحدتهما أولا تحت سلطانه بأن جعل إمبراطورية عظيمة ثم بدأ محاربة الصليبيين.^٧

فقد استرد أكثر البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة تحت سيطرة الصليبيين وأذاقهم سوء العذاب في موقعة حطين المشهورة في غربي طبرية ومحقق جيشهم محققا وقبض على رؤساء الصليبيين وزعمائهم وعلى إثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين

^٦ - شرقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، عصر الدول والإمارات قسم الشام ص ٢٥-٣١ و قسم مصر ٢٧-٣٥ . والدكتور محمد زغلول سلام : الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ص ٢٠ - ٥٤ .

^٧ - نفس المصدر قسم مصر ص ٢٣-٢٥ و قسم الشام ص ٢٧-٣٥ و الدكتور عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ٣/٣٥٠-

وجنوبي لبنان لصالح الدين فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل وغزة والرملة وبيروت وصيدا ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوبك ثم عزم على فتح بيت المقدس فحاصرها وضائقها بالزحف والقتال والمنجنيقات حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ، وتابع عمليات الفتح واسترداد البلدان واحدة بعد أخرى لكنه لم يستطع أن يحرر جميع البلدان من سيطرة الصليبيين فإن المنية خطفته قبل أن يتم ما أراد سنة ٥٨٩ هـ .^٨

ولما توفي صلاح الدين تقسمت المملكة العربية بين أبنائه وبين أخيه الملك العادل وبين الآخرين من أقاربه فكان ابنه العزيز تولى مصر وابنه الأفضل دمشق وقد وزر له أديبنا ضياء الدين طوال مدة ولايته وتولى ابنه الظاهر حلب وابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمال العراق وميفارقين وديار بكر وتولى عادل الموصل والكرك والشوبك .^٩

وكان الحجاز واليمن في معزل عن جميع الحوادث التي جرت بين المسلمين والصليبيين وبين المسلمين أنفسهم يقول الدكتور عمر فروخ :

أما الحجاز واليمن فقد كانا في هذه الفترة كما كانا في الفترة السابقة في معزل عن جميع الأحداث التي كانت تهتز العراق بالاجتياح التتري وتهتز الشام بالحروب الصليبية وبالاجتياح التتري معا.^{١٠}

وفي معظم هذه الحقبة لم يوجه السلاجقة ولا الخلفاء العباسيون اهتماماتهم إلى قمع مؤامرات الصليبيين وسفكهم دماء المسلمين في الأرض المقدسة وكانوا لا يعتنون باستغاثة وفود المسلمين من البلاد المصابة بها ولم يجلب نفعا ما قاموا به من قلة المعونة .^{١١}

نعم لقد أدى بعض السلاجقة دورا هاما في إخفاق حملة الصليبيين وكسر شوكتهم نجد على طليعتهم عماد الدين الزنكي ، فإنه بدأ بمحاربة الإفرنج الصليبيين كما مر و به أخذ المد الصليبي بالتراجع والانحسار وهو الذي أبلى في قتال الصليبيين بلاء حسنا قبل

^٨ - نفس المصدر قسم مصر ص ٣٠ .

^٩ - شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات ، قسم مصر ص ٣١-٣٢ .

^{١٠} - الدكتور عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ٤٢٦/٣ .

^{١١} - فليب حقي : تاريخ العرب المطول: ٥٧٥/٢-٥٧٦ .

ظهور صلاح الدين و نور الدين محمود الذى زاد على أبيه فى محاربتهم و فى التغلب عليهم^{١٢}.

و فى هذه الأثناء قدم المغول على خيولهم السريعة و تنكبوا قسما غريبة الشكل فألقوا الرعب و نشروا الهول حيثما حلوا ، و لقد انطمست أمام هجماتهم معالم الثقافة فى عواصم الإسلام الشرقية و انقلبت الديار التى احتوت القصور الفخمة و خزائن الكتب التى اختزنت ألوفاً من الكتب و المتاحف قاعاً صفصفاً و أفناء خاوية لا حياة فيها فأنهم إذا دخلوا بلداً عملوا فيه النهب و القتل ، وكان البلاء بهم عاماً فى بلاد آسية خصوصاً فى بلاد المسلمين ، فأن كثيراً من البلدان الإسلامية التى اجتاحتها التتر و المغول قد خلت كلها من أهلها أو كادت^{١٣} .

يقول عز الدين بن الأثير متعجباً على هذا الهول: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها — فمن ذا الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام و المسلمين.... فيا ليت أُمي لم تلدني ، ويا ليت مت قبل حدوثها و كنت نسياً منسياً^{١٤}

ثم لم يذكر عز الدين ابن الأثير فى هذه الحادثة وفى الصفحات التالية التى خص بها الأخبار التقتيل و التخريب الذين قامت بهما جموع التتر فى بلاد الإسلام. و سقطت بغداد بأيدي التتر و بسقوطها زالت الخلافة العباسية التى عاش فى ظلها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون : يقول الدكتور عمر فروخ:

فى يوم الخميس رابع محرم من سنة ٦٥٦ من الهجرة ثارت غيرة عظيمة شرق بغداد على درب يعقوب بحيث عمت البلد فأنزعج الناس من ذلك و سعدوا إلى السطوح و المنائر يتشوفون ، فانكشفت الغبار عن عساكر السلطان هولاكو وقد طبق وجه الأرض أحاط بغداد من جميع جهاتها و شرع العسكر الخليفة فى المدافعة و المقاومة إلى اليوم التاسع عشر من محرم و تقحم العسكر السلطاني عسكر هولاكو هجوماً على بغداد و دخولا فجري من

^{١٢} - شرقى ضيف : عصر الدول والإمارات ص ٥١٢.

^{١٣} - عمر فروخ تاريخ الأدب العربى ٤٢٦/٣ . و ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٣٥٨/١٢ . و شرقى ضيف : عصر الدول والإمارات

ص ٥١٣-٥١٥.

^{١٤} - عز الدين بن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٣٥٨/١٢ و ٤٠٠ .

القتل والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما بتفاصيله ثم استشهد المعتصم في رابع صفر سنة ست وخمسين وستمائة فانقرضت بذلك الخلافة العباسية^{١٥}

الحالة الاجتماعية

كان المجتمع العربي يعاني ما تعانيه الدولة العربية من اضطراب وصراعات وكانت الأعداء يجتمعون فيه من الداخل والخارج ويسيدون مجموعة من النظم لم يعرفها الإسلام من قبل تلك هي نظم الإقطاع التي استحدثها ملك شاه السلجوقي ووزيره نظام الملك فإنه أمر بأن يقطع كل أمير قائد جيش إقطاعاً في ملكه الواسع العريض بحيث يتكفل كل أمير وقائد بكل ما يتصل باقطاعه من نواحي الإدارية والمالية والعسكرية على أن يخضع للسلطان مباشرة ويكون مع جيشه تحت إمرته.

وكان لهذا النظام من الاجتماع محاسن ومساوي فإن السلطان قد استطاع أن يعد جيشاً صموداً ثبتوا أمام هجمات الصليبيين ، ومن مساويه أن الشعب انقسم به إلى طبقتين متناقضتين إحداها الطبقة العليا ويدخل فيها الأمراء وأصحاب الإقطاع والتجار وأصحاب الثراء المقربين من الأمراء والولاة ؛ والثانية الطبقة السفلى - وهي الطبقة الدنيا ويدخل تحتها الفقراء الذين لا يملكون شيئاً لأن الطبقة العليا تملك كل شئ وهم يعيشون عالية عليها أجراء في الأرض أو كادحين في خدمة القصور وإعداد آلة الحرب. وتتوسط بينهما الطبقة الوسطى - ويدخل فيها العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع وصغار الفلاحين والعمال والرقائق والنحاسون.

فمن ردود الفعل استبداد الجنود وانطلاقهم يلغون في أقوات الناس وحرمتهم و يستأسرون لأنفسهم بما يطيب ويلفظون لغيرهم كلما يفضل ويخيب فانتشرت المظالم وعمت البلاد بالفساد والخراب وانتابتها الأمراض الاجتماعية وسيطرت الأوهام على النفوس والعقول واضطرب الشعب في مجموعة من العادات والتقاليد الفاسدة، ونتيجة

^{١٥} - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ٤٢٨/٣.

لذلك الظلم والطغيان من جهة الأمراء والحكام فشنت فى المجتمع أخلاق العبيد كالمثلق والرياء والدس والخيانة والوقيعه وانتشر الرقيق من النساء والغلمان واضطرب العيش بالحروب والفقر.

وكان الشعب فى الطبقة السفلي يأخذون لكسب معاشهم أسبابا وأساليب مشروعية وغير مشروعية وطبيعيا وغير طبيعي فيطلبون الأموال من أهل الثراء والحكام بالاستجداء والتملق وكان الأمراء يتصدقون على رعاياهم الفقراء ويجودون عليهم بالعطايات والهبات المالية والهدايا العينية بالكساء أو الغذاء فى المواسم والأعياد وتعتبر هذه مكرمة ومأثرة لهم. إن هذه العمليات وإن كانت برا وإحسانا فى ظاهرها ولأنها فى الحقيقة كانت أشد ظلما عليهم لأن معاملات الأمراء والإقطاعيين الدكتاتورية أدت الى إساءة حالهم وإنزالهم منزلة الطبقة السفلي.

وكان علماء البلاط وفقهائه يعرضون الأحكام الشرعية بما تلائم رغبات السلاطين والأمراء ولكن هناك نخبة من العلماء المخلصين لم يخضعوا أمام شوكتهم فجاهروا أصواتهم بتطهير الدين عن رغبات وتحريفات علماء الملوك وبعرضه كما هو فى الحقيقة نجد على طليعتهم ابن تيميه وعز الدين عبد السلام.^{١٦}

ونرى الأدباء والشعراء والكتاب جعلوا الشعر والكتابة وسيلة لاكتساب الرزق فكان الشعراء يقرضون الأشعار فى مدح السلاطين والأمراء يبتغون بها جمع المال والهدايا كما كان الأدباء يأخذون وظائف حكومية لنفس ذالك الهدف نجد على مقدمتهم عماد الدين الكاتب الإصفهانى والقاضى الفاضل وضياء الدين بن الأثير يقول الدكتور محمد زغلول سلام :

وكان الأدب وسيلة من وسائل الرزق وكانت موضوعات التملق تغلب على المواطنين من الشعراء وكان الأمير أو السلطان أو القائد أو الرجل العظيم يأوي جماعة من هؤلاء سواء عن طريق الدولة بتعيينهم فى وظائف متعلقة بديوان الرسائل أو الدواوين أخرى أو عن طريق شخص كان يكفل لهم الرزق عن طريق راتب معلوم^{١٧}

ولم يسلم الدين عن وقوعه فى شبكة المتدينين فإن كثيرا من أهله جعلوه وسيلة الاسترزاق حتى ظهرت فى المجتمع جماعات لم يكن لها عمل فى الحياة إلا أنهم متدينون صالحون

^{١٦} - الدكتور محمد زغلول سلام: الأدب فى عصر الأيوبيين ص ٤٥-٤٤

^{١٧} - نفس المصدر ص ٥٥

عندهم من وسائل طلب الرزق سوى الدين والصلاح والتقوى وكانوا ذا جاه وعظمة عند عامة الشعب فكان الأمراء يتقربون للناس بتقريب هؤلاء المتدينين فظهرت في المجتمع كثير من المبتدعات والخرافات ليست لها اصل في الدين الشريعة كما ظهرت فيه رباط الصوفية والخانقات بجوار المساجد ومقابر الأولياء وكانت تضم جماعات وأشتات من الناس من مختلف بلدان العالم الإسلامي يأكلون ويشربون ويدعون للأمراء بالخير والبركة إذا ما استمرت الوظائف المالية أو يدعون عليهم بالويل والثبور والنكال إذا انقطعت الرواتب^{١٨} كما نشاهد بعض هذه البدعات في عصرنا الحاضر ولكن استثنى هنا بعض المتصوفين الذين اهتموا بتطهير قلوب الناس وتنوير أرواحهم عاملين بالكتاب والسنة أمثال أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وابن الجوزي والسخاوي وشهاب الدين السهروردي ومحي الدين ابن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ وعبد القادر الجيلاني وغيرهم .

وتكونت الهيئة الاجتماعية آنذاك من عناصر مختلفة وألوان متباينة من السكان من العرب والأكراد والفرس والترك والروم والفرنجة والأرمن وغيرهم ولكل جماعات من هؤلاء تراثها الفكري والاجتماعي والديني ولا شك أن اختلاط هذه العناصر جميعا وفد أشياء كثيرة جديدة في نظم المجتمع وفي العادات والتقاليد وفي الأدب وفي الفكر والفن وفي الدين . وكان البارز من بين هذه العناصر العنصر التركي والعنصر العربي فالأول بدأ حركته في العالم الإسلامي منذ خلافة المعتصم بالله العباسي وكان المعتصم هذا أول خليفة استعان بالأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة وقلدهم الولايات الكبيرة وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شئ^{١٩}

فأصبح نفوذ الأتراك شديدا في الدولة العباسية وازداد زيادة فعالة حين سيطرت السلاجقة على الحكم واحتل مراكزه في الدولة واستبد بالسلطان دونهم ثم من بعدهم

^{١٨} - نفس المصدر ص ٥٥

^{١٩} - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٨ ط مجتبى دهلئ بالهند عام ١٣١٩ والذكرور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص

الخوارزميون فأصبح الأمر لهاتين الدولتين فى العالم الإسلامى فى الشرق و سبب تزايدهم اضطرابا فى المجتمع الإسلامى لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد^{٢٠} و كان للعنصر التركى دور هام فى المجتمع وأثر واضح فى إثارة الوعي الشعبى يمتاز بجمال الصورة وحسن البنیان والاستعداد الحربى مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على أن ينتخبوه خدما أو حرسا فاستكثر من حسن تدبيره وشجاعته وتمسكه بأهداف الإسلام سببا للاعتماد عليه حتى أصبح له الأمر رويدا رويدا فى العالم الإسلامى .ويظهر للمتصفح عن أحوال الأتراك أن بروزهم كان فى مجالات الحروب فقط ولم يستطيعوا إحراز قصبات سبق فى ميادين الفكر والأدب والثقافة .

وأخذ العنصر العربى مع انتشار العنصر التركى فى المجتمع يفقد سابق مجده وسالف عظمته وسيادته ومشاركته فى المجتمع فتخلى عن الجيش والسياسة وشئون الحكم للفرس كما تخلى الفكر والأدب والفن لغيرهم وينحل فى مختلف الأجناس والأقوام فجعلوا يأخذون عادات وتقاليد السكان الآخرين غير أن بعض القبائل القوية التى كانت تعيش فى العراق والجزيرة وديار بكر وبعض أطراف الشام ومصر كانت لاتزال تحتفظ بعروبتها وتحاول التشارك فى السياسة والحكم وفى الحوادث الجارية وأن تقتسم الأسلاب كما أن بعض من ينتمون إلى العنصر العربى قد شارك مشاركة فعالة فى الفكر والفن والأدب فظهر منهم جماعة من العلماء والكتاب والشعراء وكان آل الأثير خير مثل لهؤلاء العرب الذين احتفظوا عروبتهم ، وقل دور هذا العنصر فى العلم والثقافة بصفة عامة فلم ينبغ منهم علماء مشهورون ولم يظهر شعراء مبرزون الا بعض الشعراء والكتاب كالأبيوردى الذى افتخر بنسبه العربى الأموي العبد شمسي وتغنى به وبعنصره العربى طوال حياته فى قصائده التى كانت تبدو عربية الطابع بدوية الصياغة والمعاني^{٢١}.

و العنصر الفارسى من العناصر التى تكونت منها الهيئة الاجتماعية فى عصر ضياء الدين فقد بدأ العنصر الفارسى إعادة أمجادهم الماضى وتراثهم العلمى والأدبى كما ظل يحتفظ قوميته ولغته الفارسية ونشاطاته السياسية والعلمية والأدبية طوال هذا العصر حتى أدى دورا خطيرا فى مختلف نواحيه فكان منه رجال الفكر والثقافة الكبار أمثال الغزالي

^{٢٠} - محمد زغلول سلام : الأدب فى عصر الأيوبيين ص ٥٧ و الدولة الخوارزمية ص ٣٦

^{٢١} - نفس المصدر ص ٥٨

والزمخشري والفخر الرازي والجويني وعمر الخيام والسكاكي وغيرهم كما كان منه الوزراء والحكام والسياسيون مشهورين كنظام الملك^{٢٢}

وكانت العقائد الفارسية تركت آثارها في العقائد الإسلامية كما تركت العقلية الفارسية آثارها في العقلية العربية والإسلامية عامة وكذلك كان للأدب الفارسي أثر واضح في الأدب العربي خاصة وكانت كثرة علماء الفرس ونشاطاتهم الفعالة في تطوير تراثهم العقلي والأدبي وكثرة أسفارهم إلى المدن الإسلامية لطلب العلم أو لتدريسه لطلبة العلم ميزته عن غيره من العناصر.

وإلى جانب هذه العناصر الثلاثة كان في مصر أقباط يعيش مع العرب وامتزجوا بهم وتعلموا اللغة العربية وبرعوا فيها حتى أن بعضهم قد اشتهر في الشعر العربي وأدوا دورا ملحوظا في شئون الإدارة والدواوين فلم يستطع أمراء مصر وخلفاءها أن يستغنوا عن خدماتهم القيمة وكثيرا ما بلغ منهم جماعة مرتبة الوزارة في عهد الأيوبيين مثل المهذب بن مماتي واسعد بن مماتي المتوفى ٦٠٦ هـ^{٢٣}

وبقية العناصر قد امتزجت واختلطت بتقاليد أهل تلك المناطق مع الاحتفاظ بشيء من ثقافتها وطقوسها وتراثها كما نشاهدها في الإفرنج الصليبيين فأنهم قصدوا الأراضي المقدسة أولا ثم يتصلون بهم فقلعوا لباسهم الأوربي وتعلقوا بأزياء الوطنية واكتسبوا شيئا من الذوق الشرقي في الأطعمة والأشربة وآثروا لسكناهم البيوت الشرقية وتزوج بعضهم من الوطنيات حتى بلغ تعلقهم ببعض العادات والعقائد المحلية أن كانوا يصلون أحيانا في المزارات التي يقدسها المسلمون واليهود^{٢٤}

وإلى جانب السياسة والاجتماع نقف قليلا عند جانب الاقتصاد والدين فأن لهما أثرا فعالا لتوجيه فكر الأدباء والكتاب والشعراء فمن جهة الاقتصاد كان المجتمع العربي في عصر ضياء الدين مضطربا مقلقا للفروق الشاسعة بين الطبقات وتوالى الحروب الدامية بين الشرق والغرب وبين أمراء الشرق أنفسهم ولقلة إنتاج الأرض لعدم اتخاذ الوسائل الجديدة في الزراعة ولظلم الأمراء والإقطاعيين على عامة الشعب ولكن نشطت حركة التجارة وبلغ

^{٢٢} - نفس المصدر ص ٥٩

^{٢٣} - محمد زغلول سلام : الأدب في عصر الأيوبي ص ٦١ نقلا عن سيرة القاهرة ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٧١

^{٢٤} - فليب حق : تاريخ العرب المطول ٧٦٢/٢

نشطها لم تعرف منذ العهد الروماني وكان لهذه التجارة أثر كبير فى حياة الناس وفى أحوال معيشتهم وفى ميزانية الحكومة ومشروعاتها ولم تعق الحروب المتتالية النشاطات التجارية بين أهل بلادها والوافدين اليها.^{٢٥}

أما الصناعة فقد ازدهرت منها فى عصر ضياء الدين صناعة التحف المعدنية والخزف والزجاج والسجاد وكانت ضواحي بيروت تنتج زيتا والزيتون والصابون وفى بعض مناطق الشواطئ توجد أحواض صناعة الملح كما توجد فى بعض المناطق المصنوعات تصنع فيها أشياء مختلفة من العاج ومن عظام الفيل والحديد والنسيج والمصبوغ وبالجملية لم تكن الأحوال الاقتصادية فى ذلك العصر حسنة فقد واجه الشعب مصائب شتى ومجاعات مستمرة فعم فيه الموت والهلاك، يصورها الدكتور محمد زغلول سلام حين يقول :

وعلى الرغم من هذا كانت تحدث هزات اقتصادية عنيفة قد تؤدى بالكثيرين إلى المجاعات وانتشار الكساد ثم الأوبئة ، رجع ذلك إلى أسباب عدة منها انخفاض النيل فى مصر وعدم سيطرة الحكومة على تصريفه لانعدام الوسائل والمعرفة العلمية بأصول الرى فى بلد جل اعتماده على الزراعة وانصراف الفلاح عن فلاحه أرضه والعناية بها لأنه يرى أن ثمرة كده تذهب لغيره كما أن بعض الحكام الظالمين كانوا يقومون بأعمال تعسفية كمصادرة الأموال بالجملية والاستيلاء على الأمتعة والأموال والأرض عدوانا وظلما^{٢٦}

وكتب عماد الدين الكاتب الإصفهاني واصفا أحوال اقتصادية لذلك العصر فيقول :اشتد الغلاء وامتد البلاء وتحققت المجاعة وتفرقت الجماعة وهلك القوى فكيف الضعيف ونحف السمين فكيف العجيف وخرج الناس خوف الموت من الديار وتمزق فريق مصر فى الأمصار ولقد رأيت الأرامل على الرمال والجمال باركة تحت الأحمال ومراكب الفرنج واقفة على ساحل البحر على اللحم تسترق الجياع باللحم^{٢٧}

ومن جهة الدين كان فى مجتمع العصر ظهرت ألوان جديدة من العقائد والتقاليد الدينية لم تكن معروفة من قبل لما كان فيه وفود العناصر المختلفة من الروم والفرس والفرنجة والهند وكانت العقائد تختلف بين سماوية ووثنية أو طبيعية فأثر ذلك الامتزاج فى العقيدة

^{٢٥} - شوقى ضيف : عصر الدول والإمارات ، ٥٢٦/٦

^{٢٦} - محمد زغلول سلام : الأدب فى عصر الأيوبيين ص ٥٦

^{٢٧} - سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان : ٤٧٧/٨

الإسلامية الخالصة التي يتدين بها أهلها وكان العقيدة الشيعية بارزة على العقائد الإسلامية ما دام عرش الحكومة تحت البويهيين والفاطميين ثم لما احتلت السلاجقة والأيوبيين على الحكومة أندثر النفوذ الشيعي وانحاز أصحابها أحياناً إلى الإفرنج الصليبيين بعاطفتهم وبسلاحهم إذ عدوا الدولة القائمة في العراق والشام دولة سنية من أجل ذلك كانوا ميالين إلى مظاهرة الإفرنج على أهل السنة.^{٢٨}

وكان العداء على قدم وساق بين الشيعة والسنية وبلغ الصراع بينهم مبلغاً عظيماً حتى قاموا بتسليم بلاد المسلمين والعرب إلى الأعداء للانتقام من الفريق الآخر يصور ابن شاعر هذه الحالة بقوله : وقد بلغ الخلاف بين السنة والإسماعيلية وغيرهم من الفرق درجة التفريط والخيانة وتسليم بلاد المسلمين والعرب للأعداء للتشفي والانتقام من الفريق الآخر ومثاله ما فعله ابن العلقمي الوزير الشيعي الرافض لمولاه الخليفة العباسي السني المستعصم إذ بيت خيانتة له لخلاف بينه وبين دويدارة وكان مغالياً في السنة وكانت النتيجة تسليم بغداد للتتار.^{٢٩}

وتمت الغلبة في النهاية لأصحاب السنة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ففي المشرق غلب السلاجقة والأتابكة والأيوبيون وفي المغرب غلب الموحدون من بني عبد المؤمن.^{٣٠} وأخذ الشعور الديني بين المسلمين ينمو ويشهد حاجة المجتمع إلى نموه لتعبئة الشعور العام ضد غزو الصليبيين وساعد الحكام على تنميته والنفع فيه واتخذوا لذلك أسباباً كثيرة منها تشجيع الفقهاء وتقريبهم والإغداق عليهم ومنها محاولة الحكام الظهور بمظاهر دينية لتقريب أنفسهم إلى الناس كالعكوف على الصلاة وقراءة القرآن واستماع إلى الحديث والإغداق على الفقراء المسلمين وبناء المساجد ومدارس القرآن والحديث وما إلى ذلك وكذلك تقريب فقراء الصوفية وبناء الربط لهم في المدن الكبيرة وتوفير ما يحتاجون له من غذاء وكساء.^{٣١}

^{٢٨} - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ١٤٧/٣

^{٢٩} - ابن شاعر الكشي : فوات الوفيات ٦٨ / ٢ و ٣١٣

^{٣٠} - محمد زغلول سلام : ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد ص ٨

^{٣١} - محمد زغلول سلام الأدب في عصر الأيوبيين ص ٦٤

وكانت أحوال الصوفية وأعمالهم موضوعا لكثير من الشعر وخاصة ما كانوا يقومون به من غناء وذكر ورقص فى حلقاتهم وكانوا يدعون إلى " الموالد " والحفلات الدينية لأداء طقوسهم التى عرفوا بها وكان الأمراء وسراة القوم يعجبون بهم ويحرصون على استدعائهم فى المناسبات الدينية فقد كان مثلا صاحب اربل يحضر عددا منهم ليلة مولد النبوي ويدعوا أعيان العلماء وسادة القوم ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر.^{٣٢}

وهذا لون من ألوان المظاهر الدينية و العقيدية فى ذلك الحين لعوامل اجتماعية واقتصادية بسبب ما كان يسود العصر من مظالم اجتماعية ومساوي فى الحكم والإدارة والاستبداد وعدم الاستقرار للحروب المتوالية والفتن الداخلية وكثرة المجاعات والأوبئة التى حصدت أرواح الملايين من البشر.

ثم إذا كانت الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية تؤثر فى الفكر والثقافة وفى الأدب والفن فيجدر بنا أن نتريث برهة عند ثقافة العصر ونستعرض أوضاعه الثقافية التى تأثر بها كتابه وأدباءه وشعراءه .

الحالة الثقافية والأدبية

كان عصر ضياء الدين ابن الأثير عصر إحياء للفكر والثقافة العربية كما كان عصره عصر إحياء سياسي وقد تمثل هذا البعث فى كثير من المظاهر والحق أن العلم كان رائد كل أنسان فى عصره فطبيعي أن ذلك خلف آثاره فى ذوقه وثقافته وإنتاجاته لأنه نشأ وسطه وشارك فيه فنذكر أحوال تلك البيئة العلمية مع الإلمام بالأقاليم والمناطق التى كان اتصاله بها اكثر فنبدأ بالعراق : وكانت عاصمتها بغداد التى لا تزال حاضرة الدولة العباسية واثرة الثقافة العربية العريقة منذ قديم وقد بنى بها نظام الملك " المدرسة النظامية " التى كانت مركز الثقافة لجميع الأقطار الإسلامية والتي وفد اليها طلبة العلم من المغرب ومصر والشام ومن بلاد المشرق فكانت كعبة العلم فى القرنين الخامس والسادس . وكان إلى جانب المدرسة النظامية مدارس أخرى عديدة وقد عددها ابن جبير ثلاثين إذ يقول :

^{٣٢} - ابن كثير : البداية والنهاية : ١٣٧/١٣

” أنى عدتها ثلاثين مدرسة فى أيامها وما منها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها واعظمها واشهرها النظامية وهى التى ابتناها نظام الملك وجددت سنة ٥٠٤ من الهجرة ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير على الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يوم بهم^{٣٣}“

وكان الحكام والسلاطين يشجعون العلم والعلماء ويتسابقون إلى تقريب الفقهاء والحفاظ واهتم كذاك عامة الناس بالعلم والعلماء وكان بعض السلاطين شغوفاً بالعلم والعلماء ويحب الاستماع للعلماء والجلوس فى حلقات الدرس فازدهرت بها الحياة العلمية وكثر علماءها ومتعلموها بفضل تشجيع الحكام لهم حتى حفلت العراق بنخبة من العلماء والأدباء والكتاب والنحاة واللغويين أمثال ابن الدهان أبى سعيد محمد ابن المبارك وابن الجواليقى والتبريزى وابن الجوزى وابن النجار وابن شداد وياقوت وعبد اللطيف البغدادي وآل الشهرزورى وابن عصرون وابن المستعرف وابن اسعد الموصلى وآل الأثير أى ضياء الدين وأخويه وغيرهم^{٣٤}.

أما مصر فكانت بتأثيرها الواسع تتميز فى الحضارة الإنسانية من قديم ولا يتوقف تأثيرها عند فن دون فن بل امتد إلى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء كان العلم الهندسى أو الرياضى أو الطب كما امتد تأثيرها إلى بناء الأهرامات وفن المعمار والملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وما إلى ذلك . وتقدمت مصر فى مجالات ثقافتها وفنونها وعلومها فى عهد ضياء الدين بعدما باهرا لأن أمراء الأيوبيين ووزرائهم فى عصره أكثرهم كانوا علماء أو محبين لهم واهتم أكثرهم ببناء المدارس فكان بمصر عدد كبير من المدارس ودور العلم يقول المقرئى: والطريف أنه اشترك معهم فى إنشائها بعض التجار وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^{٣٥}.

وهذه المدارس كانت تعنى بالدراسة الإسلامية والدراسات اللغوية والبلاغية ثم بتقدم الزمان قد تعددت وكثرت المدارس فى كل مدينة من مدن مصر وكانت بها جميعا الجوامع

٣٣ - ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٠٥

٣٤ - محمد زغلول سلام : الأدب فى عصر الأيوبيين ص

٣٥ - المقرئى: خطط مصر ٣ / ٣١٣ نقلا عن شوقى ضيف : عصر الدول والإمارات قسم مصر ص ٨١

والمساجد واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي بجامع العطارين وظل به نشاط علمي وافر زمن الأيوبيين^{٣٦}

وقد لعبت مساجد القاهرة الكبرى دورا خطيرا في ثقافتها وعلومها وكانت جوامعها الهامة في الأزهر وجامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص وفي بعضها كانت تدرس على المذهب الأربعة. أما علماءها فكان بعضهم قد جاءوا من العراق والشام أو من المشرق والأندلس والمغرب وكان بعضهم نشأوا بها نجد منهم ابن الزبير القاضي وابن هيجون البلطى وابن الحاج شيث ابن إبراهيم واسعد ابن مماتى والسخاوى والبوصيرى والشاطبى وغيرهم وكان ضياء الدين ابن الأثير وابن خلكان وياقوت الرومى والخطيب البغدادى من العلماء الوافدين اليها .

وأما الشام فكان بها تراث يوناني مسيحي حين فتحها المسلمون ثم بعد دخول أهلها فى الإسلام اعتنى بتعاليم الإسلام ثم نشطت الدولة الأموية بترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الفارسية مع الاهتمام بالنشاطات العلمية الدينية يقول شوقي ضيف : وظل هذا النشاط فى تعلم اللغة بجانب النشاط فى تعلم الدراسات الدينية وأخذت تتوالى طبقات فى زمن الولاة العباسيين تجعل هممها التعليم فى المدن وأيضا فى القرى والدولة لا تقتصر بل دائما تجرى عليهم الرواتب مما دفع إلى ظهور علم فى كل فرع من فروع الدراسات الدينية اللغوية.^{٣٧}

وازدهرت دمشق وأكثر من الشام فى عهد نور الدين وصلاح الدين وان كانت قد قاست كثيرا فى عهد الفاطميين والعباسيين فلا نبالغ إذ قلنا ان عهد صلاح الدين كان بالنسبة اليها عهد إحياء ونهضة وثقافة ممتازة فقد بنى بها صلاح الدين ونور الدين كثيرا من المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة والمساجد والخوانق ودور الحديث والربط التى كانت تغد اليها الصوفية والعلماء من أقطار العالم الإسلامى شرقا وغربا مما أدى إلى نشاط ثقافى ملحوظ ظهرت آثاره واضحة ثم بتقدم الأيام أخذت المدارس تتكاثر تكاثرا مفرطا فى حلب ودمشق وغيرهما من بلدان الشام وكان الأمراء والحكام يشجعون العلماء ويحرضونهم على تعلم العلم ومجالسة العلماء والسماع منهم فأصبحت دمشق بفضلهم مركزا ممتازا للعلم

^{٣٦} - شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات قسم مصر ص ٨٣

^{٣٧} - نفس المصدر قسم الشام ص ٥٤٧

والمعرفة والثقافة الإسلامية وجاءها الناس من مشارق الأرض ومغاربها وبعثت هذه النشاطات بعثة علمية باهرة وظلت مزدهرة طوال عصر ضياء الدين ابن الأثير حتى نبغ بها علماء كبار أمثال عبد الواحد الحنبلي وموفق الدين ابن قدامة وابن عساكر الحافظ وابن الصائغ وغيرهم .^{٣٨}

ويلوح للباحث أن عناصر الثقافة في عصر ضياء الدين كانت إسلامية عربية أو متأثرة بتيارات مختلفة - يونانية وفارسية وهندية ومسيحية وسامية أخرى ثم اعتمدت حركة البعث العلمي والأدبي على التراث الإسلامي الزاخر في العصور السالفة فان السلاجقة السنيين لا يزالون على قدم وساق لإحياء شعائر أهل السنة لأنهم ظهروا هناك على اثر فترة من الزمن طغت فيها عناصر الثقافة اليونانية البعيدة عن روح الإسلام . فمالوا إلى عناصر الثقافة الإسلامية كالقرآن والحديث والفقه واللغة والشعر القديم والتاريخ مما أدى اهتمام الناس بالقرآن وشغفهم به إلى تفسير القرآن الكريم واستخراج العلوم المتنوعة منه فظهرت مجموعة من الكتب التفسير المشهورة مثل تفسير الزمخشري وتفسير الفخر الرازي وغيرهما . وكان العلماء والأدباء يستشهدون بالقرآن الكريم ويحفظونه ويضمنون به الشعر والرسائل ويقتبسون من جوامع كلمه فقد حفظ ضياء الدين القرآن واستعان به في رسائله وجعله من أصول طريقته الكتابية بل يعتمد عليه في تربية ملكته الكاتب والشاعر والناقد جميعا .

وما كان الاهتمام بالحديث الشريف في هذا العصر اقل منه بالقرآن فكان السلاطين كعامة الناس يحبون مصاحبة المحدثين ومجالستهم والسماع منهم وكان الأدباء والشعراء يحفظونه ويضمنون به الشعر كلما يحتاجون إلى تضمينه - ولقد رأينا ضياء الدين ابن الأثير حفظ شيئا كثيرا منه ما لا يحصى عدده واهتم به اهتماما بالغاً حتى ألف فيه كتاباً باسم مختار من الأخبار النبوية وانتفع به كلما سنحت له الفرصة في صقل ذوقه وفي كتاباته ومنهجه في الرسائل و تأليفه في البيان .

وكذلك الفقه فقد كان للناس به شغف خاص وكان للفقهاء مكانة رفيعة عند السلاطين وازدهرت دراسات على المذاهب المختلفة وظهرت في هذا العصر دراسات مختلفة وموسوعات ضخمة في الفقه مثل كتاب بدائع الصنائع للكاساني والمبسوط للسرخسي في

الفقه الحنفى كما ظهر كثير من المختصرات لمشاهير علماء العصر كابن الجوزى وابن الصلاح وكمال الدين الشهرزورى^٢.

وازدادت عناية الناس باللغة وعلومها وامتازت دراستها بطابع خاص هو كثرة المختصرات والشروح للكتب الهامة من مؤلفات الأئمة السابقين وفى علوم اللغة كثرت الكتابات فى هذا العصر كما كثرت فى النقد والبلاغة والنحو والصرف وفى النحو الكافية لابن الحاجب والألفية لابن المالك وفى الصرف الشافية لابن الحاجب - كما ألف ضياء الدين فى البلاغة والنقد كتابه الشهير ، المثل السائر ، وفى علم البيان، الجامع الكبير، وكفاية الطالب والوشى المرقوم .

واهتم الناس بالتاريخ لحفظ تراث آبائهم وحسن الإقتداء بهم وبآثارهم فتعددت ألوانه وألفت الكتب فى التراجم والسير والبلدان و تراجم العامة مثل أسد الغابة فى معرفة الصحابة والكامل فى التاريخ لعز الدين ابن الأثير- أخى ضياء الدين والمنظم لابن الجوزى وتاريخ دمشق وإرشاد الأريب لياقوت الحموى وتاريخ اربل لابن المستوفى والنوادر السلطانية لابن شداد ووفيات الأعيان لابن خلكان وما إلى ذلك .

وكان الأدب فى عصر ضياء الدين صورة للحياة والمجتمع فظهرت فيه تيارات واتجاهات مختلفة كان يغلب عليها التقليد والميول إلى القديم والطابع الدينى لمذهب أهل السنة ولما كان هذا العصر يتميز بالتفانى الحربى بين المسلمين والصليبيين فأصبحت تلك الحروب المتصلة سببا لظهور ألوان متعددة فى الموضوعات الأدبية حيث اقتضتها طبيعة العصر فكان منها الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين وكان منها وصف المعارك والحصون والتغنى بالشجاعة وحسن البلاء فى حرب الأعداء وكثرة القول فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف الجيوش وآلات الحرب والقلم ووصف الرياض ومظاهر الطبيعة وكان الشعراء والكتاب جميعا يشتركون فى هذا كله وكانوا يسجلون معالم الحياة والمجتمع ويصورون الأحوال السياسية والاجتماعية والجانب الفكرى والكوارث الكونية والمجاعات والأوبئة وما كان يعانيه الشعب^٣.

^٢ - ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد : محمد زغلول سلام : ١٣

^٣ - محمد زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ١٣ - ص ١٠٥

وكثرت الكتب التي تجمع أكثر ما يمكن من تلك الموضوعات منها ما يرشد إلى صناعة الشعر والنثر على طريقة بديعة ومن بينها كتب - ضياء الدين ابن الأثير - كالمثل السائر والجامع الكبير والوشى المرقوم وغيرها . وكان كتاب العصر يصورون تجاربهم ويكتبون على طريقة عصرهم ويعتمدون على الإكثار في السجع والمحسنات البديعية فكان مؤرخ العصر حاول في تدوين الحوادث بأسلوب أدبي رفيع كما نجدها في كتابة ابن شداد في فتح بيت المقدس وياقوت في كتابة ارشاد الأريب . فكان الأدب سجل الحياة والمجتمع لذلك العصر سجل فيه معالم الحياة والحياة والمجتمع كما سجل فيه الاضطراب السياسى والأحداث المعاصرة الكبرى.

ومن الموضوعات التي تكلم عنها أدباء ذلك العصر ، نيل مصر، فقد تناولوه في كتاباتهم النثرية والشعرية بحسب ماتجود به قريحتهم أو بحسب المناسبة التي يصفونه فيها وممن جرى قلمهم بوصفه - ضياء الدين ابن الأثير أشار إلى بعضه ابن الخلكان في وفياته " قال و له رسالة يصف فيها الديار المصرية و هي طويلة و من جملتها فصل في صفة نيلها وقت زيادته وهي معنى بديع غريب لم اقف لغيره على أسلوبه و هو قوله " و عذب رضابة فضاى جنى النيل و احمر صفيحه فعلمت أنه قد قتل المحل .^{٤٠}

ومن فنون النثرية التي كانت سائدة في عصر ضياء الدين - هي الرسائل والكتابات الأدبية والخطب والمقامات ولكن الاهتمام البالغ كان إلى الرسائل لصلتها بالديوان وأهميتها في الاتصال بين الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وبينهم وبين العامة وهذه الرسائل في الحقيقة هي الرسائل الديوانية وإلى جانب هذه الرسائل توجد الرسائل الإخوانية التي كانت يتبادلها الكتاب في المناسبات في التهاني والمداعبة أو في الاشتياق وما إلى ذلك . وقد ألف جماعة من الكتاب كتباً في فنون الرسائل وأصول النثر والنظم - وكان ضياء الدين ابن الأثير على رأسهم - فقد ألف كتباً عدة في هذا الموضوع وكان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي من أكبر الكتاب في هذا العصر فقد اصطنع لنفسه طريقة سار عليها وتبعه فيها التابعون أمثال ضياء الدين ابن الأثير والكاظم الإصفهاني عماد الدين .

^{٤٠} - ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٣١

ويتضح للباحث ومن يخوض في استعراض الأحوال الثقافية لعصر ضياء الدين - أن الكتابة قد امتازت في عصره واقتحمت على الشعر ميادينه بل وتفوقت عليه حتى أصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن رفع رايته الشعراء دهورا طويلا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني

ضياء الدين ابن الأثير في مراحل حياته

- مسقط رأسه
- اسمه ونسبه
- أبوه وأمه
- نشأته وتعليمه
- أساتذته وشيوخه
- رحلاته العلمية والرسمية
- ابن الأثير السياسي
- استقراره أخيراً في الموصل
- النهاية الأليمة
- مكانته بين الأدباء وصفاته النفسية

مسقط رأسه

يليق بنا أن نذكر عن مسقط رأس أديبنا شيئا لمكان دوره البارز في تكوين شخصيته الفذة فنستعرض تعريفه وموقعه - فقد أجمع المؤرخون الذين ترجموه قديما وحديثا على أنه ولد في - جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٨ هـ - وهي مدينة تقع على الضفاف الغربية لأعالي نهر دجلة وقبالة جبل الجودي الذي استقرت عنده سفينة نوح عليه السلام و الذي يقوم في قمته مسجده عليه السلام - إليه ذهب بعض المفسرين بأن سفينة نوح عليه السلام استوت على هذا الجبل لقوله تعالى " واستوت على الجودي " ^٣

وهذه المدينة تسمى جزيرة ابن عمر - تحيط بها دجلة من جميع الجهات إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ونصب عليه رحي فأحاط بها من جميع جوانبها وينسب اليها جماعة كثيرة منهم بنو الأثير العلماء الأدباء. ^٤

واختلف في سبب تسميتها بجزيرة ابن عمر ؛ قيل إنها منسوبة إلى بانيها يوسف ابن عمر الثقفي أمير العراقيين ؛ وقيل إن رجلا من أهل برقيد بناها فنسبت إليه ، وهناك من قال إنها جزيرة أوس وكامل ابني عمر ابن أوس التغلبي كما ذكر بعضهم أن أول من عمرها هو الحسن ابن عمر بن الخطاب التغلبي حوالي سنة ٢٥٠ هـ . ^٥

وجزيرة ابن عمر هذه كانت في شمال سورية الشرقى قرب الموصل وقتئذ ، أما الآن فهي تقع تحت حظيرة التركيين كما يقول صاحب أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب - و جزيرة ابن عمر هذه فهي الآن من بلاد تركية في قضاء زاخوا على الحدود العراقية التركية. ^٦

^٣ - سورة هود ١٢ : ٤٤

^٤ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٠٢/٣

^٥ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٥/٣ و معجم البلدان ١٠٢/٣

^٦ - أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب : سلسلة يصدرها الدكتور صلاح الدين المنجد : دار الكتاب الجديد بيروت عام ١٩٦٣ م

ويقول المقدسي في وصفها : أنها حسنة البناء عامرة بالسكان تحيط بها بلاد خصبة تحمل منها سفن دجلة صادرتها من العسل والزبد والبندق واللوز والفسق و غير ذلك إلى الموصل.^٧

في تلك الجزيرة العمريّة الخصبة وفي كنف أسرة عربيّة من شيبان فتح ضياء الدين ابن الأثير عينيه للوجود يوم الخميس العشرين من شهر شعبان سنة ٥٥٨ هـ على ما رواه ابن خلّكان وقد تأثر به كل من ترجموه قديما وحديثا فكان المصادر مجمعة على أنه ولد في ذلك اليوم من تلك السنة.^٨

اسمه ونسبه،

هو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلّي الشافعي .^٩
فاسمه نصر الله وكنيته أبو الفتح ولقبه ضياء الدين إلا أن لقبه غلب على اسمه وكنيته حتى اشتهر بها ، والجزري نسبة إلى مسقط رأسه جزيرة ابن عمر ، والموصلّي نسبة ثانية إلى مدينة الموصل العراقية حيث انتقل إليها مع أسرته وعكف بها على دراسته ، والشافعي نسبة إلى مذهبه لأنه كان شافعيًا مذهبًا ، وكان عربيًا الأصل شيبانيًا النسب ينتهي نسبه إلى شيبان بن ثعلبة وهي بطن من بكر بن وائل من العدنانية ومن قبائل هذا البطن بنو رقاش آل عمر بن مرثد وبنو مازن بن شيبان ومعظمهم كانوا يسكنون في صدر الإسلام شرقي دجلة في جهات الموصل.^{١٠}

ويقول أبو زهرة : وشيبان قبيلة من ربيعة عدنانية تلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في نزار ابن معد ابن عدنان وفي هذه القبيلة همة وإباء وحمية كان منها المثني ابن حارثة الذي تولى قيادة الجيوش الإسلامية عند مهاجمة العراق في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو الذي حسن لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، تولى بهمته أولى

^٧ - دائرة المعارف الإسلامية : قرآن ٤٥١/٦ و مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٣/٤ عام ١٩٤٨ م

^٨ - ابن خلّكان : وفيات العيان ٢٥/٥

^٩ - نفس المصدر

^{١٠} - نفس المصدر ٣٠٣/٦ و النويري : نهاية الارب ٣٣٢/٢

الحملات فشهد له الصديق في ذلك بأحسن البلاء. ولقد اشتهرت شيبان بالهمة و الصبر و حسن البلاء في الجاهلية و الإسلام.^{١١}

أسرته

هنا نقف قليلا عند أسرة ضياء الدين ونستعرض أحوالها ومكانتها بين أسر البلاد العربية الأخرى في تلك الأيام التي عاش فيها حياته، فهو ينتسب الى أسرة عربية من شيبان ذات رئاسة ووجاهة وعلم ومعرفة، وكان والده أثير الدين أبو الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ذا مكانة رفيعة في الدولة الزنكية مقربا من أمراء الدولة وكان مع تلك المكانة ثريا من أصحاب الغنى وواتته الدنيا بمالها بعد سلطانها تغدو تجارته وتروح بين الموصل ومصر والشام عن طريق البحر الأبيض ، يذكر عز الدين المؤرخ أخو ضياء الدين : أن الفرنج نهبوا مرة عام سبع وستين وخمسائة باللاذقية وأخذوا مركبين منها مملوئين بالأمثلة.^{١٢}

ولم تقتصر ثروته على هذه التجارة و رواتب الحكومة فحسب بل كانت له ضياع وبساتين بالجزيرة وبالعقيمة ، قال عز الدين ابن الأثير : وكان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقي ... وكان لنا بها عدة بساتين .^{١٣} جمع أثير الدين إلى جانب الثراء - الجاه والمنصب الرفيع في الدولة الزنكية بالموصل فقد عهد إليه قطب الدين الزنكي بولاية الجزيرة وتولى خراجها ثم زاده حتى ولاه الخزانة العامة ، وظل أثير الدين يعمل في خدمة الزنكية إلى أن استعفى من شرف الخدمة ثم تولى بعده ابنه الأكبر مجد الدين المبارك خدمة عز الدين مسعود.^{١٤} هكذا مكن أثير الدين لنسه ولأبنائه من بعده عند آل زنكي " أتابكة الموصل"^{١٥} فوصل إلى مرتبة من الجاه والسلطان لا تقل عن الوزارة وكان الاتابك يثقون ببيت الأثير فولوا أبناء

^{١١} - أبو زهرة حياة أحمد بن حنبل ص ٤١٥

^{١٢} - عز الدين ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٢٧١ - ٢٨١

^{١٣} - أبو شامة المقدسى : كتاب الروضتين ٢/٢٧٠

^{١٤} - محمد زغلول سلام: ضياء الدين وجهوده في النقد ص ٣٢

^{١٥} - الأتابكة : من الدولة التركية التي زاحت دول السلاجقة ، وatabك كلمة تركية معناها مرى الملك وكان آل سلجوق اذا امتاز

أحد قوادهم بهذا الإمتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والإحترام؛ : الدول العباسية : الدكتور محمد

الحصرى بك : ص ٥٠٨ دار القلم بيروت ١٩٨٦م

الأثير الثلاثة -الوزارة أو الكتابة أو الاثنين معا وروى أن ضياء الدين توفى فى إحدى سفارة لهم إلى بغداد.^{١٦}

ومع هذه المنزلة الرفيعة وأسباب الغنى والجاه أن أثير الدين لم يشتهر باهتمامات بالعلم أو التصنيف فيه لكنه حرص على تثقيف أبنائه الثلاثة ورغب فى تنشئتهم تنشئة علمية رفيعة فهيئ لهم سبل العلم والمعرفة ووفر لهم مستلزماته حتى برزت عبقريتهم بـروزا ملحوظا كان لهم فى تاريخ الثقافة العربية شأن كبير فلقد أغنوا المكتبة العربية بمؤلفاتهم القيمة الخالدة التى تشهد لهم على عبقريتهم - فكان أكبر الاخوة الثلاثة مجد الدين المبارك اختار الحديث والفقه واللغة فأبدع فيها كتاب جامع الأصول فى أحاديث الرسول و النهاية فى غريب الحديث والأثر وغيرهما - وثانيهما عز الدين تخير التاريخ والأنساب فأبدع فيهما كتاب الكامل والأنساب للسمعاني - وثالثهم ضياء الدين الذى هو موضوع بحثنا- هو أثر البلاغة والنقد وصناعة الإنشاء فأبدع فيها كتابه الشهير "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" والجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور" و الوشي المرقوم فى صناعة المنظوم وغيرها من الكتب على ما نبينه أن شاء الله .

وهل لبنى الأثير الثلاثة إخوة أو أخوات ؟ إن الذين ترجموا ضياء الدين قديما وحديثا لم يذكروا لهم إخوة أو أخوات سواهم الا أن شهاب الدين النجفي قال فى مقدمة أسد الغابة : إن بنى الأثير أبى الكرم محمد عدة أشهرهم ثلاثة ،وسمعت من بعض المؤرخين والمطلعين أنه كان للأثير الدين ابن غير هؤلاء المشاهير اسمه محمد وكان من المحدثين .^{١٧}

هذا ولا تحدثنا المصادر كثيرا عنه ولا عن تاريخ وفاته ،ومن الغريب أن ابنه عز الدين المؤرخ الذى ذكر لنا نتفا من أخباره فى مواطن متفرقة من كتبه لم يذكر تاريخ وفاته . ولهذا السكوت التاريخي استنتج الدكتور مصطفى جواد وجميل سعيد أن والده كان حيا إلى بعد سنة ٥٦٥ هـ لأن فى هذه السنة توفى قطب الدين مود ود بن زنكي وهى نفس السنة التى خدم فيها والده ديوان جزيرة ابن عمر.^{١٨}

^{١٦} - ابن خلكان : وفيات ٣٢/٥

^{١٧} - شهاب الدين النجفى: مقدمة أسد الغابة فى معرفة الصحابة،

^{١٨} - الدكتور مصطفى جواد : مقدمة الجامع الكبير ص ٨

ويقول الدكتور نوري حمودي القيسي : والصواب في رأينا أنه كان حيا طوال عهد نور الدين أرسلان شاه ، ذلك أننا ظفرنا برسالة كتبها ضياء الدين إلى أبيه يعزيه فيها وفاة ابنه الأكبر مجد الدين المبارك ، ولما كانت وفاة مجد الدين المبارك ثابتة في ذي الحجة من سنة ٦٠٦ هـ فتكون وفاة الأثير بعد ذلك .^{١٩}

أقول ان الرسالة التي أشار إليها الدكتور لم تصل إلينا حتى الآن.

أمه

ولا تحدثنا المصادر المتداولة بين أيدينا ولا أخوه عز الدين المؤرخ في جميع كتاباته عن أمه شيئا ، سامح الله المؤرخين وأصحاب التراجم الذين ضنوا علينا بذلك .

نشأته وتعليمه

ولد ضياء الدين في جزيرة ابن عمر وبها نشأ وترعرع وبدأ خطواته الأولى إلى العلم والمعرفة كغيره من أطفال المسلمين الساكنين بالجزيرة ولم تطل إقامته في الجزيرة بل سرعان انتقل مع أسرته إلى الموصل سنة ٥٦٥ هجرية واتخذ سكنا في وسطها بدرب دراج^{٢٠} وكان عمره إذ ذاك ينقص عن ثمان سنوات .

وأكب ضياء الدين بالموصل على الاشتغال بالعلوم فحفظ القرآن الكريم وكثيرا من الأحاديث النبوية وطرفا صالحا من النحو واللغة وعلم البيان وشيئا كثيرا من الأشعار القديمة والمحدثة يقول ابن خلكان : وانتقل مع والده إلى الموصل وبها اشتغل وحصل العلوم ، وحفظ كتاب الله الكريم وكثيرا من الأحاديث النبوية وطرفا صالحا من النحو واللغة والبيان وشيئا كثيرا من الأشعار.^{٢١}

^{١٩} - الدكتور نوري حمودي القيسي وزملاءه : مقدمة كفاية الطالب لضياء الدين ص ٥

^{٢٠} - و درب دراج : هي محلة كبيرة وسط مدينة الموصل . ياقوت : معجم ٢٢٣/٥

^{٢١} - ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥ / ٢٢٣ و ابن خلكان : وفيات ٢٥/٥

أساتذته وشيوخه

لم تحفظ لنا المصادر أسماء أساتذته فيغلب على ظننا أنه تلقى هذه العلوم على أيدي كبار علماء العصر ممن كان لهم معرفة وافرة باللغة العربية ودراية كبيرة بالعلوم الإسلامية ، و بسبب نقص في المصادر لا نتأكد على أحد من اساتذته الا أن تقارب سنه من اخويه الكبيرين - عز الدين ومجد الدين المبارك- ولحصولهما العلوم والفنون من كبار علماء العصر يزعم أنه اقتفى اثر أخويه و درب على أن يحصل العلوم منهما كما يزعم أنه شد رحلته إلى أساتذة أخويه.

فيليق بنا أن نذكر بعض أساتذة أخويه المشهورين يزعم أنه تلقى العلوم على بعضهم أو على اجمعهم كأمثال خطيب الموصل أبي الفضل الطوسي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ويحيى الثقفى ومحمد بن يونس الموصلى وآل الشهرزورى وابن الدهان سعيد ابن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ هـ وكان ابن الدهان من أعيان علماء اللغة والنحو وأفضلهم قد أخذ عليه مجد الدين وتأثر به ضياء الدين حيث ألف كتابه الإستدراك فى السرقات الشعرية ينقض فيه كتابا له المسمى بالرسالة المآخذ^{٢٢}

وابن المستوفى صاحب تاريخ اربل فى أربع مجلدات ، كان عالما بعلوم مختلفة مثل الأدب واللغة والشعر والأخبار والتاريخ وله كتاب النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام فى عشر مجلدات توفى سنة ٦٣٧ هـ وعلى بن خليفة النحوي ت ٥٦٢ هـ، وكان يجلس بالمسجد المعروف بمسجد النبي وكان إماما فاضلا تأدب عليه اكثر أهل عصره . و محمد بن دأنيال ت ٦٠٨ هـ وعلم الدين الشاتانى ت ٥٧٩ هـ وكان الشاتانى فقيها غلب عليه الشعر أجاد فيه ونزل بالموصل واستوطنها وكان الوزير ابن هبيرة كثير الإقبال عليه والإكرام له ، وعضد الدين ابن اسعد الموصلى ت ٥٨١ هـ درس بالموصل واشترت كتبه بأعلى الأثمان ،

^{٢٢} - محمد زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ٣٦

وشميم الحلى ت ٦٠١ هـ كان علامة زمانه فى علمه ونسيج وحده فى نظمه صنف حماسة كحماسة أبى تمام.^{٢٣}

كانت الموصل وقتئذ حافلة بمثل هؤلاء العلماء والأدباء الذين حصل ضياء الدين على أيديهم العلوم والمعارف وقضى فترة شبابه وسط تلك البيئة الموصلية معهم فكان لها أثرها الكبير عليه فى تكوين ثقافته وتكميل تنشئته العلمية وتأثير تفكيره باللون الموصلى وكان عمره إذ ذاك قد جاوز العشرين.

أولاده

وكان أديبنا ضياء الدين تزوج فى أيام إقامته بالموصل قبل سنة ٥٨٥ من الهجرة وأنجب ولدا نبيها كان له اليد الطولى فى الترسل والشعر قال ابن خلكان : وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن وصنف عدة تصانيف نافعة من مجاميع وغيرها ورأيت له مجموعا جمعه للملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب واحسن فيه وذكر فيه من نظمه ونثره ورسائل أبيه ومولده بالموصل فى شهر رمضان سنة ٥٨٥ وتوفى بكرة نهار الاثنين ثانى جمادى سنة ٦٢٢ واسمه محمد ولقبه شرف الدين ، رحمه الله تعالى.^{٢٤}

ولا نعرف عن شريكة حياته شيئا. وكذلك لم نظفر بأية مصادر تثبت له أولاد أخرى سواه.

رحلاته العلمية والرسمية:

هكذا قضى ضياء الدين مراحل حياته الأولى وقطع فترة الصبا وفترة ريعان شبابه آمنا مطمئنا مع أسرته فى الموصل وقد نضجت مواهبه الفطرية وكملت أدواته الكتابية فشرع يمهّد لنفسه الأسباب تساعد لبلوغ مرامه العليا فى الحياة فجعل يتردد قصور السلاطين والامراء فكان أول رحلته التى شدها - كانت إلى الشام فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧ هـ - يقصد جناب الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، فتوصل إلى ذلك بالقاضى الفاضل

^{٢٣} - معجم الادباء ٥ / ٢٠٢ ووفيات ٢٩٤/٣ و ٣٨٦/١ والروضتين ٦٢/٢ نقلا عن محمد زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده

فى النقد ص ٣٦ - ٣٨

^{٢٤} - وفيات الأعيان : ٥ / ٣٢

عبد الرحيم البيساني وكان عمره إذ ذاك ما ينقص عن الثلاثين ربيعاً بعام واحد ، ولا نعرف صلة ضياء الدين بالقاضي الفاضل ، الا أن تكون الأدب والكتابة وما عرف عن الفاضل من حب الأدباء وعطف على ناشئهم ، يذكر ابن خلكان : فوصله القاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين.^{٢٥}

والمدة التي خدم فيها منشئاً في ديوان السلطان صلاح الدين الأيوبي هي أربعة أشهر أو أقل كما يفهم من قول ابن خلكان وهو: فأقام عنده إلى شوال من السنة "وقد وصله الفاضل في جمادى الآخرة من السنة ٥٨٧ هـ نفسها^{٢٦}

وكان ابنه - الأفضل نور الدين آنذاك في دمشق وقد سمع بالتحاق ضياء الدين الكاتب بخدمة أبيه ولعلمهما التقيا من قبل ، فكتب إلى أبيه يطلب منه ضياء الدين هذا الكاتب الشاب ويستأذنه أن يضمه إليه فبعث صلاح الدين إلى ضياء الدين يخيره بين الإقامة في خدمته وبين الالتحاق بخدمة ولده فاختار خدمة ولده والرحيل إلى الشام فمضى إليه في الشام في شوال سنة ٥٨٧ هـ . ومنذ ذلك الحين تلازما ولم يفترقا في الحل والترحال ، يقول ابن خلكان: ثم طلبه ولده الملك الأفضل نور الدين من والده فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته والانتقال إلى ولده ... فاختار ولده فمضى إليه.^{٢٧}

والسؤال الناشئ هنا وهو أن ضياء الدين ابن الأثير لماذا ترك ديوان السلطان وآثر الانتقال إلى ديوان الملك الأفضل حين طلبه الأفضل من أبيه فخيره السلطان بين الإقامة في خدمته والانتقال إلى ولده ؟

نقول في الجواب: إن القاضي الفاضل وجد في ابن الأثير مزاحماً خطراً فآثر إبعاده بوسيلة مهذبة . وأيضاً أن ضياء الدين يرى نفسه أحق برئاسة ديوان الإنشاء لدى السلطان من القاضي الفاضل فعمد إلى معارضة الفاضل في رسائله فاذا أنشأ الفاضل رسالة أنشأ مثلها وكان غرضه الأساسي الكشف عن تفوقه لعل السلطان يستأثر - فهذا الصراع

^{٢٥} نفس المصدر السابق

^{٢٦} - نفس المصدر

^{٢٧} - نف المصدر ٢٥/٥

الخفى بينهما كان وراء إقامة ضياء الدين- المدة القصيرة لدى السلطان وإيثار انتقاله إلى ولده.^{٢٨}

وبسبب نقص فى المصادر ظن المؤرخون أن بداية عمل ضياء الدين فى الدواوين كانت سنة ٥٨٧ هـ عند السلطان صلاح الدين كما بيناه ، ولكن بعد تدقيق المصادر اتضح لنا أن بدء عمله منشأ فى الدواوين كان فى خدمة الأمير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل الذى تولى عليها عام ٥٧١ هـ نيابة عن سيف الدين غازى - تؤكد هذا رسالة لضياء الدين كتبها إلى الأمير مجاهد الدين قايماز بعد خروجه من دمشق عام ٥٩٢ هـ وهو فى تلك الرسالة يتلطف فى العودة إلى خدمته ويعتذر عن مفارقتها إياه وهى مصدرة بعبارة : كتاب كتبه عن نفسه إلى الأمير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل وكان بخدمته أولاً قبل اتصاله بخدمة الملك الأفضل نور الدين على بن يوسف .^{٢٩}

ويؤيد هذا ما صرح الدكتور نوري حمودي القيسي فى مقدمة كفاية الطالب من أنه وجد رسالة فى مجموعة رسائل ضياء الدين التى قامت بنشرها منشورات جامعة الموصل وقد صرح فى أولها : أنه كتبها عن نفسه إلى الأمير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل وكان فى خدمته فنزغ الشيطان بينه وبينه ففارقه ، وسار إلى الشام واتصل بخدمة الأفضل على بن يوسف بن أيوب فنال منه حظاً.^{٣٠} وهذا أيضاً دليل على أن ضياء الدين لقي الملك الأفضل قبل طلبه إياه من أبيه سنة ٥٨٧ هـ كما أشرنا إليه .

وظل ضياء الدين بجانب الملك الأفضل يكتب لصلاح الدين ويعاونه ويعود إليه مع الأفضل مرة أخرى فى خريف عام ٥٨٧ هـ وفى بداية عام ٥٨٨ هـ حيث كانت جيوش السلطان تقف متربصة بجيوش الصليبيين المحتفين على الساحل قرب يافا وغيرها من الثغور يذكر ضياء الدين فى المثل السائر: أنه كان فى ارض فلسطين قبالة عدو الكافر لعنهم الله - وتقابل الفريقان على مدينة يافا عام ٥٨٨ هـ .^{٣١}

^{٢٨} - الدكتور نوري حمودي القيسي وزملاءه : مقدمة كفاية الطالب ص ٦

^{٢٩} - نفس المصدر

^{٣٠} - نفس المصدر

^{٣١} - المثل السائر : نوح عى الدين عبد الحميد : ٥٥/١

ولم تضرم الحرب بين الفريقين في يافا بل اجمعا على الصلح فعاد صلاح الدين والأفضل والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن شداد وضياء الدين وغيرهم إلى دمشق وبها توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ فاستقل ابنه الملك الأفضل بمملكة دمشق وكان الأفضل حينئذ شابا في الثانية والعشرين من عمره يبدو فيه شيء من النزق والغرور وكان ضياء الدين كذلك وأن كان اكبر منه سنا لأنه طمح من بيت كبير وبيت وجاهة ورئاسة وثراء يملأ الإعجاب والكبرياء في نفسه ولا يرى هو فيمن حوله من يضارعه نسبا أو جاهها أو مجدا ولا علما وذكاء وفنا وكان من سوء الحظ أن الملك الأفضل يكدح ويقاسى الاضطراب في أموره وعدم الاتزان في القوى والفكر فلذلك يشرب الخمر تارة ويستبجح الحرمات تارة أخرى مع ذلك فهو في حين آخر رجل التصوف والتدين يعكف على القرآن يقرؤه وينسخه بخط يده ويحب العلماء ويعشق الأدب والأدباء ويقول الشعر.^{٣٢}

وقد صلحت أحوال الأفضل الأخيرة كما قال ابن كثير : وكان الأفضل قد تاب وأناب واقلع عما كان فيه من الشراب واللهو واللعب واقبل على الصيام والصلاة وشرع لكتابة مصحف بيده وحسنت طريقته.^{٣٣}

فلما استطاع الأفضل أن يستقل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين بالوزارة في مملكته وتمكن من نفس صاحبه ومن دولته حتى ووضعه الأفضل أمور الدولة كلها في يده يتصرف فيها كيف يشاء ويتحكم في شئونها صغيرة كانت أو كبيرة وصار الاعتماد عليه في جميع الأحوال يقول ابن خلكان : ولما توفى السلطان صلاح الدين واستقل ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين المذكور بالوزارة ، وردت أمور الناس إليه ، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه.^{٣٤}

ومن هنا اتهم ضياء الدين بأنه وقع في أخطاء سياسية جرت عليه ولمخدومه _الوبال والخسران : كإساءة العشرة مع أهل دمشق ، وإثارة الفتنة بين الأفضل وأخيه العزيز مرات ، وتسببه في طرد أمراء صلاح الدين وأكابر أصحابه من الشام ، ومضايقته للقاضي الفاضل مما اضطر إلى الرحيل عن الشام والتوجه إلى مصر ، وتسببه لضياع ملك الأفضل حتى كرهه

^{٣٢} - سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٦٢٨/٨ وفيات ٥٦ / ٢

^{٣٣} - ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٣

^{٣٤} - وفيات : ٢٥/٥

الناس وجعلوا ينقمون عليه ويتحينون الفرص للفتك به فاضطر إلى الخروج من الشام مخفياً في صندوق مقفل خوفاً عليه من القتل وما إلى ذلك ،

ولسنا ندرى أكانت تلك الأخطاء راجعة إلى الجو الذي عاش فيه ، وهو جو مضطرب دائم الاضطراب كثير المنازعات والمشاكل أم كانت تهمة اتهم بها من قبل خصومه فقد نجده بريئاً عند أبى شامة فى الروضتين فيما اتهم بمضايقته الفاضل حينما ذكر : ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلفة تركه وسار إلى مصر .^{٣٥}

هذا يرد التهمة عن ضياء الدين، وايضا وجدنا نصا يثبت أن الملك العزيز صاحب مصر استدعى القاضى الفاضل لحاجة سياسية فسار إليه الفاضل ولحقه بالقاهرة فخرج الملك العزيز إلى لقائه وأجل قدومه اجلالاً وأكرمه إكراماً ، يقول محمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ بلغنى من جهات عديدة أن الملك العادل لما قدم إلى دمشق نجدة للأفضل ، ورأى من ركة الأفضل ما رأى حدثته نفسه بالاستيلاء على دمشق و تملكها ، وصار يعمل الحيلة فى ذلك ولما قدم الملك العزيز البلاد بعساكره ، توصل الملك العادل إلى تحصيل غرضه بإيقاع الخلاف بين الصلاحية و الاسدية وبين الاسدية والملك العزيز ونفر كلا منهم الآخر ولم يزل يشبطهم ويستوقفهم حتى وصل الملك العزيز إلى كرسى ملكه والعادل والملك الأفضل إلى بلبيس وحصرها فلم يظن أحد أن الأمر قد تم وأن الملك العزيز قد تلاشى أمره بالكلية فحينئذ أراد العادل أن يقلد المنة العظمى للعزيز ، بأن رد الملك العزيز إلى ملكه ، أبقى عليه بلاده بعد أن وقع الأشراف على أخذها ، فحينئذ استدعى القاضى الفاضل وقرر قواعد الصلح ، ورد الملك الأفضل إلى بلاده ، ووصل إلى مصر.^{٣٦}

وما عدا ذلك من الاتهامات التى نسبت إليه مصدرها واحد وهو العماد الكاتب لا يمكن التسليم بها بسبب خصومة ثابتة بينهما فتصبح هذه الاتهامات موضع شك وشبهة فقد أورد ابو شامة : قال عماد الدين : وجاءني الخبر أن وزيره قد قرر عنده عند قرب العساكر من البلد نهب دورى وأملاكى ، فاستأذنت الملك العزيز فى الدخول إلى البلد ،

^{٣٥} - ابو شامة : كتاب الروضتين ٢/ ٢٢٨

^{٣٦} - ابن واصل : معراج الكروب فى أخبار بنى أيوب ٣/ ٥٩

فأذن إلى على كراهية ، فلما دخلت البلد اجتمعت بالملك الأفضل وقلت له القول الأفضل، فأبى أن يسمع أو أن يقبل، وحرمت في حظي الثاني والأول.^{٣٧}

ثم بعد ذكر هذه الإتهامات مع أجوبتها الإمكانية نعود الى الموضوع فنقول وكان لدمشق أهمية كبرى لأنها بلد عربي قديم يسميها العرب عروس الارض وجنة الدنيا لا تقل أهميتها من الموصل بل تفوقها لموقعها وكونها عاصمة لصلاح الدين ومحور عملياته الحربية وقد ازدهرت في عصره ازدهارا باهرا لاتخاذها لها قاعدة ثانية للكه العريض مع القاهرة وفي عصر الملك الأفضل زحرت بسكانها ومسراتها وحظيت مع مكانتها العمرانية ثقافة ممتازة رحل إليها الأدباء والعلماء من أقطار الارض شرقا وغربا مما أدى إلى نشاط ثقافي رفيع ظهرت آثاره واضحة.

وممن اشتهر من الأدباء والعلماء الوافدين إليها - ضياء الدين بن الأثير وعاصره في تلك الحقبة العماد الإصفهاني الكاتب ، وموفق الدين ابن قدامة صاحب المغنى المشهور في الفقه الحنبلي توفي سنة ٦٢٠ هـ والقاضي ابن شداد صاحب النوادر السلطانية في السيرة الأيوبية ، وزكى الدين دمشقى كان ذا فضائل عديدة و تولى قضاء دمشق سنة ٥٧٩ هـ أيام وجود ضياء الدين وتوفى سنة ٥٩٨ هـ ، وابن عساكر الدمشقى كان محدث الشام وقته صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدا و غيرهم .^{٣٨}

أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء الذين عاصروهم ضياء الدين وعاش معهم في البيئة الدمشقية فطبعي أن تتأثر ثقافته بثقافتهم . ولقد اتصل في تلك الحقبة بالقاضي الفاضل ت ٥٩٦ هـ وتأثر به وبطريقته الكتابية وحاول معارضته في رسائله فاذا أنشأ الفاضل رسالة أنشأ مثلها وكان غرضه الأساسى الكشف عن تفوقه لكنه مع ذلك، لم يستطع التخلص من التأثير فنه الكتابي وكتب في أيام إقامته بها كثيرا من الرسائل عن الملك الأفضل وعن صلاح الدين وعن غيرهما ، نجد بعضها في المثل السائر وغيره من كتبه تحت مسائل متفرقة اقتبسها حين يحتاج إلى اقتباسها .

ولم نعثر على شئ كثير من نشاطاته العلمية والثقافية في تلك الفترة التي قضاها في دمشق وذلك لصرف أكثر أوقاته مشغلا بجليل الأحداث ومهام الأمور وتدبير دولة الأفضل

^{٣٧} - ابو شامة : الروضتين ٢٦١/١

^{٣٨} - وفیات ٢٣/٤ و البداية والنهاية ١٢ : ١٢ و كتاب الروضتين ٢٦١/ ١

ولما انتهت حياته بدمشق سار إلى الموصل - وطنه المحبوب فاتصل هناك بخدمة نور الدين ارسلان شاه ، وذلك بعد أن فتحت دمشق بسيف الكيد من قبل عدو مخدومه - الملك الأفضل ، ورماه الأعداء عن يده أخذوه بأكباد حارة وأغراض باردة ونقموا عليه وسعوا إلى قتله فعصى شيطان النفاق وشد الرحلة إلى الموصل.

استقر ضياء الدين بالموصل فى خدمة نور الدين ارسلان شاه بن مسعود إلى أن ورث الملك الأفضل مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز ، يتضح ذلك عما كتبه عن نور الدين ارسلان شاه إلى الملك الأفضل بعد حصوله الملك الجديد يتضمن تعزية وتهنئة يقول ضياء الدين : فمن ذلك مطلع كتاب كتبه عن الملك نور الدين ارسلان شاه بن مسعود صاحب الموصل إلى الملك الأفضل على بن يوسف يتضمن تعزية وتهنئة أما التعزية فب وفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده .^{٣٩}

كان ضياء الدين يقضى أيامه فى الموصل وكان قد سمع أن زمام الأمور فى مصر انتقل إلى يد مخدومه فبعث إليه برسالة يهنئه فيها بملك مصر كما قال : ومن ذلك ما كتبه فى صدر كتاب إلى الملك الأفضل أهنته بملك مصر سنة ٥٩٥ هـ فقلت : الملوك يهنئ لولانا بنعمة الله المؤذنة الخ .^{٤٠}

هكذا ظل ضياء الدين يرسل ويكتب إلى مخدومه من الموصل وكان يكتفى فى نفسه تمنى الالتحاق به مرة أخرى بعد أن لمعت فى الأفق أضواء ملك جديد ولقد ساعده القدر على ذلك فأسرع بالسفر إلى مصر فى العام الذى استولى صاحبه على مقاليد الأمور المصرية فمكث بالقاهرة عاما واحدا وبعض عام من سنة ٥٩٥ هـ إلى ٥٩٦ هـ ، وقد ذكر ضياء الدين شيئا عن تلك الحقبة التى قضاها فى مصر فى الوثنى المرقوم حين قال :

وكننت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين و خمسمائة ، ورأيت الناس مكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر ، فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه وهو أبو النواس الحسن ابن هانى فلم يذكروا فى ذلك شيئا ، ثم إنى فاوضت عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه

^{٣٩} - الثل السائر ٢/٢٥٤

^{٤٠} - نفس المصدر ١/٢٦٨

الله فى هذا فقال إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس، ولقد صدق فيما قال ، واذكرنى بقوله هذا كلا ما كنت جارىت فيه بعض الأدباء بالموصل.^{٤١}

وكان ضياء الدين قد شارك فى الحياة الأدبية المصرية ولقي علماءها وجالس أدباءها أمثال ابن نجية الحنبلي الفقيه المتوفى سنة ٥٩٩ هـ والبلطي عثمان ابن هيجون الأديب النحوي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ والسخاوي على بن محمد المتوفى سنة ٦٤٢ هـ والبوصري هبة الله بن مسعود المتوفى سنة ٥٩٨ هـ والشاطبي أبو محمد القاسم المقرئ ٥٩٠ هـ، والأنباري محمد بن محمد بن الكاتب المتوفى ٦٩١ هـ ، والمنذري زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المتوفى ٦٥٦ هـ وغيرهم من العلماء والأدباء المشهورين الذين عاصروهم ضياء الدين .^{٤٢}

كان ضياء الدين مطبوعا على العلم والأدب فلذلك نراه يكتب ويصنف ويترسل فى حياته المضطربة فقد ترك لنا آثارا حميدة أيام إقامته بمصر يذكر ابن خلكان : وله رسالة يصف فيها الديار المصرية وهى طويلة ومن جملة ما فى صفة نيلها وقت زيارته وهو معنى غريب بديع لم اقف لغيره على أسلوبه وهو قوله شعر:

”وعذب رضابه فضاهى جنى النيل واحمر * صفيحه فعلمت أنه قد قتل المحل “

ثم قال ابن خلكان وهذا نهاية فى الحسن .^{٤٣}

لم يطل إقامة ضياء الدين بمصر ولم يمهل القدر فيها طويلا فقد أقام بها عاما وبعض عام إذ انتزع مصر من قبل الملك الأفضل لاستحكام العداوة بينهما وعوضه منها بلادا من بلدان الجزيرة ولم يبق فى يده منها الا سميساط فتم بذلك تحقيق الحلم الذى ظل يراوده العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين وهو انفراد بالملك هو وأولاده دون أبناء أخيه وما كان يمكن تحقيقه ذلك الا بالقبض على مصر لأنها بيضة الملك وسرته فخرج الملك الأفضل من مصر إلى سميساط .^{٤٤}

وتتطور الظروف واصبح الملك الأفضل سلطانا على سميساط واستقل بها فلم يخرج إليه ضياء الدين لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه ويريدون الفتك به بل خرج إلى

^{٤١} - الوشى المرقوم : ص ١٦

^{٤٢} - محمد زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ١٦٦

^{٤٣} - وفيات ٣١/٥

^{٤٤} - ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ٤٦ و سميساط هى مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم يسكنها الأرمن . ياقوت

ولايته الجديد وراءه مستترا فغاب عنه مدة ثم لحق به فى خدمته فلأزمه حتى إلى نهاية سنة ٦٠٧ هـ أو ٦٠٨ هـ وفى تلك الأثناء زادت الوحشة و اتسعت الجفوة والقطيعة بين العادل والأفضل وحالف الأفضل سوء الحظ وتألّب عليه الأعوان وأنكره الدهر وتنكر له أخوه وحليفه السابق الملك الظاهر صاحب حلب فلم يجد مخرجاً بين تلك الخطوب الا أن يلجأ إلى صاحب الروم فيضع نفسه تحت إمرته ويدين له بالولاء ويقطع خطبة عمه ويخطب له .^{٤٥}

ولقد أشار ضياء الدين بعض الإشارة إلى حياته التى قضاها فى سميساط وبلاد الروم -آسية الصغرى فى مواضع متفرقة فى المثل السائر .

ثم بعد زوال ملك مخدمه وضياع سلطانه من سميساط والجائه إلى صاحب الروم انتهز الفرصة ليلجأ إلى الملك الظاهر صاحب حلب لمكان صلة مخدمه معه القديمة وقد لقيه ضياء الدين فى سفارة له من جانب الأفضل مرات عديدة ، فرحل إلى حلب ولقى السلطان الظاهر عام ٦٠٧ هـ ثم فارق الأفضل إلى غير مآب يقول الدكتور محمد زغلول سلام :

" ويخرج مغاضبا الأفضل بعد زوال دولته وضياع ملكه وخروجه عن حوزة عمه العادل واخوته إلى أعدائهم من سلاجقة الروم فيلجأ إلى الملك الظاهر صاحب حلب عام ٦٠٧ هـ ، والظاهر حليف الأفضل ضد اخوته وعمه وأبناء عمه ، ولم تكن الصلة بين ضياء الدين والظاهر جديدة ولم يكن اللقاء بينهما للمرة الأولى بل سبقه لقاء فى سفارة لضياء الدين من الأفضل مرات وربما وظن ضياء الدين أن خروجه من كنف الأفضل إلى الظاهر سيحقق لبغض ما خاب من مطامعه فى جوار الأفضل وخاصة بعد أن زال عنه الملك وانتبذه الاقربون وخرج من حوزة الأيوبيين إلى ولاء سلاجقة الروم ولكن سوء الحظ أبى الا أن يتبع ضياء الدين إلى حلب ولعل الظاهر لقيه بفتور وحذر كان حريصا على أن يبقى على قليل من الرجاء بينه وبين عمه الذى كره ضياء الدين وتصرفاته أو لعله كان حريصا على رضا رجاله وقواده ممن قد يسؤهم تدخل ضياء الدين وقد عرفوا عنه الكثير أيام كان فى دمشق.^{٤٦}

^{٤٥} - ابو الفدا : مختصر تاريخ أخبار البشر ١٠٤/٣ ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ٤٧

^{٤٦} - ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ٤٨

وكانت حلب فى عصر ضياء الدين مركزا ثانيا من مراكز الثقافة العربية للدولة الأيوبية وذاعت صيتها منذ أن تولى سيف الدولة الحمداني عليها وجمع فيها الشعراء والأدباء من كل مكان ثم خمدت شهرتها حتى جاء نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر فاستعادت مكانتها الأولى يقول ابن جبير : بلدة قدرها خطير وذكرها فى كل مكان يطير وخطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير .^{٤٧}

وكانت لثقافتها شهرة طائرة فى الآفاق فلذلك وفد إليها الأدباء والعلماء من كل مكان وكان ضياء الدين ابن الأثير من الأدباء الوافدين إليها وكان بها حين وفد إليها جماعة من العلماء الكبار مثل ابن خروف النحوي الأشبيلي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ والقاضى ابن شداد وقد مر بنا الحديث عنه وابن الصائغ أبو البقاء يعيش بن على المتوفى سنة ٦٤٣ هـ وجاءها ياقوت الرومي صاحب معجم الأدباء أكثر من مرة وتوفى بها سنة ٦٢٦ هـ ، وابن خلكان قدم إليها واخذ بها على ابن شداد ثم غادر إلى مصر سنة ٦٣٥ هـ .^{٤٨}

ولم نطلع على المدة التى أقام بها ضياء الدين ولكن الراجح أنه لم يكمل بها عاما كاملا فإننا ظفرنا برسالة كتبها ضياء الدين عن عز الدين مسعود صاحب الموصل عند توليه الملك سنة ٦٠٧ هـ وهى نفس السنة التى غادر سميساط إلى حلب ويؤيده أيضا ما قال ابن خلكان من أنه : اتصل بخدمة أخيه الأفضل - الملك الظاهر غازي صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره فخرج مغاضبا وعاد إلى الموصل .^{٤٩}

ثم بعد عودته من حلب إلى بلده المألوف - الموصل - التحق بخدمة أميرها عز الدين مسعود وكان أخوه الأكبر قد توفى بها قبل وصوله إليها سنة ٦٠٦ هـ بينما كان أخوه عز الدين المؤرخ مقيما فيها فى قيد الحياة يكتب ويصنف ويخدم أعمال الرسمية فى البلاط الموصلية ، فلم يستقم بها حاله فى هذه المرة فورد اربل ، فلم ينتظم أمره هناك أيضا فسافر إلى سنجار حيث عكف بها حوالي سبع سنوات وذلك لأن الرواية تثبت أنه عاد إلى الموصل أخيرا واتخذها دار أقامته واستقر سنة ٦١٨ هـ ، وكان قد ورد إليها بعد سنة ٦١١ هـ يقول ابن خلكان: اتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب المقدم ذكره

^{٤٧} - رحلة ابن جبير ص ٢٥٠

^{٤٨} - محمد زغلول سلام: الأدب فى عصر الأيوبيين ص ١٥٤

^{٤٩} - وفیات : ٢٦/٥

فلم يطل مقامه عنده ولا أنتظم أمره وخرج مغاضبا وعاد إلى الموصل فلم يستقم حاله فسافر إلى سنجار ، ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته واستقر وذلك في سنة ٦١٨ .^{٥٠} وكتب الإنشاء صاحب الموصل ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين ارسلان شاه .^{٥١}

ولما لم ينتظم أمره في سنجار بأن لم يجد فيها مغنى وقرارا فصمم الرحيل إلى موطنه القديم وبلده المحبوب - الموصل - حيث نشأ بها وترعرع وقضى بها فترة الصبا والشباب واكمل بها نضجة الجسمي والعقلي ولكنه تأخر الرحيل إليها برهة قصيرة لأن الموصل واربل وسنجار كانت آنذاك في نزاع عنيف فلما استوت الأمور وعادت تجرى على طبيعته والرياح تجرى بما يشتهي هو عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته واستقر بها وقضى ما بقي من العمر وكان ذلك سنة ٦١٨ هـ وعمره إذ ذاك نحو ستين سنة .^{٥٢}

وكان زمام الأمور ومقاليد الخلافة وقتئذ في يد طفل يصعد الخامسة من عمره وهو ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود ، وكان يقوم بأمور دولته أتابكه الأمير بدر الدين لؤلؤ أبو الفضائل النوري ، فالتحق ضياء الدين بخدمته وظل يكتب الإنشاء عنه إلى أن أوفده الأمير بدر الدين لؤلؤ المذكور من قبله الى الخليفة ببغداد في سفارة سنة ٦٣٧ هـ وكان معه رسالة من إنشائه ، تلك هي الوفاة التي تلبى فيها الناموس الرباني الذي يذيقه كل نسمة ويدركها أينما كانت ولو كان في بروج مشيدة ، كما مر من قول ابن خلكان من أنه كتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين ارسلان شاه .^{٥٣}

^{٥٠} - نفس المصدر

^{٥١} - نفس المصدر

^{٥٢} - وفيات ٢٦/٥ و ضياء الدين وجهوده في النقد ص ٥٠

^{٥٣} نفس المصدر

مكث ضياء الدين بالموصل عشرين عاما كاملة وهي اخصب فترات حياته لأنها فترة استقرار وإنتاج خصب وفير فقد ألف في تلك الفترة جل كتبه وأكثر رسائله وعكف على ديوان الإنشاء يمارس عمله المحبب وهو الكتابة ويخلد للأدب والنقد ، يقول محمد سلام زغلول :

وكانت حياة ضياء الدين في الموصل في تلك السنوات الأخيرة حياة استقرار بعد ذلك الاضطراب والسفر في البلاد مشرقا ومغربا والانتقال من الشمال إلى الجنوب سيعا وراء الغناء والمجد فعاد أخيرا إلى الموصل فعكف على ديوان الإنشاء يمارس عمله المحبوب وهو الكتابة ويخلد للأدب والنقد وقد عرف ضياء الدين ببلاغته في رسائله وحملت كتبه شهرته الطائفة وطارت بها إلى بغداد وغيرها من العواصم الإسلامية .^{٥٤}

وكانت تغدو بقلمه الرسائل من الموصل على لسان صاحبها إلى بغداد وغيرها يقول ابن كثير : وقدم رسول من صاحب الموصل يوم غرة شعبان يحمل رسائله من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله ابن الأثير فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة.^{٥٥}

ظل ضياء الدين يكتب ويدرس للناس الأدب واللغة أيام فراغه وذاع صيته شرقا وغربا وعرفه القاضي والداني فتوافد عليه الناس يتزودون من فضله وأدبه وعلمه فكان من تلاميذه على ابن أنجب المعروف بابن الساعي صاحب الجامع المختصر في التاريخ وقد حدثه بكتب أخيه مجد الدين المبارك.^{٥٦}

وسمع عنه ابن خلكان وعرف فضله فتمنى أن يلتقي به ليأخذ عنه شيئا ولكن لم يتفق له ذلك: يقول ابن خلكان : ولقد ترددت إلى الموصل من اربل أكثر من عشر مرات وهو مقيم بها وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئا ولما كان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى

^{٥٤} - نفس المصدر

^{٥٥} - ابن كثير : البداية والنهاية ١١٤/١٣

^{٥٦} - ضياء الدين وجهوده في النقد ص ٥١

المودة الأكيدة فلم يتفق ذلك ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت إلى الشام واقمت به مقدار عشر سنين ثم انتقلت إلى الديار المصرية وهو في قيد الحياة ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة ، وقال أيضا : وكنت يوما عند عند ابن الصائغ وقد قدم عليه من الموصل رجل من فضلاء المغاربة في علم الأدب فحصر حلقة وبحث في بحث رجل فاضل وجرى ذكر مباحث جرت له في الموصل معه جماعة من أدباءها وقال كنت عند ضياء الدين بن الأثير الجزري قال فتحاورنا وتناشدنا وأنشدته قول بعض المغاربة ، قلت هذه الأبيات ذكر إسحاق الحصري أنها لبعض مشائخ القيروان ورووها عنه ولم يعينه.^{٥٧}

النهاية الأليمة:

هكذا قضى ضياء الدين السنوات الأخيرة من حياته في الموصل آمنا مطمئنا بالاستقرار فحظي العلم والأدب بنصيب كبير بأن أكمل تأليفه وظل على هذا الحال شغوبا بالدرس والتأليف إلى أن أنتقل إلى رحمة الله تعالى في إحدى الجمادين سنة ٦٣٧ هـ في سفارة بغداد وقد أوفده الأمير بدر الدين لؤلؤ من قبل صاحب الموصل ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود ، وكان معه رسالة من إنشائه ، وعمره إذ ذاك ثمانون عاما.^{٥٨}

وقال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادي في تاريخ بغداد: توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة ، قال ابن خلكان وابن النجار هو أخير لأنه صاحب هذا الفن ، وقد مات عندهم.^{٥٩}

وصلى عليه من الغد بجامع القصر ، ودفن بمقابر قریش في الجانب الغربي بمشهد موسى ابن جعفر ، رضى الله تعالى عنه وعنهم اجمعين .^{٦٠}

^{٥٧} -وفيات: ٢٦/٥

^{٥٨} - نفس المصدر

^{٥٩} - نفس المصدر السابق ص ٣٢

^{٦٠} - نفس المصدر

مكانته بين الأدباء و صفاته النفسية

هنا نقف قليلا فنذكر ما عرفنا عن مكانته بين الأدباء و أخلاقه و صفاته فنقول إنه كان يملك أخلاقا حميدة وأوصافا عظيمة كما كان فيه بعض الأوصاف التي بلغ بها حد الغرور والعجب مما تسبب توجيه النقد والنقم عليه من قبل خصومه ،

كان في أخلاقه كبر وعجب وجرأة واعتداد بالنفس وطموح جامع كما بدا لنا حادا في كتبه حين درسناها، خاصة في "المثل السائر" كما يقول الدكتور عبد الكريم الأشتر: كان في أخلاقه كبر وعجب أفسدا عيه حياته وكثرا خصومه فعاش قلقا منتقلا هاربا أحيانا كثيرة بين العراق والشام ومصر، وربما بدا عجبه حادا في كتبه على نحو ما نجده في "المثل السائر" وهذا في رأينا يعود الى نمو مفرط يذكيه إحساس الرجل بتميزه في عصره ممن يعاصرونه، ولولا أن الرجل خلف كتابه البلاغي الكبير "المثل السائر" لما جرى له هذا الذكر، فبهذا الكتاب عد خاتمة النقاد البلاغيين العرب^{٦١}

أما مظاهر ذلك فيمكن الرجوع بها إلى طفولته حيث نشأ مدلا في بيت جاه وسلطان يرى مظاهر العظمة والترف حوله وافرة فتركت آثارها في نفسه حتى تعدتها إلى حياته الأدبية على نحو ما يقوله الدكتور محمد زغلول سلام :

لقد خصه الله تعالى بذكاء حاد وذوق رفيع وموهبة بيانية وكان نوقه مرجعه في التمييز بين الطيب والخبيث وكانت موهبته البيانية عون على الكتابة وقد وثق بها واعتقد أن كتاباته تجمع الفصاحة والبلاغة من أطرافها وتحوى من المعاني ما لا تحوى به كتابات غيره ورأى أن رأيه هو الصواب الذي لا يحتمل الشك والاعتراض؛ فلذلك اجترأ على كبار الأدباء أمثال القاضي الفاضل و الحريري والصابي والغزالي وابن جنى وابن الدهان ممن تسنموا منازلهم واعترف لهم بالفضل والتقديم، ولعل تلك الخصال مما نفر منه كثيرون

^{٦١} - عبد الكريم الأشتر: مجلة بهج جمع اللغة العربية بدمشق: مقالة بعنوان آخر النقاد العرب القدامى: ٤٢/ ٥٢٥-٥٢٦ عام ١٩٦٧م

فخاضوا في سيرته وشوهوا حقائقها وطمسوا الجوانب المشرقة منها فتناقل الناس وتجاوبت الكتب التاريخية تلك الصورة القائمة.^{٦٢}

قال الأستاذ حنفي محمد شرف: تكلم ضياء الدين في مقدمة كتاب الاستدراك عن الشعر ونقده والمفاضلة بين الشعراء والسرقات الأدبية وموقف النحويين واللغويين من الشعر ونقده... فظهرت أثناء كلامه على ذلك كله أخلاقه على حقيقتها، الأنفة والكبر والإعجاب بنفسه التي لو عصمه الله منها لكانت شخصيته للنفوس أقرب ومؤلفاته بالقلوب أعلق، ثم ذكر مناقشته لرجل من إخوانه فسرّد القصة إلى آخره فقال: ولكن غرور ابن الأثير وحبّه للمعارضة والمناقضة دفعه إلى المناقشة والتأويل والسخرية والاستهزاء، وهذا شأنه وتلك حاله.^{٦٣}

نقول إن الجرأة والعجب واعتداد الأديب بأدبه شيء طبيعي لا يعاب بها أديب مثل ضياء الدين كما لا يعاب غيره من الأدباء وأمثلة ذلك كثيرة في الأدب العربي كما نرى المتنبّي يعتد بنفسه ويجترئ كثيرا حين يفتخر بعبقريته وموهبته الشعرية مع أنه لا يعاب به حيث يقول:

”أنا الذي نظر الأعمى إلي أدبه * أسمعت كلماتي من به صمم.“^{٦٤}

وقد تقدم الدكتور حنا الفاخوري خطوة على ما قلنا في الجواب واعتذر لضياء الدين في ذلك كله وامتدحه بما لم يمتدح به أحد قبله ولا بعده فآظهر فضله ورفع قدره ومكانته فيقول:

”ولعل في طبع الرجل ما يفسر هذه النزعة، أنه رجل ميال من فضله إلى حب الذات يعمل على تصيد الفرص لتحقيق أهدافه وإن كان في ذلك دك عروش وتقويض بنيان، وهو رجل وزارة وسلطان يحسب أن قول،، السلطان سلطان “ وأن” كلام الوزير وزير الكلام “أضف إلى ذلك أنه عاش في عهد غروب الحضارة العباسية وانهيار البنيان العربي وقد تعددت حواليه مشاهد الجمجمة وحفل الجو بنقيق ضفادع الأدب فقام في ذلك الجو

^{٦٢} - ضياء الدين وجهوده في النقد ص ٥٢

^{٦٣} - مقدمة كتاب الاستدراك ص ٩-١٠

^{٦٤} - ضياء الدين وجهوده في النقد ص ٥٨

الوئى معتد بعلم زخره ، معجبا بثقافة عميقة استطاع أن يحصل عليها وأراد أن يكون أستاذ الجيل فى جيل كان همه أن يلهو بالعظام دون الدسم من كل مأكل ومشرب ولهذا اشتدت لهجته وقست أحكامه على من اسبقه حتى تخطى حدود الحقيقة أحيانا وتجاوز فى غلوه نطاق المعقول أحيانا أخرى فكان فى تهجمه انزلاق وكان فى تطاوله تفريط واختراق..... هذا كله لا يحط من قيمة علم ابن الأثير فهو والحق يقال رجل العلم الذى يضرب به المثل ورجل الثقافة التى لا ينتهى إليها بالجد الذى لا يعرف ملل.^{٦٥}

ويعترض عليه أيضا بأنه يستشهد فى كتبه على كل فن يورده بنماذج من كتاباته ورسائله كاد يثقل بها على الناس لولا ما فيه من لفتات بيانية قيمة تعين على الصبر واحتمال ما يعانى القارئ من عناء كبره وادعائه ، ولكنه يمكن لنا أن نقول فى معرض الجواب كما قال الدكتور محمد زغلول سلام :

” إن استشهاده برسائله فى المثل السائر وغيره من كتبه ليس من قبيل الادعاء ، بل هو عرض لتجاربه البيانية كما عاناها وكان طبيعيا تمشيا مع هذا المنطق أن يتكلم عنه ويعرض شيئا آخر من كلام غيره لعله لا ينطبق على ما يقول أو يريد.^{٦٦}

ويذكر بطرس البستاني معترفا بنبله وفضله حينما يقول : إننا نعترف بفضل ابن الأثير فإنه فى مقدمة من أوضح معالم البلاغة وأحكم الكلام على فنون الإنشاء ورتب فصوله وأنواعه وبين أصوله وفروعه ودقق فى جمال اللفظ المفرد وحلى النقد الأدبي بجرأة لاتعرف مداراة ورفع بنيانه على قوة المنطق وبراعة التعليل.^{٦٧}

ويقول شوقى ضيف واصفا روحه العلمية والأدبية : إن ضياء الدين ابن الأثير كان من الكتاب المجيدين ولم تحظ العراق بعده بكتاب ديواني على مثاله أو مثال أنداء السابقين^{٦٨}.

ووصفه محمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ بقوله ” كان فاضلا بالأدب وعلم البديع ومن تصانيفه ” المثل السائر ” وله الترسل البليغ البديع“^{٦٩}

^{٦٥} - الدكتور حنا الفاخورى : الجامع فى التاريخ الأدب العربى ص ٦٥٢

^{٦٦} - ضياء الدين وجهوده فى النقد ص ٥٧

^{٦٧} - بطرس البستاني : ادباء العرب فى الأعصر العباسية ٢ / ٤٥٠

^{٦٨} - شرقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، عصر الدول والإمارات : قسم العراق ص ٥٧

^{٦٩} - ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ٤ / ١٩٨

وقال المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٧ هـ " واصفا بأنه الكاتب البليغ صاحب المثل السائر ، انتهت اليه رئاسة الإنشاء والترسل"^{٧٠}
ويصفه الملك الأشرف الغساني بأنه "الكاتب البليغ صاحب المثل السائر في الأدب الكاتب والشاعر ، وكان بارعا في فنون الأدب كاتباً بليغاً وصدرًا نبيلًا ، عالماً متقنًا في علم الكتابة والإنشاء وكتابة الرسائل في المعاني المخترعة واليه انتهى علم الكتابة في زمانه ، وبه ختم فن البلاغة ، وله عدة تصانيف حسنة مفيدة وله رسائل مدونة ، وكان قليل النظم"^{٧١}

هذه هي المكانة العلمية والأدبية الرفيعة التي تطمح إليها الأنفس وتتشوق إليها القلوب وتعشوا إليها الأنظار تبوأها ضياء الدين ابن الأثير في زمنه بين الأدباء والكتاب.

^{٧٠} - الذهبي: المعبر في خبر من غير : ١٥٦/٥

^{٧١} - المسجد المسبوك : ص ٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث

دراسة حول ثقافة ضياء الدين ابن الأثير المتنوعة

* ضياء الدين بن الأثير أديبا

* ضياء الدين بن الأثير شاعرا

* ضياء الدين بن الأثير كاتباً

* ضياء الدين بن الأثير بلاغياً

* ضياء الدين بن الأثير ناقداً

ضياء الدين بن الأثير أديبا

منابع ثقافته

هنا نقف وقفة يسيرة عند ثقافة ضياء الدين ابن الأثير المتنوعة و نستعرض بأنه كيف بلغ ذروة الأدب العربي ثم فتح نوافذ متعددة فى مختلف المجالات من النقد والبلاغة وصناعة الإنشاء، وقد اشتركت فى بناء شخصيته الثقافية عوامل عدة - العصر والبيئة الخاصة ويتعلق بهما جاه أسرته وسلطان أبيه وغناه وسعة ثقافته وقد ورث عن أسرته الذوق السليم والحس الرقيق والذكاء والاعتداد بالنفس وكان ذكاءه الوقاد عوناً له على الكشف والتحقيق والمقارنة والتجديد.

وكان له زيادة الاهتمام بالقرآن الكريم فحفظ القرآن الكريم وظل يديره على لسانه ويتمعن فى آياته واستعان به حتى جعله من أصول طريقته فى الكتابة والإنشاء بل اعتمد عليه فى تربية ملكته الكاتب والشاعر والناقد جميعاً، لأن القرآن الكريم هو المثل الأعلى فى العلوم والفنون، و هاهو اشترط للأديب الكاتب أن يحفظ كتاب الله الكريم ويكون عارفاً به كي يضمن كلامه بالآيات ويودعها مطاوي كلامه فيما ينشئ ويكتب كما فعله هو يقول فى المثل السائر :

”أما النوع السادس وهو حفظ القرآن الكريم فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفاً بذلك لأن فيه فوائد كثيرة منها أن يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللاتقة بها ومواضعها المناسبة لها ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق ، ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة فى تأليف القرآن الكريم اتخذه بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات.“^١

^١ - المثل السائر: تحقيق محى الدين عبد الحميد : ٣١/١

يفهم من قوله المذكور أعلاه أنه تمعن في القرآن الكريم وتصفح آياته واجتهد فيه بأبلغ وجه للكشف عن سره المكنون حتى تلونت ثقافته الأدبية بثقافة القرآن واختلطت ومجزت أفكاره بأفكار القرآن الكريم فظهرت عن عبقريته آثاره الأدبية متلونة بما يلائم تعاليم القرآن الكريم وبما يطابق فصاحته .

وقد عثر بجده واجتهاده على ضروب كثيرة من علم البيان في غصون القرآن الكريم واستطاع على استخراج منه ثلاثين ضربا لم يتعرض لذكرها ممن تقدمه يقول ضياء الدين: "فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربا من علم البيان لم يأت بها أحد من العلماء الأعيان."^٢

ولم يكتف ضياء الدين لتطوير ثقافته الأدبية وتنوير قدرته الكتابية على حفظ القرآن والتمعن في آياته فقط بل قرأ الكتب التي تتصل بالقرآن كجوهر القرآن للإمام أبي حامد الغزالي ، وتفسير الفراء النحوي ، وتفسير الكشاف للزمخشري ، وتفسير النقاش ، وتفسير البلاذري وما إلى ذلك.^٣

واستعان بالأحاديث النبوية واهتم بها اهتماما بالغا واستفاد منها كما استفاد من القرآن الكريم فحفظ كثيرا منها وحاول تقليد أسلوبها لأنها ثاني العناصر التي نبه إليها هو وقد ألف في الحديث كتابا سماه " الأخبار النبوية " يشتمل على ثلاثة آلاف خبر. وكان ينهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على خاطره وناظره أكثر من خمسمائة مرة وكفى به اهتماما، يقول في المثل السائر :

"وكننت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في باب الاستعمال وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين فكنت أنهى مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على خاطري وناظري على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عني منه شيء وهذا الذي أوردته هاهنا في حل المعاني الأخبار هو من هناك."^٤

^٢ - نفس المصدر ٤١/١

^٣ - الدكتور مصطفى جواد وجيل سعيد: مقدمة الجامع الكبير :ص: ٣

^٤ - المثل ٢٠٤/٢ و ٢٢/١

ودرس فى موضوع الحديث الشريف كتاب الشهاب وصحيح البخاري وصحيح المسلم والموطأ والترمذي وسنن أبى داود وسنن النسائي وغيرها كما يذكر فى المثل السائر: "وأما الأخبار النبوية فكا القرآن الكريم فى حل معانيها، إنك أول ما تحفظ به من الأخبار وهو كتاب الشهاب فانه مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكما وأدبا فاذا حفظته وتدرت باستعماله كما أريتك هاهنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل فى الاستعمال وما لا يدخل وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخاري ومسلم والموطأ والترمذي وسنن أبى داود وسنن النسائي وغيرها من كتب الحديث وتأخذ ما تحتاج إليه".^٥

ولتوسيع مجالات ثقافته الأدبية استفاد من كتب أبى حامد الغزالي رحمه الله التى كتبها الإمام الغزالي فى الفقه وأصول الدين مثل إحياء علوم الدين وكتاب الأربعين وغيرها فقد قال فى المثل السائر : وكنت اطلعت فى كتاب من مصنفات أبى حامد الغزالي فى أصول الدين ووجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز وقسم المجاز الى أربعة عشر قسما.^٦ وحصل ضياء الدين نصيبه فى اللغة والنحو وعلم البيان وبالغ فى اهتمامها اهتماما مفرطا حتى نال شهرته الطائفة تلك فى علمي البلاغة والبيان وحظي مكانة مرموقة بين البلغاء يشار إليه بالبنان يذكر ضياء الدين :

"وكنت تصفحت كتاب الخصائص لأبى الفتح عثمان ابن جنى فوجدته قد ذكر فى المجاز شيئا يتطرق إليه النظر وكتاب أبى عثمان المازني وكتاب الفصيح للإمام ثعلب وكتاب إصلاح ما تغلط فيه العامة لأبى منصور الجواليقي ومجمع الأمثال للميداني وقد جردت من هذا الكتاب أوراقا تشتمل على الحسن من الأمثال.^٧"

وكان مما قرأ فى الأدب وموسوعاته كتاب الأغاني لأبى الفرج الإصفهانى، وكتاب الروضة لأبى العباس المبرد. وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ

^٥ - المثل ١/ ١٢٨

^٦ - نفس المصدر

^٧ - المثل: ١/ ٣٦٨ و ٢/ ٢٠٤

ومقامات الحريري و رسائل الصابي والصاحب بن عباد ، و شرح ديوان المتنبي لابن جنى ولزوم ما يلزم لأبى العلاء المعرى وكتاب النقائص وديوان الحماسة لأبى تمام.^٨

استوعب ضياء الدين أكثر هذه الكتب وأكثر النقل عنها والاستشهاد بها فى كتبه .وكان محصوه فى البيان أوفر فإن ما قرأه من كتب فى البيان وما يتصل به كثير متنوع يقول ضياء الدين فى مقدمة الجامع الكبير بعد الكلام عن أهمية علم البيان :

”فشرعت عند ذلك فى تطلبه والبحث عن تصانيفه وكتبه فلم أترك فى تحصيله سبيلا إلا و نهجته ولا غادرت فى إدراكه بابا إلا ولجته حتى اتضح عندي باديه وخافيه وانكشفت لى أقوال الأئمة المشهورين فيه كأبي الحسن على بن عيسى وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدي وأبى عثمان الجاحظ وقدامة بن جعفر الكاتب وأبى هلال العسكري وأبى العلاء محمد بن الغانم المعروف بالغانمى وأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه وقول تعقد الخناصر عليه.“^٩

واشهر كتب هؤلاء الأعلام التى يرجح أنه قرأها و اعتمد عليها فى تكوين ملكته وان لم يشر اليها هنا وقد ورد ذكرها فى مواضع متفرقة من كتبه هي : النكت فى إعجاز القرآن للرماني ، وكتاب الموازنة للآمدي ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ونقد الشعر ونقد النثر ، وكتاب الخراج ، وجواهر الألفاظ ، وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، وكتاب الصناعتين لأبى الهلال العسكري ، وصناعة الشعر للغانمى وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى كما ذكر بعضه فى المثل السائر بعد ذكر أهمية علم البيان :

”وقد ألف الناس فيه كتباً وجلبوا ذهباً وحطباً وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر الفصاحة للخفاجى غير أن كتاب الموازنة أنفع أصولاً وأجدي محصولاً وكتاب سر الفصاحة وان نبه فيه على نكت منيرة فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه ، على أن كلا الكتابين قد أهملتا من هذا العلم أبواباً ولربما ذكرنا فى بعض المواضع قشوراً وتركنا لباباً.“^{١٠}

^٨ - نفس المصدر : ١٥/١ و ٣٦٦/١

^٩ - خطبة الجامع الكبير ص ٣-١

ولم يذكر بعض الكتب التي استفاد منها ونقل عنها في مختلف المواضع من كتبه مثل كتاب البديع لابن المعتز ، والوساطة للقاضي الجرجاني ، حلية المحاضرة لأبى على الحاتمي ، وكتاب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ومقدمة ابن الأفلح البغدادي التي ذكر فيها ضياء الدين أنه قصرها على تفصيل علم الفصاحة والبلاغة اذ يقول : ووقفت على مقدمة كتاب يقال له مقدمة كتاب ابن الأفلح البغدادي قد قصرها على تفصيل علم الفصاحة والبلاغة وللعراقيين بها عناية.^{١١}

ومما أغفل ذكره هنا هو كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادي وقد ذكره في المثل السائر : ووجدت في كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادي وكان المشار إليه عندهم بفضيلة ومعرفة لا سيما فن الكتابة فوجدت في كتابه بابا مقصورا على ذكر الكناية والتعريض.^{١٢} ومما قرأ في دواوين الشعراء ، ديوان المتنبي والفرزدق وأبى نواس والبحري وأبى تمام وابن الرومي وابن كشافم وديك الجن وأبى العتاهية والعباس ابن الأحنف وذو الرمة والغامي وغيرها.^{١٣}

ولم يكتف ضياء الدين على قراءة دواوين أولئك الأعلام بل حفظ من الأشعار ما لا يحصى عدده اذ يقول :

”وحفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ثم اقتصرت على شعر الطائيين أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة البحتري وشعر أبى الطيب المتنبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني وصار الإدمان لي خلقا وطبعاً”.^{١٤}

وقال في الوشي المرقوم : إني قلبت الأشعار تقليب السماسرة للمتاع وزنتها بالقيراط وكلتها بالمد والصاع ، وقال أيضا : ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وأنفدت

^{١١} - نفس المصدر : ٣/١ - ٤

^{١٢} - نفس المصدر : ٢٤٦/١ - ٢٤٧

^{١٣} - نفس المصدر : ٢/ ١٩٢

^{١٤} - المثل : ٣١٣/١ و ٣١٥/١

^{١٥} - نفس المصدر : ٢/ ٢٦٩ والوشى المرقوم ص ١٤

شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله".^{١٥}

ولم تنحصر ثقافة ضياء الدين على اللغة العربية فقط بل تجاوزت إلى أشقات اللغات التى كانت سائدة فى عصره فكان يدقق النظر فى كل ما حوله من اللغات ليكمل ثقافته على ثقافة عصره يقول فى الو شي المرقوم:

"وكننت سافرت الى بلاد الروم فى سنة ستمائة فلما دخلت مدينة ملطية أخبرت عن خطيبها أن عنده أدبا وأنه يقول الشعر فقصدت لقائه وألفيته كما أخبرت عنه وعرض على قصيدا من شعره وهى مائة بيت كل عشرين منها على لغة فكان متضمنا خمس لغات - العربية والفارسية والتركية والرومية والأرمينية، فالجميع على وزن واحد وقافية واحدة إلا أنه كان فى غير اللغة العربية أبرع منه فى اللغة العربية وهذا من أغرب ما شاهدته".^{١٦} يعرف من هذه القصة أنه كان لا يزال يقصد أهل العلم ويشد الرحلة إلى من يوجد عنده علم أو أدب أو معرفة، وكذلك يدلنا على معرفته بلغات عصره قوله الآتى :

"واعلم أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد ورد فى غير اللغة العربية ووجدتها كثيرا فى اللغة السريانية فإن الإنجيل الذى فى أيدي النصارى قد أتى منهما بالكثير ومما وجدته من الكناية فى لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل له إن الملك يختلف إلى امرأتك فهجرها لذلك وترك فراشها فأخبرت كسرى فدعاه وقال له قد بلغني أن لك عينا عذبة وأنت لا تشرب منها فما سبب ذلك ؟ قال أيها الملك بلغني أن الأسد يردّها فخفته ، فاستحسن كسرى منه هذا الكلام و أسنى عطاءه".^{١٧}

كان ضياء الدين عطشان العلوم والمعرفة من صباه فلذلك لا يبالي من أين يحصل العلم وإلى من يسأل عنه حتى إنه هام فى كل واد وقرع باب كل من يتوقع أن عنده علم أو أدب حتى من أكار وفلاح وأعجمى من الأعجام الأغتام^{١٨} يقول حديثا عن نفسه :

^{١٥} - الرضى المرقوم ص ١٤ - ١٥

^{١٦} - نفس المصدر ص ٨٧-٨٨

^{١٧} - المثل السائر: ٢١٥/٢

^{١٨} - الأغتام جمع غتم والغتم جمع اغتم وهو الذى لا يبين شيئا وهو مما لا يقاس ولكن ضياء الدين أخذ من قول المتنبي : ع فى عمر

وخاب وضحة الأغتام : المثل السائر : ٥٥/١

"وقد تتبعت أقوال الناس فى محاوراتهم فاستفدت بذلك فوائد كثيرة حتى من أكار وفلاح وأعجمي من الأعجام الأغتام ومن يجرى مجراهم وقد تصدر كلمة الحكمة من جاهل بمكانها كما يقال ورب رمية من غير رام، وعلى كل فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يعلم ما تقوله الناذبة فى المأتم وما تقوله الماشطة عند جلوة العروس وما يقوله المنادى فى السوق على السلعة".^{١٩}

ومما يدلنا على أنه شم رائحة كل علم وتعلق بكل فن فتشبت منه بما يلائم له ويحتاج اليه وهو قوله فيما أدناه :

"فمن ذلك إنني سرت فى بعض الطرق وفى صحبتي رجل بدوى من الأنباط لا يعتد بقوله فكان يقول " غدا ندخل البلد وتشتغل على " وكان الأمر كما قال فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياما ثم لقيني فقال لى من تروى فترت عظامه عظامه ، وهذا القول من الأقوال البليغة وهى من الحكمة التى هى ضالة المؤمن المطلوبة عند مؤمني الفصاحة والبلاغة ثم إنني سمعت منه بعد ذلك شيئا يناسب قوله الأول فإني سمرت له الى صاحب فى حلب فى شئ أخذته منه فاستقله وقال : الماء أروى لشدوق النيب وهذا من الحكمة فى بابها . وكنت قصدت زيارة بعض الإخوان من الأجناد وهو من الأغتام الأعجام فسألته عن حاله وكانت توالى عليه نكبات طالت أيامها وعظمت آلامها فقال لى فى الجواب ما معناه : إنه لم يبق عندي ارتياح لوقوع نائبة من النوائب ، وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق أو كاتب بليغ لاستحسن منه غاية الاستحسان".^{٢٠}

بهذه الثقافة التى يعسر على المتأدب العادي خوض عبابها أو سبر غورها- اقتحم ضياء الدين مجالات بحثه فى الأدب والبيان والنقد و صناعة الإنشاء حتى أصبح أديبا من كبار أدباء العرب المعدودين.

^{١٩} - الو شئ المرقوم ص ٨

^{٢٠} - المثل السائر : ١ / ٥٣-٥٥

أدبه

لقد انفجرت من نشاطاته الفعالة وثقافته البارة عين جارية من المؤلفات القيمة النادرة التي لا تزال تعد من الثروات الأدبية الخالدة أبرزها:

١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
 ٢. والوشي المرقوم في حل المنظوم
 ٣. والمعاني المخترعة في صناعة الإنشاء
 ٤. والمرصع في الأدبيات
 ٥. و مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحثري والمتنبئ وديك الجن
 ٦. والاستدراك في الأخذ على المآخذ الكندية من المعاني الطائفة
 ٧. والجامع الكبير في صناعة الكلام من المنظوم والمنثور
 ٨. وكفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب وما الى ذلك.
- كان ضياء الدين ذو موهبة أدبية فريدة نمها بالمطالعة، وشحذها بالتحليل والمقارنة، وقد وهبه الله تعالى ذوقا فنيا مرهفا وعمقا في التفكير، وإحساسا أدبيا بعيدا عن كل تطرف، فراح يعالج الأدب نظرا وعملا وراح في كتاباته المختلفة وفي رسائله يوضح معنى الأدب ويبين المقومات التي يقوم عليها وراح يحدد الشعر والنثر ويعمل فيهما تشريحا وتحليلا ويقف من الكتابات الأدبية موقف نقد وتقويم وهو يقدر في الأدب العمق الفكري ونزعات التحليل والصدق وجمال الأسلوب.

فطر ضياء الدين على الأدب فكان يتحسسه ويتذوقه منذ طفولته كما عرفناه وقد دخل في مجال الأدب من بابين النظم والنثر ولكنه ما نظم من قصائد مختلفة الموضوعات في ديباجة مشرقة ورونق وجمال بل مال الى النثر فاتخذة صناعة تتيح له أن يكون من اكبر البلغاء الكتاب الناثرين فتتبع الأدب منذ فجره ووقف على مختلف الأسلوب فراقه منها أسلوب المترسلين في عهده من أمثال القاضي الفاضل وقد جارى به أركان الكتابة وارتقى أعلى درجة من درجات البلاغة العربية حتى حاول معارضته في رسائله كما قال ابن خلكان :

"انه كان يعارض القاضي الفاضل فى رسائله ، فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات و مجاوبات".^{٢١}

وكتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر من خيرة كتب وضعت تحت أديم السماء لما اشتمل على معلومات غزيرة فى الشعر والنثر واللغة والبيان وعلى منتقيات من خير ما قال العرب من الحكم والأمثال و ذكر لأدباء العرب واتجاهاتهم ومن تركيز على فن الكتابة وأركانه وأصوله و وجوه من النقد الأدبي الراقي الذى يمثل خلاصة ما انتهى إليه العرب فى العصر العباسية من نظريات حول الأدب وفنونه وأعلامه يقول عز الدين التنوخي : لا أعرف أديبا له رأى فى البيان وأساليبه إلا وللمثل السائر أثر بين فى تقويم أسلوبه ، وإرشاده الى الملكة العربية ، لأن شخصية ابن الأثير أشد وضوحا فى المثل السائر ، فهو فيه كثير التهجم على مخالفيه فى آرائه ، وكثير الاعتداد ببلاغة رسائله ، والاستشهاد بها".^{٢٢}

ويقول أنيس المقدسى : ومما لا ريب فيه أنه من طبقة البارزين من الأدباء القدامى يكفى ان نذكر له كتابه المشهور المثل السائر فهو من أهم الكتب التى صنفت فى البلاغة والنقد الأدبي ولا نبالغ اذ قلنا إن بن الأثير كان فى هذا الكتاب آخر حلقة من سلسلة العظيمة التى انتظمت قدامة بن جعفر فى نقد الشعر وأبا هلال العسكري فى الصناعتين وأبا الحسن الجرجاني فى الوساطة وعبد القاهر فى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وابن رشيق فى العمدة وابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة وسواهم من كبار النقاد البلاغيين".^{٢٣}

ويقول الدكتور بدوى طبانة : ولقد طاف ضياء الدين ابن الأثير فى دراسة فنون المعاني بأسرار الفن الأدبي ووقف على مواضع الإجادة وبلغ مناط الإبداع فى درس عميق وموازنات فريدة وأحكام صائبة ، كل ذلك يرفعه إلى درجة كبار الباحثين العارفين بأصول الأدب وأسراره فى الإشارة والتأثير ، ويرفع كتابه الى رتبة النماذج الرفيعة للدرس المستفيض والبحث المستوعب فى أصول الفن الأدبي ، وبالمثل السائر عرف بن الأثير علما من أعلام

^{٢١} - وفيات : ٢٦/٥

^{٢٢} - مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق : ج ٣٥ عام ١٩٦٠م

^{٢٣} - مقدمة رسائل ابن الأثير ك أنيس المقدسى : ص ٩

الدراسات الأدبية عالما وأديبا وبلاغيا ناقدا وهو أساس شهرته الأدبية التي طغت على شهرته السياسية التي بلغ منها أقصى ما يتطلع إليه أمثاله وهو منصب الوزارة الذي شغله مدة طويلة وقد كانت شهرته على مر الزمان بشهرة كتاب المثل السائر أكثر اقترانها بأي منصب تولاه أو أى كتاب ألفه^{٢٤}

ولقد صدق الدكتور محمود فرج العقيدة حين قال: وكتاب ابن الأثير هذا صورة واضحة لشخصية الرجل وكتابه كذلك صورة واضحة لثقافته المتنوعة فهو كتاب نقد وأدب بحيث لو جرد من أبحاثه البلاغية لكان فى مقدمة كتب النقد والأدب وهو كتاب بلاغة وبيان بحيث لو جرد من مما فيه من نقد وأدب لكان من أوفى كتب البلاغة والبيان ثم هو بازاء ذلك مثال لرسائل ذلك العصر الإنشائية و الديوانية البديعية التى تغلب عليها طريقة القاضى الفاضل التى تجاوزت إنشاء الرسائل إلى التأليف كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين الأصفهاني وهو طريقة السجع والتجنيس والتضمين وحل الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والصناعة اللفظية بأجلى مظاهرها ولا عجب فى ذلك فان ابن الأثير عاصر القاضى الفاضل وعاشره وكتبه وراسله^{٢٥}

وكتابه " الجامع الكبير" من حيث منهجه وترتيب أبوابه وما جاء فيه من آراء وشواهد هو نفس ما جاء فى المثل السائر حتى إن كلا الكتابين يشتركان فى كثير من الأبواب والعبارات نصا فهو صنو المثل السائر وظله ، إلا ان الجامع يختلف عن قرينه بأنه قليل الاستشهاد برسائل المؤلف التى غمر بها المثل السائر.

وكتابه " الاستدراك" كتاب قيم من وجهة النظر النقدية لأنه تناول فيه قضية السرقات الشعرية تناولوا واعيا ويتبع بصفة خاصة سرقات أبى الطيب المتنبئ من أبى تمام ، وقد تكلم فيه عن المعاني المشتركة بين الشعراء والكتاب ؛ وإن كان هذا الكتاب ليس فريدا فى بابه فإنه قد سبقه فيه خلق كثير فقد صنف فيه القاضى الجرجاني وابن وكيع وغيرهما ولكن الطريف فى كتابه أسلوبه وطريقة عرضه للموضوع وذوقه الخاص الذى تميز به فى

^{٢٤} - بلوى طبانة : مجلة تراث الإنسانيّة : ج ٢ ص ١١٣

^{٢٥} - مجلة الأزهر : ج ١٣ / ١٢٤-١٢٥ عام ١٩٩٤م

"المثل السائر وتلازمه فيه روح الثورة على اللغويين والنحويين وعلى القدماء من الشعراء الجاهلية كإمرئ القيس وزهير والنابغة وأضرابهم".^{٢٦}

ويلحق بالاستدراك كتاب له آخر فى موضوعه أشار إليه فى الاستدراك وسماه "عمود المعاني" قال وقد ألفت فيه كتابا وسميته عمود المعاني وجعلته مقصورا على ضروب المعاني الموجودة فى النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة وما يخرج عنها من الشعب وهذا كتاب تعبت فى تأليفه زمنا طويلا وأنا ضنين به".^{٢٧}

ومؤلفاته فى مجموعها ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول منها ما يشتمل المختارات من الشعر والحديث والأمثال والثاني منها ما يختص بالدراسات الأدبية والثالث منها ما يضم الكتب التى ألفها فى صناعة الإنشاء فما بينت عنه هو المثل السائر والجامع الكبير والاستدراك وعمود المعاني كله مختص بالدراسات الأدبية وأما ما بقى من الكتب المختصة بالقسمين الآخرين سنبين عنها تفصيلا فى باب آثاره إن شاء الله .

قيسات من أدبه

من قوله فى الذوق السليم

إعلم أيها الناظر فى كتابي ، أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه ، قيل لك هذا !!! فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخير عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانا، وكل جارحة منك قلبا ولسانا، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مثلى فيما مهدته لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفا ، ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال.^{٢٨}

^{٢٦} - ضياء الدين وجهوده فى النقد : محمد زغلول سلام : ص ٦٧

^{٢٧} - الاستدراك تح حفى محمد شرف: ص ١١ مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٨٥م

^{٢٨} - المثل السائر تح بدوى طبانة : ١ / ٣٥

من قوله فى سعة الثقافة

ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : كل ذي علم يسوغ له أن ينسب إليه نفسه ، فيقال : فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى

الكتابة ، فيقال : فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض فى كل فن ، وملاك هذا كله الطبع .

ويقول: وبالجملـة فان صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون ، حتى إنه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ؟ والسبب فى ذلك أنه مؤهل لأن يهيم فى كل واد^{٢٩}

من باب الترجيح بين المعاني

وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذى يوزن به درهمها ودينارها ، وبـل المحك الذى يعلم منه مقدار عيارها ولا يزن به إلا ذو فكرة متقدمة ، ولمحة منتقدة ، فليس كل من حمل ميزانا سـمى صرافا ، ولا كل من وزن به سـمى عرافا ،^{٣٠}

من نقد النقاد

وقد ألف الناس فى علم البيان كتباً ، وجلبوا ذهباً وخطباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به الا كتاب "الموازنة" لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب "سر الفصاحة" لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولاً وأجـدى محصـولا ، وكتاب سر الفصاحة وان نبه فيه على نكت منيرة فانه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة الى أكثره ، ومن الكلام فى

^{٢٩} - نفس المصدر : ٣٨/١ و ٦٢/١

^{٣٠} - المثل السائر نح بدوى : ٧٠/١

مواضع شذ عنه الصواب فيها...على أن كلا الكتابين قد أهملوا من هذا العلم أبواباً ، ولربما ذكرا في بعض المواضع قشورا وتركوا لباباً.^{٣١}

ووقفت على كتاب يقال له مقدمة بن الأفلح البغدادي ، قد قصرها على تفصيل علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية ن وهم واصفون لها ، مكبون عليها ، ولما تأملتها وجدتها قشورا لا لب تحتها لأن غاية ما عند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فانه كقول النابغة مثلاً أو كقول الأعشى أو غيرهما ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا يعرف حقيقة الفصاحة .^{٣٢}

من السرقات الشعرية

اعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثرها ، وكنت ألفت فيها كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخاً و سلخاً ومسحاً.

وهاهنا قسمان آخران أخللت بذكرهما في الكتاب الذي الفتة ، فأحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى الى ضده ، وهذان القسمان ليس بنسخ ولا سلخ ولا مسح.

وكل قسم من هذه الأقسام يتنوع ويتفرع ، وتخرج به القسمة الى مسالك دقيقة ، وقد استأنفت ما فاتني من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب.

ومن المعلوم أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ الأشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد ، فمن رام الأخذ بنواصيها والاشتغال على قواصيها ، بأن يتصفح الأشعار تصفحاً ، ويقنع بتأملها ناظراً ، فانه لا يظفر منها إلا بالحواشي والأطراف^{٣٣}

الموازنة بين أبي تمام والمتنبي والبحري

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ؟ فعند ذلك اقتضرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن آخذ بالتقليد والتسليم في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، اذ المراد من الشعر

^{٣١} - نفس المصدر : ٣٣/١ - ٣٤

^{٣٢} - نفس المصدر : ٢٤٦ / ١

^{٣٣} - المثل السائر تح بدوى : ٢٢٣/٣

هو إيداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل و اللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمنت فهو بابل...وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس ، وأبى عبادة البحتري ، وأبى الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر و عزاه و مناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

أما أب تمام : فانه رب معان ، و صيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، وهو غير مدافع عن الأغراب الذى برز فيه على الأضراب .
وأما أبو عبادة البحتري : فانه حسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق فبينما يكون فى شظف نجد ، اذ تشبث بريف العراق ، وسئل ابو الطيب عنه وعن أبى تمام وعن نفسه قال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ، ولعمري انه أنصف فى حكمه وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاله الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام مع قريه من الأفهام.

وأما ابو الطيب المتنبي : فانه أراد ان يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قيادة ما أعطاه ، لكنه حظي فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ولا متثلماً ، وذاك انه خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفرقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلوا ، فطريقه بذلك تضل بسالكه ن وتقوم بعذر تاركه . وهو وان انفرد بطريق صار أبا عذره ، فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ومهما وصف به ، فهو فوق الوصف و فوق الإطراء.^{٣٤}

^{٣٤} - نفس المصدر السابق: ٢٢٥/٣-٢٢٩

من رسائله

ومن جملة رسائله ما كتبه الى الأمير حسام الدين النائب عن الملك الأشرف سنة ٦٣٢ عند نزول ملك خوارزم وهي :

أدام الله أيام المجلس السامي الحسامي ولا زالت المناقب من ذخائره ، والأقذار من عشائره والأقران من عساكره ، والأقلام من بواتره ، والسنة الأيام من خطائبه وشواعره ، قارعة الحصار قد سماها الله زلزالا شديدا وجعلها لكتاب الحرب بريدا وجعل قائم الأسوار فيها حصيدا.^{٣٥}

ومن رسائله ما كتبه الى الديوان العزيز النبوي :

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وهذه الآية لرسول الله في رد كيد العدو الكافر، ويمثلها رد عن خليفة الآن كيد العدو الفاجر وقد اختصه الله بالفضيلة في سبوغ نعمائه ورفعته أن يمد بمدد أرضه الى الإمداد بمدد سمائه ولم يزل العبد في ارتقاب ذالك على الأوفاز ومن مواعيد حديث النفس فيه على إنجاز.^{٣٦}

ومن جملة رسائله ما كتبه الى مخدومه وقد سافر في زمن الشتاء والبرد الشديد وينهى أنه سار عن الخدمة :

ود ضرب الدجن فيه مضاربه وأسبل عليه نوائبه وجعل كل قرارة حفيرا وكل ربوة غديرا وخط كل أرض خطأ وغادر كل جانب شطا كأنه يوازي يد مولانا في شيمة كرمها والتثاثر صوب ديمها والمملوك يستغفر الله من هذا التمثيل العاري عن الفائدة التحصيل و فرق بين ما يملأ الوادي بمائه ومن يملأ النادي بنعمائه وليس ما ينبت زهرا يذهب المصيف أو ثمرا يأكله الخريف كمن ينبت ثروة تفوت الأعطاف ويأكل المرتبوع والمصطاف ثم أستمر على مسير يقاس الأرض وحلها والسماء ووبلها ، ولقد جاد حتى أكثر وواصل حتى أضجر

^{٣٥} - رسائل بن الأثير : أنيس المقدسى : ص ٢٤

^{٣٦} - رسائل بن الأثير : ص ١٧

وأسرف حتى اتصل بره بالعقوق وما خاف المملوك لمع البوارق كما خاف لمع البروق ولم يزل من مواقع قطره فى حرب ومن شدة برده فى كرب، والسلام.^{٣٧}

يقول ابن خلكان : ولما سمع صاحبنا الحسام عيسى بن سنجار الأربلى هذا المعنى وهو قوله "ومن شدة برده فى كرب " أعجبه ونظم أبياتا ومن جملتها بيت أودعه هذا المعنى وهو :

ويلاه من برد رضاب له * أشكو الى العذال منه الحريق.^{٣٨}

ومن رسائله ما كتبه عن مخدومه الى الديوان العزيز وهى : ودولته هي الضاحكة وان كان نسبها الى العباس فهي خير دولة أخرجت للزمن كما ان رعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تهزم وأنها لا تزال محبوة من أبنكار السعادة بالحب الذى لا يسلى والوصل الذى لا يصرم وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لا تخطه الأقلام فى صحفها ولا أجالته الخواطر فى أفكارها.^{٣٩}

خصائصه الفنية و أسلوبه

أسلوب ضياء الدين فى رسائله يمتاز امتيازاً ظاهراً بإناقاة التصوير البيانى والتكلف المجازى و بلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام معانى الشعر وألفاظه و بحل الأبيات السائرة والحكم الماثورة حتى كادت تكون رسائله شعراً منشوراً وكان كثيراً ما يقتبس من كلام البلغاء ويضمن كثيراً من الأمثال ومن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأفذاذ من أبيات الشعراء فجاءت معانى رسائله متقادة لألفاظها وأساليبها، والأسلوب المنمق المسجع الذى يعتمد إليه ضياء الدين فى كثير من الأحيان يتطلب من طبيعته الإطناب والترادف،^{٤٠}

^{٣٧} - وفيات الأعيان : ٢٨/٥

^{٣٨} - نفس المصدر : ٣١/٥

^{٣٩} - وفيات : ٢٩ /٥

^{٤٠} - أنيس المقدسى : مقدمة رسائل ابن الأثير ، بالتغيير والاختصار

اقتبس ضياء الدين من القرآن الكريم وتفنن في الاستعانة بآياته بطريق التضمين أو الإشارة أو التلميح وهو حينما يورد الآية بتمامها أو أجزاء منها وحينما يورد بعض لفظها وحينما آخر يشير أو يلمح فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يدمج القرآن الكريم فى كلامه فكأنه جزء من هذا الكلام، هكذا استطاع ضياء الدين أن يستغل القرآن لنفسه استغلالا فنيا صرفا وأن يتخذ منه صبغا من أجل أصباغه الفنية، ويدلنا ضياء الدين على الأمثلة التى استخدم فيها القرآن وحديث النبى صلى الله عليه وسلم فى رسائله كما يقول فى وصف المنجنيق:

”ونصب المنجنيق فجثم بين يدى السور مناصبا وبسط كفه اليه مؤاتيا ثم تولى عقوبته بعصاه التى تفتك بأحجاره وإذا عصا عليها بلد أخذت فى تأديب أسواره فما قال الا أن استمرت عقوبتها عليه حتى قائمة حصيدا وعاصية مستفيدا وقال ألم يكن نهى عن المد و التجريد، فما لى لا أرى الا مدا وتجريدا، وعند ذلك أذعن لفتح الأبواب وتلا قوله تعالى لكل أجل كتاب وقال فى معنى خبر من الأخبار، وهو قوله عليه السلام فى النهى عن ضروب المحدود : لا مد ولا تجريد ، أى لا يمد على الأرض و يجرى عن ثوبه ، واقتبس ضياء الدين الآية الكريمة فى قوله ” الصورة التى اعتمد عليها فى معانيه صورة المد والعقاب سواء أكان ذلك فى الحد عند القاضى أو فى غيره وشبه عصا المنجنيق وهى ترتفع وتهبط بالحجارة وتقذفها على الأسوار بعصا المعاقب تهوى على الأرض تلهب جنبيه وقدميه “

وكان يكتب بطريقتين : الطريقة الأولى: هى التى استخدمها فى الرسائل والإنشاء ويحذو فيها حذو كتاب عصره فيكثر من استخدام السجع والجناس والتورية والكناية والتشبيه والمحسنات البديعية بصفة عامة، و يستعمل فى بعض رسائله الأسلوب المرسل الذى يكاد يخلو من كل تنميق وتصنع ويعرض قضيته فى أسهل ما يكون العرض وأوضحه ويحرص على تفسير المعاني وتبيين مواطن الجمال أو القبح ويقدم لذلك النماذج والشواهد ويسلسل

الأفكار فى طي ونشر وتقسيم وتبويب وربط الأقسام بما يوضح مرجعها وسيرها وهو يكرر إذا وجد فى التكرار فائدة أو خشي أن تفوت القارئ حجة أو أن يغلق عليه معنى.^{٤٢}

ويدلنا ضياء الدين على طريقة السجع التى تختلف عن طريقة غيره من الكتاب ، فهي تختلف عن طريقة الصابي والحريري والخطيب وابن نباتة المصري ، وذلك ان هؤلاء إنما يعمدون الى تكرار المعنى الواحد فى الفقرتين ، وطريقته هو أن تستقل كل فقرة بمعنى بذاته يقول : ومنه ما كتبه فى جواب كتاب يتضمن إباق غلام وهو : وأما الإشارة الكريمة فى أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يفر المهر من عليقه ويطيير الفراش الى حريقه وغير بعيد أن ينبو به مضجعه أو يكبو به مطعمه فيرجع وقد حمد من رجوعه ما ذمه من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة فى إيابه فما كل شجرة تحلو لذائقها ولا كل دار ترحب بطارقها أو من ابق عن مولاه مغاضبا ، وجاء محل إحسانه الذى لم يكن مجانباً فانه يجد من مفارقة الإحسان ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان ، وهل أضل سعيًا ممن دفع فى صدره العافية وغدا يسأل عن الأسقام ، قال ضياء الدين : فانظر أيها المائل الى هذه الأسجاع جميعها وأعطاها حق النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها ، وكذلك فليكن السجع وإلا فلا".^{٤٣}

والطريقة الثانية : وهى طريقة النثر المرسل التى لا تعتمد على أصول البديع ، ولا تتمسك بقيوده وفيها يتحرر ضياء الدين ويضيق بالبديع ولا يرى الإكثار منه إنما يفضل الأخذ بحذر وبقدر ما يزين الكلام ويشبه بالحلي ، قليل منه يزين ، وإذا كثر ثقل وناء به الجيد وهذه الطريقة الثانية يستعملها فى التأليف ، فكتبه كلها بالأسلوب المرسل غير المقيّد بالسجع ، وهو بهذا يختلف عن العماد الإصفهاني الذى كان أسلوبه فى الإنشاء وكتابة الرسائل هو نفس أسلوبه فى التأليف مما يجعل قارئ كتبه كالخريدة ، والفتح القدسي ، يمل ويستثقل الاستمرار".^{٤٤}

^{٤٢} - حنا الفاخوري :الجامع فى تاريخ الأدب العربى :٦٥٤ دار الجيل بيروت ١٩٨٦م و الدكتور محمد زغلول سلام : الأدب فى

العصر الأيوبي :ص ٢٤٥

^{٤٣} - المثل السائر : ط بولاق ص ١١٩

^{٤٤} - محمد زغلول سلام: الأدب فى عصر الأيوبي : ص ٢٤٥

تأثر ضياء الدين كما تأثر غيره من الأدباء بطريقة القاضي الفاضل في انشائه وحاول تقليد أسلوبه ومعارضته كما قال : سألني بعض الإخوان أن أنشئ في ذلك كتابا الى ديوان الخلافة معارضا لكتاب الذى أنشأه عبد الرحيم بن على رحمه الله فأجيبته الى سؤاله وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب فقلت " ومن جملتها ما فعله الخادم فى الدولة المصرية وأقام بها منبر وسرير الخ".^{٤٥}

وكذلك ذكر بن خلكان انه كان يعارض القاضي الفاضل فى رسائله ، فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات ".^{٤٦}

وكان ضياء الدين كما يقول الدكتور حنا الفاخورى: يهدف بأسلوبه الى تعليم طريقة الكتابة النثرية والشعرية وتمييز الجيد والردئ منها وهو يعرض لموضوعه عرض نظر وتطبيق على سنة الجاحظ وغيره من المتقدمين كالقاضى الفاضل أما من الناحية اللفظية فيوضح المبادئ ويفسرهما ويعللها ، وأما من الناحية التطبيقية فيورد النماذج الجيدة والردئية ، ويدعو إلى تذوق الجيد وإتباعه ونبذ الردى وتجنبه ، ويعلن أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظن السامع أنها غير ما فى أيدي الناس وهى مما فى أيدي الناس ،^{٤٧}

ويقول الدكتور حنا الفاخورى مرة أخرى: وهو لذلك يدرس- اللغة ، وطرق التعبير ، وأساليب التنميق والتقوية ، ويدرس الفكرة وقيم الصلة بين اللغة والفكرة ويعرض لفنه استخراج المعاني من الألفاظ ويهتم لما للألفاظ من ظلال وما تشحن به من معان كثيرة^{٤٨}

ويختلف إنشائه فى المثل السائر عنه فى رسائله فبينما هو فى الرسائل يلزم السجع والمحسنات البديعية إذ به فى المثل السائر يبتعد عنها كل البعد ، فإنشاءه فيه ظاهر الطبيعة ، سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، بريء من التعقيد والإغراب ، غالب عليه

^{٤٥} - المثل السائر تحقيق بدوى طبانة : ٥٧/١

^{٤٦} - وفيات : ٢٦/٥

^{٤٧} - حنا الفاخورى : الجامع فى تاريخ الأدب العربى : ص ٦٥٤ طبعة دار الجليل بيروت ١٩٨٦ م

^{٤٨} - نفس المصدر السابق

الإسهاب ، فكان صاحبه أستاذ يعنى بشرح درسه وإيضاحه وتعليقه ليجعله مفهوما قريبا من الأذهان ، ويمتاز إنشائه فى صبغة رياضية بينة ، يكثر فيها التقسيم الفيثاغوري المتشعب وكثيرا ما يعتمد الى الأدلة المنطقية لتأييد آرائه ، وغلب عليه الجدل فأما يورد أقوال غيره ثم يقول فأقول فى الجواب ، ويورد عليها ، وأما يلتقى السؤال على نفسه فيجيب عنه^{٤٩}.

وأسلوبه فى الجامع الكبير هادئ وينقل عن تقدمه من علماء البيان، ويشير الى مواطن النقل فى كثير من الأحيان ويجادل فى رأى جدالا هادئا، وهذا مما لا نراه فى المثل السائر اذ قلما نراه يشير فيه الى رأى وهو لا يحاول تفنيده أو النيل من صاحبه^{٥٠} وإذا عرفنا عن عبقرية الأدبية فلا مندوحة لنا أن ندرس عبقرياته فى الشعر والكتابة والبلاغة والنقد الأدبي دراسة وجيزة لعلنا نعرف بها شخصيته واضحة.

ضياء الدين ابن الأثير شاعرا

بعد دراسة حياته الحافلة دراسة عميقة من أشتات الأنحاء وصلنا الى القول بأن ضياء الدين ما كان شاعرا مطبوعا مفلقا بل كان مولعا بالشعر شغوبا به يستمد منه فى مادة توسيع ثقافته فى النقد والبلاغة، فذلك كان ضئيل الإنتاج فى الشعر فإن المصادر التى اعتمدنا عليها لم تذكر له من الشعر الا قليل يقول ابن خلكان وهو معاصره وخبير به: ولم يكن له فى النظم شيء حسن^{٥١} ثم ذكر نموذجا من شعره وهو قوله شعر:

ثلاثة تعطى الفرح * كأس وكوب و قدح

ما ذبح الزق لها * الا وللهم ذبح.

^{٤٩} - بطرس البستان : أدباء العرب فى الأعصر العباسية : ٤٤٧/٢

^{٥٠} - عز الدين التنوخى : مجلة المجمع العلمى العراقى : ج ٣٥ ص ٦٦٧ عام ١٩٦٠م

ثم ذكر بن خلكان بيتين من أبيات الفقيه عمارة اليمنى كان ضياء الدين كثيرا ما ينشدهما وهما قوله شعر :

قلب كفاه من الصبابة انه * لبي دعاء الظاعنين وما دعى

ومن الظنون الفاسدات توهمى * بعد اليقين بقاءه فى أضلعي^{٥١}

وقال الدكتور أحمد الحوفى وبدوى طبانة : كان أبن الاثير شاعرا وان غلبت صناعة الكتابة على فنه الأدبى ولذلك كان ما روى له من الشعر قليلا^{٥٢} وقد رأينا الدكتور عمر فروخ أعجبه شعره كل الإعجاب حتى أوصى بتقليده حيث قال : وكان شعره على رفته وعذوبته ظاهر التقليد ، ثم ذكر ثلاثة أبياته من شعره ولكنه لم يذكر مصدره :

بين لوى الجزع ووادى العقيق * من لا الى السلوان عنه طريق

جان جنى النخلة من ريقه * حلو التثنى والثنايا رقيق

لو لم تكن وجنته جنـة * ما أنبتت ذاك العذار الأينق.^{٥٣}

وان كان ضياء الدين ضئيل الإنتاج وما روى له من الشعر قليل ، لكنه كان مولعا بالشعر ، معجبا به عارفا ، بخيره وشره ، عالما بحسناته ومستحسناته ، خبيرا بأوزانه وقافيته ، واقفا على أحكامه وأركانه ولذلك اغترق فى حفظه من صباه فلم يترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره الا وعرضه على خاطره وناظره ثم استمد به فى تكوين ملكته الكتابية والنقدية والبلاغية وقد برز فى سماء فن الشعر بالتجربة والممارسة والإدمان ، نتصور مدى تمهره ومستوى تمارسه عما ذكره لنا فى الوثنى المرقوم والمثل السائر والاستدراك مثلا يقول :

”إنى قلبت الأشعار تقليب السماسرة للمتاع وزنتها بالقيراط وكلتها بالمد والصاع“^{٥٤} -
”ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ولم أقل فيه الا عن تنقيب وتنقيير“^{٥٥} - ”وقد غربلت الأشعار قديمها ومحدثها و تأملتھا تأمل المنتقد “^{٥٦}.

^{٥١} - وفيات الأعيان: ٣١/٥ - ٣٢

^{٥٢} - بدوى طبانة: مقدمة المثل السائر: ص ١٣

^{٥٣} - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى: ٣٦/٣

ولقد كان اطلاع ضياء الدين على الشعر الكثير وحفظه ما استطاع من نصوصه سببا من أهم الأسباب في توسيع مجال دراساته البيانية وكثرة ما اهتدى إليه من أحكام . ولم تقتصر ثقافته الشعرية وسعة اطلاعه على الشعر العربي فحسب بل توسعت توسعا مفرطا حتى تجاوزت الى شعر العجم فكان يعرف أشعار العجم في أشتات اللغات التي كانت سائدة في عصره معرفة تامة يقتدر على تفرقة جيده من رديئه ، وصحيحه من سقيمه كما بيناه فيما ذكره في الوثنى المرقوم وهو قوله :

وكنت سافرت الى بلاد الروم في سنة ستمائة فلما دخلت مدينة ملطية أخبرت أن عنده أدبا إنه يقول الشعر فقصدت لقائه وألقيته كما أخبرت عنه وعرض على قصيدا من شعره وهي مائة بيت ، كل عشرين منها على لغة فكان متضمنا خمس لغات ، العربية والفارسية والتركية والرومية والأرمينية.^{٥٧}

وانه وان لم يكن شاعرا محترفا ولكنه خدم الشعر بطريق تجميع مختارات من جيد الشعر لجماعة من الشعراء وبطريق تصنيف كتب مستقلة في فنون الشعر وحله ونقده . فمن مختاراته :

« ، مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحثري وديك الجن والمتنبى وهو مجلد واحد كبير قال ابن خلكان : « ، وحفظه مفيد.^{٥٨} »

وقال ابو البركات بن المستوفى في تاريخ أربل : نقلت من خطه في آخر هذا المختار ما مثاله :

تمتع به علقا نفيسا فإنه * اختيار بصير بالأمور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى * إلى الشعر من نهج إليه قويم^{٥٩}

^{٥٤} - الوثنى المرقوم : ١٤

^{٥٥} - المثل السائر : ٣٧٠/٢

^{٥٦} - الإستدراك : ٣١

^{٥٧} - الوثنى المرقوم : ٨٧-٨٨

^{٥٨} - وفيات : ٢٨/٥

^{٥٩} - وفيات : ٢٨/٥



ومن مختاراته ، ، مؤنس الوحدة^{٦٠} جمع فيه مختارات من جيد الشعر لجماعة من الشعراء كالبحتري وابن الرومي وأبى تمام وآخرين من شعراء القرنين الخامس والسادس وهو مرتب حسب الموضوعات فيبدأ بالمديح ثم الهجاء وأورد فيه كثيرا من شعر ابن الرومي ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .^{٦١}

ومن تصنيفاته فى صناعة الشعر ، ، الوشى المرقوم فى حل المنظوم ~ بذل فيه جهدا جهيدا فى حل الشعر بطرق مختلفة على ما نبينه فى موضعه إن شاء الله ، قال ابن خلكان : وهو مع وجازته فى غاية الحسن والإفادة .^{٦٢}

وكتابه ، ، تحفة العجائب وطرفة الغرائب ~ أيضا يمثل أعماله الشعرية النثرية فقد جمع فيه مجموعة من الشعر والنثر فى مشاهد الكون المختلفة من سماء ونجوم وشمس وقمر وماء ونهر وشجر وهو من المجموعات الطريفة فى موضوعها يدل على ذوقه وتمكنه فى علم الشعر و فنون النثر وعلى زيادة الاهتمام بهما.^{٦٣}

وفى استطاعتنا بعد هذا السفر الوجيز أن نقول إن ضياء الدين ما كان شاعرا مقلقا بل كان ناقد الشعر ينتقده بتمارسه و يحكم على جياذته ورداءته كما أنه كان يقول الشعر بتجربته فلذلك لم ينقل عنه أشعار حسب موضوعاتها ولا يثبت له ديوان فى الشعر سوى تلك المختارات والله أعلم وعلمه أتم .

ضياء الدين ابن الأثير كاتبا

يجدر بنا ان نتريث برهة عند ثقافة ضياء الدين فى الكتابة وصناعة الإنشاء فنستعرض مساهمته فى تلك الميدان ، فنلقى أولا أضواء على جو الكتابة وصناعة الإنشاء عبر التاريخ ثم نعين مكانته فيها فنقول : إن القرن الخامس الهجرى لم يكد يقارب نهايته حتى

^{٦٠} - عبد الحميدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة : ١٥٦

^{٦١} - وفيلك : ٢٧/٥

^{٦٢} - كشف الظنون : ٣٦٩

كادت الحياة الأدبية عند العرب فى سائر نواحيها قد بلغت قمة مجدها وذرورة نضجها فى ناحية إنشائها وتأليفها وناحية درسها وتدوين أفكارها ، فبلغ فن الشعر أقصى غاياته من حيث الأغراض والفنون و كذلك النثر وفن الخطابة عاش حياة خصبة منذ أمد بعيد ثم إذا أدركه الضعف والذبول أخذ فن الكتابة وصناعة الإنشاء فى النضج والإزدهار وقد قطع أيام بنى العباس شوطا كبيرا فى سبيل نهجته وترسيخ قدمه فكثرت أعلامه وتعددت مجالاته حتى إذا تتبعنا تاريخ فن الكتابة فى عصر بنى العباس نجد مدارس الكتابة مختلفة متميزة بخصائصها وبأسماء أصحابها فكانت هناك طريقة عبد الحميد الكاتب وطريقة ابن المقفع وطريقة الجاحظ وابن العميد وطريقة القاضى الفاضل وكان ضياء الدين ابن الأثير من أولئك الأعلام الذين لهم ببيض الأيادى على فن الكتابة وصناعة الإنشاء وقد أجمعت المصادر على ان فن الكتابة انتهى اليه فى زمنه كما يقول الدكتور نورى حمودى القيسى : ولعل مما تقدم ما يكشف ويشف عن مكانة العلمية والأدبية الرفيعة التى تبوأها ابن الأثير فى زمنه بعد أن جمع مؤرخوه على ان فن الكتابة قد انتهى اليه فى زمنه وإن به ختم فن البلاغة^{٦٣}.

وقال جمال الدين ابو الحسن على بن الحسن الخزر جى فى العسجد المسبوك " : كان ضياء الدين ابن الأثير بارعا فى فنون الأدب كاتبا بليغا وصدرا نبيلًا عالما متفنا فى علم الكتابة مصدرا على الانشاء وكتابة الرسائل ، رأسا فى المعانى المخترعة واليه انتهى علم الكتابة فى زمانه وبه ختم فن البلاغة"^{٦٤}.

وكانت حياته الصاخبة الحافلة هيأت له مادة الكتابة والانشاء فبلغت شخصيته اقصى غايات المجد فى الكتابة وفنونها وأحرزت قصبات سبق فيها على من كانوا يعاصرونه من كتاب عصره فلذلك كان يحاول أن يعارض القاضى الفاضل والتفوق عليه ويوازن برسائله رسائل كبار كتاب عصره كالصابى والصاحب بن عباد وامثالهم يقول ابن خلقان :

^{٦٣} - مقدمة كفاية الطالب: ٢٤

^{٦٤} - العسجد المسبوك: ٤٩٦: نقلا عن مقدمة كفاية الطالب ص: ٢٣

وكان يعارض القاضي الفاضل فى رسائله فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات.^{٦٥}

ونجد أمثال تلك المعارضة فى المثل السائر فى مواضع متفرقة ، نذكرها فى باب مساهمته فى النقد إن شاء الله .

الشروط اللازمة للكاتب عند ضياء الدين :

تقدم ضياء الدين الى صناعة الكتابة بعد أن زود نفسه بآلاتها وبألوان الثقافات التى عددها فى الوشى المرقوم فيذكر ما يحتاج اليه الكاتب و يفترق ثم بين عن جهود التى بذلها فى تحصيل ملكته تلك فى الكتابة فيقول :

واعلم أن الكاتب يحتاج الى التشبث بكل فن والنظر فى كل علم وارصاد السمع لمحاورات الناس فإنه لا يعدم من ذلك فائدة فان كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها وقد تتبعت أقوال الناس فى محاوراتهم فاستفدت بذلك فوائد كثيرة حتى من أكار وفلاح وأعجمي من الأعجام الأغتام ومن يجرى مجراهم وقد تصدر كلمة الحكمة من جاهل بمكانها كما يقال ورب رمية من غير رام فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يعلم ما تقوله الناذبة فى المأتم وما تقوله الماشطة عند جلوة العروس وما يقوله المنادى فى السوق على السلعة فدع ما وراء ذلك ، وليس فن الكتابة كغيره من فنون العلم فإن كل علم له حاصر وضابط وأما الكاتب فإنه لا حاصر له فيما يحتاج اليه من فن الكتابة .^{٦٦}

ثم بين خلاصة ما يحتاج اليه الكاتب وهو ثلاثة : الأول : حفظ القرآن الكريم ، فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفا به لأن فيه فوائد كثيرة : منها أن يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللاتقة بها واستعمالها فى مواضعها المناسبة لها ولا شبهة فيما يصير الكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق و إذا عرف مواقع البلاغة واسرار الفصاحة المودعة فى تأليف القرآن اتخذه بحرا يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها فى مطاوى كلامه.^{٦٧}

^{٦٥} - وفيات : ٢٥/٥

^{٦٦} - الوشى المرقوم : ٨

^{٦٧} - المثل : ٣١/١

والثاني : حفظ ما ينبغي له من الاخبار النبوية على أن الاخبار لا يمكن الاحاطة بحفظها كما يمكن الاحاطة بحفظ القرآن وإنما يأخذ منها ما يدخل في هذه الصناعة .^{٦٨}

والثالث : حفظ الأشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد مما يكون كل بيت منه في الجودة بمنزلة قصيدة من غيره.^{٦٩}

ثم يذكر تجاربه في تحصيل ملكته الكتابية ولزوم هذه الأسباب لصاحب هذه الصناعة فيقول : وقد قلبت هذا الفن ظهرا لبطن فلم أجد السلوك الى هذه الطريق الا بتحصيل هذه الاسباب الثلاثة فإذا حصلت هذه الأسباب الثلاثة وأتقن تحصيلها أخذ صاحبها في فن الكتابة ، فصار يهب ويركد ويقوم ويقعد ويصدر ويورد ويخلط الصحيح بالسقيم ويمشى مكبا على وجهه ثم سويا على صراط مستقيم ، وفي أول الأمر لا يرى الا صعوبة ووعرة ، وطريقا مشكلة المذاهب كثيرة الشعاب فإذا أكره خاطره على سلوكها وشجعه على توردها فما تمضى به الا هنيهة حتى يستمر به الطريق ويتضح لديه وأخلق بتلك الطريق أن تكون بديعة غريبة لا تشبه شيئا من طرق المتقدمين ... وهكذا فعلت انا في فن الكتابة.^{٧٠}

ثم يؤكد على السبب الثالث مرة أخرى فيقول : إن صاحب هذه الصناعة يحتاج الى حفظ دواوين كثيرة لفحول الشعراء ، فإذا فعل ذلك فليدمن في حل الأبيات الشعرية زمنا طويلا ، حتى تحصل له الملكة ، ليكون اذا كتب كتابا او خطب خطبة جاءته المعاني سائحة وبارحة وواتته السرعة فيما ينشئه ذلك ، ولا يحول بينه وبين الإبطاء ، وهذا شئ حصل بالتجربة ، فخذ مني ما قبلته التجربة لا ما قالته الألسنة اخبارا".^{٧١}

تقدم ضياء الدين الى فن الكتابة بجده واجتهاده بأن طار كل مطار في سبيل تحصيل ملكته الكتابية كما افادنا هو فحصلت له قدرة عجيبة على الكتابة والإنشاء حتى حاول أن يسلك هو طريقة عذراء لم تفتزع و مذهباً غريباً لم يبتدع على ما يبدو لنا من العبارة الآتية :

^{٦٨} - المثل : ١ / ٣٢

^{٦٩} - الرشى : ٨

^{٧٠} - الرشى : ٩ - ١١

^{٧١} - الرشى : ١١

إن مرادي من صناعة الكتابة إنما هو طريق الإجتهد لا طريق التقليد وإذا قصرت نظري على النظر في المكاتبات من تقدم فكأنما أكون قد حذوت حذوهم وهذا ليس من شأني ولا إربي وإنما الإرب كله في طريقة عذراء لم تفتزع ومذهب غريب لم يبتدع.^{٧٢}

ثم إنه يعلن بأن صناعة الكتابة طبع وكسب، وإن الكسب لا يجدي إذا لم يتم على الطبع والذوق السليم الفطري، إلا أن الطبع لا يغني عن الكسب فللكتابة أصول على الكاتب أن يعرفها تمام المعرفة و إلا زلت به القدم وكبابه القلم وإن الطبع نواة الخلق والإبداع فإنه إذا لم يكن ثم طبع لا تغني تلك الآت شيئاً ثم ذكر دليلاً على صحة قوله ما روى عن الحريري حين يقول في المثل السائر :

وهذا ابن الحريري صاحب المقامات المشهورة قد كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحداً في فنه، فلما حضر بغداد ووقف على مقاماته، قيل "هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ويحسن أثره فيه"، فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم ولم يجرى لسانه في طويلة ولا قصيرة وهذا مما يعجب منه فقال فيه بعضهم : شعر

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عشنونه من الهوس

أنطقه الله بالمشان وقد * أجمه في بغداد بالخرس.^{٧٣}

أركان الكتابة عند ضياء الدين:

تحدث ضياء الدين عن أركان الكتابة وعن الطريق إلى تعلم الكتابة ولم يتحدث عن الشرائط لكثرتها أما الأركان فخمسة والطريق إلى تعلم الكتابة فثلاثة يقول في المثل السائر:

إن شرائط الكتابة كثيرة أما أركانها فخمسة وهي :

- ١- جودة المطلاع ويشترك فيه الشاعر والكاتب
- ٢- اشتقاق الدعاء من المعنى الذي بنى عليه الكاتب

^{٧٢} - الوشي ١١:

^{٧٣} - المثل ٣٤٥/١: طبعة محي الدين

- ٣- خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة ويشترك فيه الشاعر والكاتب.
- ٤- أن تكون الألفاظ فيه غير مخلوقة بكثرة الإستعمال وهو لا يريد أن تكون غريبة بل يريد حسن السبك حتى يظن السامع أن الألفاظ التي يسمعها غير ما في أيدي الناس وهو مما في أيدي الناس، ويشترك في ذلك الشاعر والكاتب .
- ٥- أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن والحديث وحل المعاني أحسن من تضمين نص اللفظ .

والطريق الى تعلم الكتابة ثلاثة :

- ١- أن يحذو المتعلم حذو المتقدمين من الكتاب في استعمال الألفاظ والمعاني وهو أدنى الطبقات.
- ٢- أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة صفة في تحسين ألفاظ أو تحسين معان وذلك متوسط .
- ٣- ألا يطلع على كتابة المتقدمين بل يصرف همه الى حفظ القرآن الكريم والأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن تغلب على شعره الإجابة في الألفاظ والمعاني ثم يقتبس منها جميعا فيخطئ أو يصيب حتى يستقيم على طريقة لنفسه وتلك هي طريقة الإجتهد في الكتابة التي تشبه الإجتهد في الشريعة.^{٧٤}

من يستحق اسم الكاتب ؟

حينما نجول مع ضياء الدين في مجال كتاباته نصبح مضطرين الى الإعتراف بما قال وكتب بأنه هو الحق فلقد رأيناه يقدم لنا تعريف الكاتب أو تعريف لمن يستحق إسم الكاتب، فيقول في الوشي المرقوم :

وقد سألني بعض الأدباء عن الكاتب من هو ؟ ومن يستحق هذا الإسم ؟ فقلت له : إن الكاتب عندي من إذا كلفته أن يكتب عنك كتابا في أمر من الأمور وأفضيت إليه بالمعنى جملة واحدة أخذه وفصله واتى به على وجه إذا تأملته قلت هكذا كان في نفسي ولكن لم

أقدر أن أعبر عنه فهو ينطق على خاطرك بما لا تقدر أنت أن تنطق به فهذا هو الكاتب الذى يطلق عليه اسم الكاتب فاستحسن منى غاية".^{٧٥}

واننا نستطيع ان نتصور مدى مقدرته الكتابية و عبقريته فى صناعة الإنشاء حين نطالع مؤلفاته فى فن الكتابة والإنشاء ورسائله المدهشة فقد ألف كتباً عدة فى موضوع فن الكتابة والإنشاء وكان يهدف بهذه المؤلفات تدريب ناشئة الكتاب على كتابة الإنشاء فمن تلك الكتب: الوثنى المرقوم فى حل المنظوم ، ذكره فى المثل السائر أكثر من مرة، و المعاني المخترعة فى صناعة الإنشاء " قال ابن خلكان وهو نهاية فى بابهِ".^{٧٦}

و مفتاح المنشأ فى صناعة الإنشاء ، صنفه للحديث عن صناعة الإنشاء ورتبه على بابين فى مراتب الكتب والرسائل والمخاطبات وكيفية وضع الأسماء ومكانها فى صدور الرسائل وصور العنونات والأدعية والإنهاءات والرتب والألقاب والأسماء وما الى ذلك ويختمه بأبواب فى البديع ، ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠٧٠.٧٧.

والى جانب هذه المؤلفات ديوان ترسل فى عدة مجلدات لأنه كان كاتباً مباشراً من كتاب الدواوين فى الدولة الأيوبية ، كتب لصالح الدين الأيوبي ولأولاده من بعده ، ثم تولى رئاسة ديوان الإنشاء بالموصل لصاحبها السلطان ناصر الدين محمود وهو الذى أوفده الى بغداد سنة ٦٣٧ وكان معه رسالة من انشائه ، تلك هي الوفادة التى توفى فيها بغداد كما بيناه .

وقد طبعت رسائله بطابع مميز، نشر الأستاذ أنيس المقدسي فى بيروت سنة ١٩٥٩ هـ مجموعة من رسائله ضمت مائة وتسع وستين رسالة ، فثلاث عشرة رسالة الى ديوان الخلافة العباسية فى بغداد ، والى الأسرة الأيوبية ست وأربعون رسالة ، والى أمراء وأعيان آخرون اثنان و ثلاثون رسالة ، وهناك رسائل كثيرة لا ذكر لمن أرسلت إليهم

^{٧٥} - الرضى : ١٥

^{٧٦} - وفیات : ٥٢٨

^{٧٧} - مقدمة كفاية الطالب : ١٩

وأكثرها من قبيل التهاني والتعازي والتقاليد والإخوانيات وما الى ذلك ، وكبار الشخصيات الموجهة اليهم أو عنهم هذه الرسائل حسب ما بينه الأستاذ أنيس المقدسي هو كما يلي:

<u>عدد الرسائل</u>	<u>من الى:</u>
١٣:	١- ديوان الخلافة العباسية في بغداد
٣:	٢- الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي
١٢:	٣- الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين
١١:	٤- الملك الأفضل علي بن صلاح الدين
١:	٥- الملك الكامل محمد بن الملك العادل أخى صلاح الدين
١٥:	٦- الملك الأشرف موسى بن الملك العادل
٤:	٧- الملك المعظم عيسى ابن الملك العدل
١:	٨- الملك المسعود ابن الملك الكامل
٥:	٩- أرسلان ابن مسعود بن مودود زنكي
٤:	١٠- عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود
٣:	١١- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني
٦:	١٢- حسام الدين نائب الملك الأشرف
١:	١٣- تقيب الأشراف العلويين في الموصل
١:	١٤- صاحب مدينة آمد
٢:	١٥- تاج الدين الكندي
١:	١٦- شمس الدين قاضي دارا
١:	١٧- شمس الدين ابن هبيرة البغدادي
١:	١٨- نظام الدين وزير الملك الظاهر
١:	١٩- سيف الدين محمد ابن تميرك من امراء دمشق

- ٢٠- بدر الدين محمود ١:
 ٢١- قاضى ملطية ١:
 ٢٢- ابو عبد الله بن سلامة من كبار التجار بدمشق ١:
 ٢٣- معين الدين ابن سكينه من شيوخ بغداد ١:
 ٢٤- مجد الدين عمر أخو الفقيه بحلب ١:
 ٢٥- علم الدين اسماعيل بن ابى الحجاج صاحب الديوان بمصر ١:

المجموع الكلى - ١٦٩ رسالة .

مختارات من رسائله

- ١- ومن جملة رسائله ما كتبه الى الأمير حسام الدين النائب عن الملك الأشرف سنة ٦٣٢ عند نزول ملك خوارزم وهى :
- أدام الله أيام المجلس السامى الحسامى ولا زالت المناقب من ذخائره ، والصنائع من تجائره ، والأقدار من عشائره والأقران من عساكره ، والأقلام من بواتره ، وألسنة الأيام من خطائبه وشواعره ، قارعة الحصار قد سماها الله زلزلا شديدا وجعلها لكتاب الحرب بريدا وجعل قائم الأسوار فيها حصيدا.^{٧٨}
- ٢- ومن رسائله ما كتبه الى الديوان العزيز النبوي : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وهذه الآية لرسول الله فى رد كيد العدو الكافر، وبمثلها رد عن خليفة الآن كيد العدو الفاجر وقد اختصه الله بالفضيلة فى سبوغ نعمائه ورفعه أن يمد بمدد أرضه الى الإمداد بمدد سمائه ولم يزل العبد فى ارتقاب ذلك على الأوفاز ومن مواعيد حديث النفس فيه على إنجاز.^{٧٩}

^{٧٨} - نشرة أنيس المقدسى: ٢٤

^{٧٩} - نشرة أنيس المقدسى: ١٧

٣- ومن جملة رسائله ما كتبه الى مخدومه وقد سافر في زمن الشتاء والبرد الشديد وينهى أنه سار عن الخدمة : ود ضرب الدجن فيه مضاربه وأسبل عليه ذوائبه وجعل كل قرارة حفيرا وكل ربوة غديرا وخط كل ارض خطأ وغادر كل جانب شطا كأنه يوازي يد مولانا في شيمة كرمها والتثاثر صوب ديمها والمملوك يستغفر الله من هذا التمثيل العارى عن الفائدة التحصيل و فرق بين ما يملأ الوادى بمائه ومن يملأ النادى بنعمائه و ليس ما ينبت زهرا يذهب المصيف أو ثمرأ يأكله الخريف كمن ينبت ثروة تفوت الأعطاف ويأكل المرتبوع والمصطاف ثم أستمر على مسير يقاس الأرض وحلها والسماء ووبلها ، ولقد جاد حتى أكثر وواصل حتى أضجر وأسرف حتى اتصل بره بالعقوق وما خاف المملوك لمع البوارق كما خاف لمع البروق ولم يزل من مواقع قطره فى حرب ومن شدة برده فى كرب ، والسلام .^{٨٠} يقول ابن خلكان : ولما سمع صاحبنا الحسام عيسى بن سنجار الأربلى هذا المعنى وهو قوله ومن شدة برده فى كرب " أعجبه ونظم اببياتا ومن جملتها بيت أودعه هذا المعنى وهو :

ويلاه من برد رضاب له * أشكو الى العذال منه الحريق.^{٨١}

٤-وله رسالة يصف بها الديار المصرية وهى طويلة ومن جملتها فصل فى صفة نيلها وقت زيادته وهو معنى بديع غريب وهو قوله :

وعذب رضابه فضاهى جنى النحل ، واحمر صفيحه فعلمت أنه قد قتل المحل قال ابن خلكان : وهو معنى بديع غريب لم نقف لغيره على اسلوبه وهو نهاية فى الحسن ، ثم انى وجدت هذا المعنى لبعض العرب ، وقد اخذ ضياء الدين منه ولقد أحسن فى أخذه وتلطف فى نقله الى هذا المعنى وله كل معنى مليح فى الترسل وكان يعارض القاضى الفاضل فى رسائله فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات.^{٨٢}

٥- ومن رسائله ما كتبه عن مخدومه الى الديوان العزيز وهى :

^{٨٠} - وفيات : ٢٨/٥

^{٨١} - نفس المصدر

^{٨٢} - وفيات : ٣١/٥

ودولته هي الضاحكة وان كان نسبها الى العباس فهي خير دولة اخرجت للزمن كما ان رعاياها خير امة اخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تهزم وانها لا تزال محبوبة من ابيكار السعادة بالحب الذى لا يسلى والوصل الذى لا يصرم وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لا تخطه الأقلام فى صفحتها ولا أجالته الخواطر فى افكارها.^{٨٣}

خصائصه الفنية وطريقته فى صناعة الإنشاء

شبه الأستاذ أنيس المقدسى رسائله بالبحر اللغوى لما تحتويه من فنون الأوضاع وصنوف المعانى فقال : والذى يطالع رسائله يدهش لما تحويه من فنون الأوضاع وصنوف المعانى فهي والحق يقال بحر لغوى واسع يعسر على المتأدب العادى خوض عبابه أو سبر غوره.^{٨٤} وما قاله الأستاذ المذكور حول رسائله هو الحق لأن مقدرته الكتابية وسعة إطلاعه اللغوى وطريقة عرضه للموضوع وجودة أسلوبه رغم ما فيه من صنوف المعانى وفنون البيان يدهشنا ويعجبنا أشد الإعجاب ،

لقد نشأ ضياء الدين فى عصر بلغ فيه التأنق البيانى فى العبارات وتغارب فى المصطلحات مبلغا عظيما حتى أصبح التنميق غاية الكاتب يصرف كل همه الى إلباس الكلام لباسا موسى تثقله الزخارف البديعية واللفظية وقد كان لضياء الدين يد طولى فى هذه الحركة حتى عد من أقطاب هذه الصناعة ، فخصائصه الفنية فى الكتابة والإنشاء ترجع الى ما يلى :
أ- التصوير التشخيصى : يقوم ذلك بالتوفر على الإستعارات وطرق المجاز المختلفة ثم بالتشخيص الكثير ؛

^{٨٣} - وفيات : ٥٢٩

^{٨٤} مقدمة رسائل بن الأثير لأنيس المقدسى : ١٠

ب- الإيغال فى الجنس والطباق والتورية : لقد أولع بها ضياء الدين ، وأكثر من استعمالها فى رسائله وأطال جملة وباعد بين فواصلها المسجعة ، حتى تتم له القرائن والمرشحات لبيان التورية والجناس فنشأ عن ذلك غموض وتعقد وغبثانة ،

ج- الإكثار من حل المنظوم والتضمين : أولع ضياء الدين بالإكثار من حل المنظوم وتضمين كلامه و من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والحوادث المشهورة ،

د- الإطناب : كثر الإسهاب فى عصره فمال ضياء الدين الى العطف والترادف وغير ذلك من أساليب الإطناب و التطويل .

هـ- التأنق الإنشائي : يجرى فى ترسل ضياء الدين مجرى أهل عصره من التأنق الإنشائي الذى قاده أحيانا الى التكلف والتصنع وهما من آفة الترسل ،

و- التكلف المجازى : ولتكلفه مظهران أحدهما مجازى يحاول فيه أن يأتى بغرائب الصور المجازية ، والآخر تلميحى يعتمد فيه على الإشارات البعيدة من تاريخية أو لغوية أو شعرية ،

ز- تكلف فى الإشارات البعيدة: كثيرا ما كان يتعاطاه ضياء الدين فى رسائله وهو مما يجعل فهم المراد عسيرا ما لم يعرف المشار اليه والغاية من الإشارة.^{٨٥}

هذه هى الخصائص التى تدور حولها رسائل ضياء الدين وان كان بعض تلك الخصائص كالتأنق الإنشائي والتكلف المجازى والإشارات البعيدة الغامضة يعاب فى عصرنا ولكنه ما كان يعابه فى عصره لأنه كان ظهر فى عصر بلغ فيه التأنق الإنشائي اقصى غاية حتى أصبح التعميق غاية الكاتب يصرف همه الى التأنق والتصنع والزخارف البديعية واللفظية كما بيناه، ولكنه كان لا يتقيد به دائما وان كان شائعا فى رسائل كتاب عصره شيوعا عظيما.

يذكر الباحث الكبير الأستاذ أنيس المقدسى جوابا عن هذا الاعتراض المشين حين يقول :
وإذا كنا اليوم نعد الإسراف فى التأنق الإنشائي والتكلف البديعى والتغارب فى الإشارات

^{٨٥} - مقدمة رسائل ابن الأثير لأنيس المقدسى : ١٠-١٤ و تاريخ الأدب العربى : حنا الفاحورى : ٧٢٠-٧٢١

مما يشين البلاغة ويضعف الكلام فلا ننسى أن عصر ابن الأثير غير عصرنا وإن مقائيس البلاغة في عهده غيرها في هذا العهد ومعلوم أن الأساليب الإنشائية قد تطورت مع الزمن شأن كل شئ في الحياة الفكرية والاجتماعية وعليه فلا مندوحة لنا قبل الحكم على الأديب من مراعاة زمانه ومقارنته بأقرانه وعلى هذا الاعتبار يصح لنا أن نعد ابن الأثير من كبار الكتبة والمنشئين.^{٨٦}

أسلوبه

أسلوب ضياء الدين في رسائله يمتاز امتيازاً ظاهراً بإناقاة التصوير البياني والتكلف المجازي وبلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام معاني الشعر وألفاظه و بحل الأبيات السائرة والحكم الماثورة حتى كادت تكون رسائله شعراً منشوراً وكان كثيراً ما يقتبس من كلام البلغاء ويضمن كثيراً من الأمثال ومن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأفذاذ من أبيات الشعراء فجاءت معاني رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها، والأسلوب المنمق المسجع الذي يعتمد إليه ضياء الدين في كثير من الأحيان يتطلب من طبيعته الإطناب والترادف.^{٨٧}

مع ذلك كله فهو يستعمل في بعض رسائله الأسلوب المرسل الذي يكاد يخلو من كل تنميق وتصنع ويعرض قضيته في أسهل ما يكون العرض وأوضحه ويحرص على تفسير المعاني وتبيين مواطن الجمال أو القبح ويقدم لذلك النماذج والشواهد ويسلسل الأفكار في طي ونشر وتقسيم وتبويب وربط الأقسام بما يوضح مرجعها وسيرها وهو يكرر إذا وجد في التكرار فائدة

أو خشى أن تفوت القارئ حجة أو أن يغلق عليه معنى ، وهذا الأستاذ يهدف بأسلوبه الى تعليم طريقة الكتابة النثرية والشعرية وتمييز الجيد والردئ منها وهو يعرض لموضوعه عرض نظر وتطبيق على سنة الجاحظ وغيره من المتقدمين كالقاضي الفاضل أما من الناحية اللفظية

^{٨٦} - مقدمة رسائل ابن الأثير لأنيس المقدسى : ١٥

^{٨٧} - مقدمة رسائل ابن الأثير : أنيس المقدسى : ١٢

فيوضح المبادئ ويفسرهما ويعملها ، وأما من الناحية التطبيقية فيورد النماذج الجيدة والرديئة ، ويدعو إلى تذوق الجيد وإتباعه ونبذ الردي وتجنبه ، ويعلن أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس وهي مما في أيدي الناس ، وهذا الأستاذ يدرس برسائله - اللغة وطرق التعبير ، وأساليب التعميق والتقوية ويعرض لفنه استخراج المعاني من الألفاظ ويهتم لما للألفاظ من ظلال وما تشحن به من معان كثيرة^{٨٨}.

ويختلف إنشائه في المثل السائر عنه في رسائله فبينما هو في الرسائل يلزم السجع والمحسنات البديعية إذ به في المثل السائر يبتعد عنها كل البعد ، فإنشاءه فيه ظاهر الطبيعة ، سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، بريئ من التعقيد والإغراب ، غالب عليه الإسهاب ، فكان صاحبه أستاذ يعنى بشرح درسه وإيضاحه وتعليقه ليحمله مفهوما قريبا من الأذهان ، ويمتاز إنشائه في صبغة رياضية بينة ، يكثر فيها التقسيم الفيشاغورى المتشعب وكثيرا ما يعتمد إلى الأدلة المنطقية لتأييد آرائه ، وغلب عليه الجدل فأما يورد أقوال غيره ثم يقول فأقول في الجواب ، ويورد عليها ، وأما يلقي السؤال على نفسه فيجيب عنه^{٨٩}.

ضياء الدين بن الأثير بلاغيا

نشأت البلاغة والنقد جنباً إلى جنب لأن كلا منهما يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال في الأداء والتعبير الأدبي فالبلاغة تأخذ بيد الأديب وتهديه إلى الصواب والنقد يوقفه على ما أصاب من حسن وما تورط فيه من قبح فهما متحدان موضوعاً وليست قصة النابغة الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ وقصة خنساء وحسان ابن ثابت وأسواق العرب التي كان الناس يجتمعون فيها فيلقى الشعراء شعرهم والخطباء خطبهم وينقد

^{٨٨} - الجامع في الأدب العربي وتاريخه : حنا الفاحوري : ٦٥٤

^{٨٩} - أدباء العرب : بطرس البستاني : ٤٤٧/٢

بعضهم بعضا - الا بداية حسنة للنقد والبلاغة ، هكذا استمر الأمر ، ولما جاء الاسلام أخذ فن البلاغة تطوره فما لبث أن أصبح علما ذا كيان وتراثا مجيدا بين تراث العقلية العربية التي تعهده أعلام الأدب والمعرفة ، قال ابن خلدون فى تعريف علم البلاغة مع ذكر نشأته الأولى : البلاغة علم من العلوم الإسلامية استنته المسلمون أول ما استنوه لخدمة دينهم والنود عن قرآنهم".^{٩٠}

فالأساس الذى بنيت عليه البلاغة أولا هو دراسة أساليب القرآن فى التعبير ومقابلتها بأساليب البلغاء ثم استخلاص عناصر الجودة فى الأولى ومواقع التقصير فى الثانية ثم الموازنة الآى من القرآن الحكيم من كلام العرب ليبين فضل القرآن على كلام الفصحاء الذى استوت لديهم ملكة البيان ، وكان طبيعى أن تتطور تلك النظرات الى دراسة لا تقف عند القرآن وادراك إعجازه بل تجاوزت تلك الغاية الى غاية شبيهة بها وهى تحقيق النص الأدبى بموازنة بين الفنون الأدبية ،

ثم ظهر الضعف والذبول فى الحركة البلاغية بعد أن كانت فى أوج شرفها واتساعها فقطعت أمدا بعيد منذ نشأتها الى أن برز الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى ٤٧١ من الهجرة ، فقام بتدوين علم البلاغة ووضع قوانين للمعانى والبيان ، ورتب فنونه فى كتابيه أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز كما صرح السيد يحيى بن حمزة العلوى فى كتاب الطراز حين يذكر :

وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانيه الشيخ التحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ).^{٩١}

وبعد عبد القاهر وقفت البلاغة فلم تكن الكتب المؤلفة بعده الا شرحا وتلخيصا ، تكاد تأخذ بعضه بعضا وتتفق مناهج بحثها الى حد ما فغاية ما ترمى من بحثها هى معرفة اعجاز القرآن ومعرفة الجيد من الردى والاستعانة بالبلاغة فى إنشاء الأدب وشعره ونشره ، وظهرت من ذلك طريقة بحثها فسيطرت على مؤلفات بعضهم النزعة الأدبية كما سيطرت

^{٩٠} - ابن خلدون : المقدمة : ٥٥٢

^{٩١} - يحيى بن حمزة العلوى : كتاب الطراز : ٤

على مؤلفات بعضهم النزعة الكلامية ، وقد ظهرت فى كتب الجاحظ مسحة كلامية عند عرضه بعض المسائل البلاغية ثم أخذت هذه النزعة تزداد قرنا بعد قرن وتقدم تقدما حثيثا حتى بلغت ذروتها فى عصر ضياء الدين على يد السكاكى المتوفى ٦٢٦ وتلاميذه يقول الأستاذ أمين الخولى فى ارتقاء النزعة الكلامية :

” ولو أمعنا النظر ومضينا فى النقص لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى فى نشأة البلاغة“.^{٩٢}

”وأما النزعة الأدبية فقد لعبت دورا هاما فى تنوير أبحاث البلاغة وإرساء قواعدها بإستعانة من القرآن وكان اديبنا ضياء الدين ابن الأثير من أقطاب هذه النزعة الأدبية فقام ببحث البلاغة بحثا أدبيا وابتعادها من النزعة الكلامية البعيدة عن تعاليم الإسلام، فلذلك حمل حملة عنيفة على الفلسفة ورجالها ورأى فى أصحابها أمثال الفاربى وابن سينا رجالا أضلهم أرسطو وأفلاطون كما مر“.^{٩٣}

وكان له وجهة خاصة فى التأليف وكان كتاباه المثل السائر والجامع الكبير من خيرة الكتب التى تتمثل النزعة الأدبية لما اشتملا على نصوص أدبية رفيعة بحيث لو جردا مما فيهما من نقد لكانا من أوفى كتب البلاغة والبيان على مذهب النزعة الأدبية .

إنه وزع الكلام فى كتابه ”المثل السائر“ فى مقدمة ومقالتين فقد تكلم فى المقدمة على موضوع علم البيان وأصوله وفى المقالتين على فروعها ، أولاها على الصناعة اللفظية وما ينطوى تحتها من النظر فى الألفاظ المفردة والمركبة والتسجيع والتجنيس والترصيع والموازنة والمعاظلة والمنافرة بين الألفاظ وما الى ذلك.

وثانيتها على الصناعة المعنوية وما تحتها من الإستعارة والتشبيه والتجريد والإلتفات وتوكيد الضميرين والإرصاد والإشتقاق والسرقات الشعرية وغيرها .

^{٩٢} - أمين الخولى : مجلة الجامع المصرية : ٢٤/٥ عام ١٩٣١

^{٩٣} - المثل : ١٩٢/٢

أما البديع فإنه لم يجعله شيئا آخر غير ما به المطابقة مع الفصاحة لأن الحسن في الكلام عنده سواء كان عرضيا أو ذاتيا لفظيا أو معنويا مقوم من مقومات علم البلاغة وأنه ليس هناك شيء يقتضيه الحال وشئ لا يقتضيه .

وكان ضياء الدين هو الذى سمي البلاغة علم البيان ولم نجد أحدا سماها بهذا الإسم ودليل على ذلك أنه جعل البيان علما ودرس فنون البلاغة كلها تحت عنوان ، ، علم البيان " ولم يحاول تقسيمها الى المعاني والبيان والبديع كما فعله السكاكيون وغيرهم ، فما كانت البلاغة عند ضياء الدين كما نعرفها نحن الآن بل كانت أوسع وأشمل كما يفهم من دراسة كتبه ، فهي عنده تضم طرق تعلم الكتابة والإنشاء والحكم على المعاني الى جانب الإستعارة و التجنيس والتصريح والترصيع والتجريد و التوشيع والسجع وما الى ذلك ، فلم يفصل بين هذه الموضوعات المختلفة بل اعتبرها موضوعا واحدا يتعلق بفن الكتابة من نظم ونثر أسماها علم البيان، ويرى فنون البلاغة علما واحدا يستعين به الكاتب والشاعر بعد التمرن على الكتابة وحفظ القرآن الكريم وما يتيسر له حفظه من الأحاديث وما يحتاج اليه من الشعر العربي قديما وحديثا فلهذا اختلف مناهج بحثه وتأليفه عن غيره من العلماء العربية.^{٩٤}

ذكر ضياء الدين فى كتابه فنون البلاغة والبيان بطريقتين الأولى فى القواعد وأصول البيان والثانية فى إظهار محاسن الصناعة و معايبها فجمع فى أولاهما الحدود والتعاريف وسائر أقسام البيان واتى فيها بكل ما استطاع من المعارف التى اهتدى اليها السابقون فى البحث البلاغي فيصح فى كثير من المواضع أخطاءهم ويضيف الى تحديداتهم ما أضاف مما جعلها جامعة مانعة.

وفى الثانية ألم بكثير من محاسن الصناعة وعاب مما يقع مستعملوا هذه الفنون فى أدبهم مع موازنات رائعة تدل على اصالة الذوق الأدبي عنده.

لم يكتف ضياء الدين على أن يكون جامعا أو ناقلا فحسب بل أراد أن يكون مؤلفا فى البلاغة ورائدا من رواد علم البيان بما أضاف وصحح وعاب ونقد ومن هنا كان للمثل السائر لونا متميزا من ألوان التأليف فى البيان العربي فاستطاع على الرغم من كثرة الدراسات

المتباينة في هذا الكتاب أن يكون مرجعا من مراجع البلاغة لا يستغني عنه باحث من الباحثين .

ولم يكن ضياء الدين في كتاباته مقلدا كما قلنا بل ابتدع له طريقة عذراء لم يفترع ومذهبا غريبا لم يبتدع فقد عثر على ضروب كثيرة من فنون علم البيان في غصون القرآن الكريم التي لم يذكرها أحد ممن سبقه من البلغاء فلذلك أراد أن يضيفها في علم البيان ويجبر النقصان فألف المثل السائر ولخص فيه تلك الموضوعات التي لم يتطرق إليها أحد قبله يقول في المثل السائر:

وكننت عثرت على ضروب كثيرة في غصون القرآن الكريم ولم أجد أحدا ممن تقدمني تعرض لذكر شيء منها وهي إذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره وقد أوردتها هاهنا وشفعتها بضرب آخر مدونة في الكتب المتقدمة بعد أن حذف منها ما حذف وأضفت إليها ما أضفته - وهذاني الله لا ابتداع أشياء لم تكن قبلي مبتدعة ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون تابعة وإنما هي متبعة وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا وعلى غيره من الكتب.^{٩٥}

كان أديبنا ضياء الدين واسع المعرفة بفنون علم البيان كثير الإطلاع على مراجعها لأنه ما ترك في تحصيله سبيلا إلا نهجه ولا غادر في إدراكه بابا إلا ولجه ولا كتابا إلا تصفح سینه وشینه و علم غثه وسمينه فلم يعجبه ممن سبقه إلا الآمدى في "الموازنة" وابن سنان الخفاجي "في سر الفصاحة" يقول في المثل السائر :

فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتباً وجلبوا ذهباً وحطباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت سینه وشینه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجي.^{٩٦}

^{٩٥} - المثل : ١/٣-٤

^{٩٦} - المثل : ١/٣-٤

ويصور لنا مدى ثقافته في البيان وطريق تحصيلها حتى اقتدر على اختراع طريقة عذراء واستخراج ضروب كثيرة من علم البيان من القرآن الكريم ومن نفسه ، يقول في الجامع الكبير بعد الكلام عن أهمية علم البيان :

" فشرعت عند ذلك في تطلبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه فلم أترك في تحصيله سبيلا الا نهجته ولا غادرت في إدراكه بابا الا ولجته حتى اتضح عندي باديه وخافيه وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين فيه كأبي الحسن على بن عيسى الرمانى وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدي وأبى عثمان الجاحظ وقدامة بن جعفر الكاتب وأبى هلال العسكري وأبى العلاء الغانمي وابن سنان الخفاجي وغيرهم ممن له كتاب يشار اليه وقول تعقد الخناصر عليه".^{٩٧}

ولقد مر بنا القول في أن ضياء الدين كان من أقطاب النزعة الأدبية فطبيعي أن يكون الطابع الغالب على كتبه هو الطابع الأدبي فلذلك يكثر في كتاباته من ذكر الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث والشعر الحسن الذي اختاره من دواوين الشعراء ومن كتب البلاغة والأدب. وكان ضياء الدين بعيدا عن أساليب الفلسفة في منهج بحثه وتأليفه وطريقة عرضه للموضوعات وكان موقفه من الفلاسفة موقف العداوة والبغض يبدو ذلك في ثنايا كتابه في مواضع متفرقة في المثل السائر فهو يرى رجال الفلسفة أمثال ابن سينا والفارابي رجالا مغرورين أضلهم أرسطو وأفلاطون كما مر ونذكر هنا الحوار التي وقع بينه وبين فلسفي في آية من القرآن الحكيم نستطيع بها فهم مقدار غيظه من الفلاسفة إذ يقول : حضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم فأخذت في وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأي فصاحة هناك وهو يقول : تلك إذا قسمة ضيزى ؟ فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف ؟ فقلت له : اعلم أن لاستعمال الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا والفارابي ولا من أضلهم مثل أرسطو طاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن

وهى لفظة ضيزى فإنها فى موضعها لا يسد غيرها مسدها ألا ترى ان السورة كلها مسجوعة على حرف الياء ، وإذا جننا بلفظة فى معنى هذه وقلنا قسمة جائرة لم يكن النظم كالنظم الأول ، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام.^{٩٨}

ويبدو عداءه للفلاسفة ومن تبعهم فى ثنايا كتابه فى مواضع شتى كما مر آنفا فهو حينما يرمى أبا العلاء الذى يتبع الفلاسفة بعمى البصيرة والبصر ، وحينما ينفى أن يكون الشعراء والكتاب المحدثون كأبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى والمتنبى وكعبد الحميد الكاتب و الصابى قد اطلعوا على شئ من علوم اليونان وفلسفتها ، وحينما يذم الشفاء لأبن سينا بكلام يدل على جهله بالكتاب قال ضياء الدين فى المثل السائر وهو يتكلم عن المعانى الخطابية :

وهذا شئ لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ابن الوليد ولا ابو تمام ولا البحتري ولا ابو الطيب المتنبى ولا غيرهم وكذلك الحكم على أهل الكتابة كعبد الحميد والصابى ، فإن ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك فى الجواب : هذا باطل بى أنا ، فإنى لم أعلم شيئا ما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا وانساق الكلام الى شئ ذكر لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر وذكر ضربا من ضروب الشعر اليونان يسمى اللاغوزيا وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى على ووقفنى على ما ذكره فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طول وعرض كأنه يخاطب اليونان وكل الذى ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا.^{٩٩}

ولكن منهجه وبحثه على المنوال الأدبى لم يسيطر على دراسات البلاغة المملوءة بالنزعة الكلامية فى تلك الحقبة، فلقد ذاع مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦) واهتم به الناس وتدارسوه ولخصوه وانتشر المصباح لبدر الدين بن مالك الجنى ، و الايضاح والتلخيص للقرظينى وعروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح للسبكي ، والإيجاز فى دراية الإعجاز

^{٩٨} - المثل ١٠٦/١

^{٩٩} - المثل ٣١١ / ٢

للرازي وغيرها ، فكانت البلاغة للسكاكي واصحابه الذين سادوا نزعة المتكلمين ومدارسهم وما زالت كتب تلك النزعة تدرس في المدارس والكليات.^{٩٩}
أما كتب المدرسة الأدبية والتي من زعمائها ضياء الدين بن الأثير فلم تحظ بالعناية إلا في السنوات الأخيرة^{١٠٠}

الفنون البلاغية التي وردت في المثل السائر :

وقد مر بنا القول في أن ضياء الدين جعل كتابه في مقدمة و مقالتين أما المقدمة فقد بين فيها عشرة فصول ، وهو ١- في موضوع علم البيان ٢- وفي آلاته وأدواته ٣- وفي الحكم على المعاني ٤- وفي الترجيع بين المعاني ٥- وفي جوامع الكلم ٦- وفي الحكمة التي هي ضالة المؤمن ٧- وفي الحقيقة والمجاز ٨- وفي الفصاحة والبلاغة ٩- وفي أركان الكتابة ١٠- وفي الطريق الى تعلم الكتابة .

وأما المقالتين فتكلم في أولاهما عن الصناعة اللفظية وفي ثانيتهما عن الصناعة المعنوية ويقسم المقالة الأولى الى قسمين أساسيين ، القول في اللفظة المفردة وشروط فصاحتها ، والقول في شروط الألفاظ المركبة .

تحدث في فصل اللفظة المفردة عما يحتاج اليه الكاتب في تأليفه فذكر ثلاثة أشياء وهي :
أ- اختيار الألفاظ المفردة ، وحكمها حكم الآلي المبددة ، فلإنها تتخير وتنقي قبل النظم.
ب- نظم كل كلمة مع اختها المشكلة لها ، لئلا يجئ الكلام قلقا نافرا عن مواضعه.
ج- معرفة الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه.

وتكلم في الألفاظ المركبة عن ثمانية أنواع يعدها ضياء الدين ويحددها ويسأتي لها بالأمثلة والشواهد من كتاباته وكتابات غيره من علماء البيان ، أما الأنواع الثمانية فهي : السجع في المنثور ، والتصريع في المنظوم ، والتجنيس والترصيع ، والموازنة في المنثور ، والمعاظلة اللفظية ، ولزوم ما لا يلزم ، واختلاف صيغ الألفاظ ، واتفاقها في الشعر والنثر.

^{٩٩} - مجلة المعلم الجديد : ٢١ / ٦٤٢ وزارة المعارف في جمهورية العراق عام ١٩٥٩م

^{١٠٠} - أحمد مطلوب: مجلة المعلم الجديد: وزارة المعارف في جمهورية العراق: ص ٦٤٦ المجلد ٢١ عام ١٩٥٩م

يتناول هذه الأنواع واحدا بعد واحد تفصيلا ويستمر في عرض الموضوعات فيختتمها بالحديث عن عيوب التأليف كالمعازلة ، فيناقش آراء سابقيه فيها ويقسمها الى نوعين : معازلة اللفظية ومعازلة معنوية ، ويبين أن المنافرة أو التنافر قريب من المعازلة المعنوية ولكن علماء البيان لم يحقق القول فيه بالتفصيل بل خلط هذا النوع بالمعازلة مع أن كل منهما نوع منفرد برأسه له حقيقة تخصه ، الا أنهما قد اشتبهتا على علماء البيان فكيف على جاهل لا يعلم ؟

أما المقالة الثانية : فيتناول فيها الصناعة المعنوية و ينتقل من أبواب المعاني الى أبواب البيان وقد قسمها إلى قسمين : الأول في الكلام على المعاني مجملا ، والثاني في التفصيل ما أجمله ويقدم لها بمقدمة تناول فيها معاني الخطابة والشعر والكتابة وعرض لما بين الطبع والكسب وما اذا كان العرب قد أفادوا من كتب اليونان وأشار الى المعاني المبتدعة والمعاني المقلدة وذكر أمثلة من الشعر ومن كتبه ورسائله ثم انتقل الى أبواب هذه المقالة فتحدث عن الاستعارة وأقسام المجاز وأورد أمثلة كثيرة ثم تحدث عن التشبيه والتجريد ، والنفي والإثبات ، والتقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، والتكرار والإعتراض ، والكناية والتعريض ، والمغالطات المعنوية ، والأحاجي ، والإلتفات ، و توكيد الضميرين ، وعطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده ، وعكس الظاهر ، والإستدراج ، والمبادئ والإفتتاحات ، والخطاب بالجملة الإسمية والفعلية والفرق بينهما ، وقوة اللفظ لقوة المعنى ، و التفسير بعد الإبهام ، والحروف العاطفة والجارة ، والتخلص والإقتضاب ، والتناسب بين المعاني ، والإشتقاق والإرصاد ، ، الإقتصاد والتفريط والإفراط ، والمطابقة ، والمقابلة ، والتضمين ، والتوشيح ، والسرقات الشعرية وما الى ذلك وضمن كلا من هذه الأنواع فروعاً وأقساماً وقواعد ونظريات وتحدث عن كل نوع منها حديثاً مستفيضا .

لم يذكر ضياء الدين ما نقله من هذه المباحث من السابقين وما اخترعه هو ولكن بمراجعة المقدمة والمقالتين وبالرجوع الى الكتب المصنفة قبله لاحظنا أنه تكلم في اشياء لا يعددها

علماء البيان من الفصاحة ولا البلاغة ولا البديع ، كالإشتقاق و التضمين العروضي و بعض آلات علم البيان وأدواته ك معرفة الأحكام السلطانية - الإمارة والإمامة والقضاء والحسبة وغيرها - وأركان الكتابة وطريقها وعلم العروض والقوافي والعام في النفي والخاص في الإثبات وتوكيد الضميرين وعطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده والحروف العاطفة والجارة والمنافرة بين الألفاظ ، والتجريد وقوة اللفظ لقوة المعنى والمغالطات المعنوية والإرصاد والخطاب بالجمليتين والإلتفات وما الى ذلك ، على أن ما استقل به يمكن أنه ابتدعه و قد يكون أخذه من كتب لم نقف عليها الآن والله أعلم بالصواب وعلمه أتم .

وكتابه الجامع الكبير في صناعة الكلام من المنظوم والمنثور شبه المثل السائر لإتحادهما في الموضوع والمنهج حتى قال الدكتور محمد زغلول سلام : الجامع الكبير صنو المثل السائر وظله ، ورجح القول بأسبقية الجامع الكبير في التأليف لأن المثل السائر أكثر اكتمالا و أتم نضجا للموضوع^{١١٢}

يقول ضياء الدين في مقدمة الجامع الكبير عن سبب تأليفه هذا الكتاب : لمحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء طريفة ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتا دقيقة لطيفة لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته وخلاصة هذا العلم وزيدته فحيث أحرزت هذه الفضيلة وحصلت عنده هذه العقيلة أحببت أن أفرد لها كتابا وأفضلها فيه أقساما وأبوابا ليكون مقصورة على شوارد هذا العلم وغرائبه ورموزه الخفية وعجائبه وليجعله مؤلف الكلام رأس بصناعته ويعلم به مواقع الصواب في صناعته.^{١١٣}

وكلا الكتابين متحدان في الغرض متماثلان في غالب الأبواب الا أن بينهما فرقا في الأسلوب كما قلنا ، فأسلوب الجامع هادئ ينقل عن تقدمه من علماء البيان ويشير إلى

^{١١٢} - ضياء الدين وجهوده في النقد : محمد زغلول سلام ١١٠٠

^{١١٣} - مقدمة الجامع الكبير ٢٠

مواطن النقل في أكثر الأحيان وقد يجادل في الرأي جدالا هادئا وهذا ما لانراه في المثل السائر إذ قلما نراه يشير فيه الى رأى وهو لا يحاول تفنيده أو النيل من صاحبه.^{١٠٣}

و البحث في المثل أتم ومقاصده أوضح من الجامع وسلك في المثل مسلك تربية الذوق والتمرس بالصناعة وتطبيق القواعد والمسائل الأدبية على مثالها وشواهدا حتى يكتسب مزاوله أدب الكتابة والشعر ، وسلك في الجامع طريقة ضبط القواعد وتزويد عقول مزاولي هذه الصناعة ، فالمثل السائر يفيد الصناعة العلمية والجامع الكبير يفيد الصناعة النظرية ، ومن الفروق الهامة بين الكتابين هو خلو الجامع الكبير من شواهد المؤلف من رسائله أكثر من الإستشهاد بها في المثل السائر.^{١٠٤}

وأما سبب رواج المثل السائر وخمول الجامع الكبير فقد قال فيه الدكتور محمد الطاهر بن عاشور: إن ما تضمنه المثل السائر من ذكر النكت الأدبية والنوادر السلطانية ومجاذبة البحث مع علماء الأدب - مسح على الجامع الكبير مسحة من حسن كتب المحاضرات والأمالى وذلك مما يروق للمطالع ويشوقه الا انه يشئت على الناظر ارتباط مسائله وأخذ بعضها بحجز بعض ولو اقتصد في كثير من نقده على علماء الأدب وأهله فإن كثيرا من حجاجه محل نظر على إعجابه بأنظاره و المثل السائر أمتع للناظر والجامع الكبير أجمع للخطر ، وكلاهما لا بد منه ولا غنى للأديب عنه.^{١٠٥}

الفنون البلاغية التي وردت في الجامع الكبير:

وأما الكتاب أى الجامع الكبير فقد جعله على مقدمة و قطبين والمقدمة هنا شبيهة بمقدمة المثل السائر بين فيها فضل علم البيان ثم ذكر عن الكتب المؤلفة قبله وما استفاد منها ثم بين عما اضافه هو اليها من إبتداعاته ثم انتهى من المقدمة الى القول في القطبين .

^{١٠٣} - عز الدين التنوخى : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق: ٦٦٧/٣٥ عام ١٩٦٠ م

^{١٠٤} - محمد الطاهر بن عاشور : مجلة المجمع العلمى العربى : ٦٧٤/٣٦ عام ١٩٦١ م

^{١٠٥} - نفس المصدر : ٦٧٥/٣٦

والقطب الأول هنا يدور ما دارت فيه مقدمة المثل السائر ولكنه ذكر فيه أربعة فصول وهي: فى آلات التأليف وأدواته ، والطريق الى صناعة النظم والنثر ، والحقيقة والمجاز ، وفى الألفاظ المفردة والمركبة ، ثم تفصيل الكلام فى المنظوم والمنثور و استقل الكلام فى كل قسم منها بباب خاص .

وذكر فى القطب الثانى فنين ، الفن الأول فى الفصاحة والبلاغة والفن الثانى فى ذكر أبواب البيان و ذكر فى الفن الثانى بابين الأول فى الصناعة المعنوية فتكلم فيه عما تكلمه فى المقالة الثانية فى المثل السائر ، والباب الثانى فى الصناعة اللفظية فتحدث فيه عما أورده فى المقالة الأولى فى المثل السائر .

ويحوى الباب الأول تسعة وعشرين نوعا من علم البيان وهى : الإستعارة والتشبيه ، وشجاعة العربية ، والإيجاز والإطناب ، وتوكيد الضمير المتصل بالمنفصل ، والكناية والتعريض ، واستعمال العام فى النفي والخاص فى الإثبات ، والتعقيب المصدري ، والتقديم والتأخير ، وعطف المظهر على المضمّر ، والتخلص والإقتضاب ، والمبادئ والإفتتاحات ، وقوة اللفظ لقوة المعنى ، وخذلان المخاطب ، والإشتقاق ، والحروف العاطفة والجارة ، والتكرير ، وتناسب المعاني من المقابلة ، والتقسيم والتفسير ، والخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الإسمية ، والتوكيد بلام التوكيد ، والإقتصاد والإفراط والتفريط ، والمعاظلة ، والتضمنين ، والإستدراج والإرصاد والتوشيح ، والأخذ والسـرقة .

والباب الثانى يشتمل على سبعة أنواع وهى : السجع ، والإزدواج ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الألفاظ ، وتكرير الحروف .
يظهر لنا بعد مراجعة الكتابين أن كثير من هذه الأنواع ورد فى كليهما ولكن بعض من الأنواع ورد فى أحدهما ولم يرد فى الآخر فمما ورد فى الجامع الكبير ولم يرد فى المثل السائر : شجاعة العربية ، والتعقيب المصدري ، وخذلان المخاطب ، و لام التوكيد و المعاظلة اللفظية .

ومما جاء فى المثل السائر وليس فى الجامع الكبير : التجريد ، والإلتفات ، وعكس الظاهر ، والمغالطات المعنوية ، والأحاجي .

وكتابه كفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب "من أجل تأليف ضياء الدين فى فن البلاغة والبيان فقد بدأ فيه مستوعبا لفنون البلاغة مقتدرا على اختيار نماذجها الجيدة ، متحكما فى الصيغ البلاغية التى يقدمها فى كل باب ، فكان هذا الكتاب غاية فى باب البلاغة وقد اتجه فيه الى التسهيل والإبتعاد عن الحدة التى رأيناها فى المثل السائر . ألف ضياء الدين هذا الكتاب بعد المثل السائر لأنه انفرد بإيراد أبواب جديدة لم يتطرق إليها ، منها أبواب النسيب ، والمديح ، والإفتخار ، والرثاء ، والعتاب ، والهجاء ، والوعيد ، والإعتذار ، والوصف .

ويؤكد ما ذكره ابن معصوم فى أنوار الربيع حيث قال : قال ابن الأثير فى المثل السائر ... ثم يذكر أنه تراجع عن هذا رأى فى كفاية الطالب ... والمعروف أن ابن معصوم اعتمد على هذا الكتاب اعتمادا كبيرا ونقل منه صفحات كاملة كثيرة يمكن الرجوع إليها وفق الأجزاء وهى تقول حرفية.^{١٠٧}

الفنون البلاغية المذكورة فى كفاية الطالب

يضم كتاب كفاية الطالب واحدا وستين بابا من علم البلاغة والبيان العربى وهو كما يلى :

- ١- البديع ٢- البلاغة ٣- أدب الشاعر ٤- الإرتجال والبديهة ٥- الفواتح والخواتم ٦-
- النسيب ٧- المديح ٨- الإفتخار ٩- الإقتضاء ١٠- العتاب ١١- الوعيد والإنذار ١٢-
- الهجاء ١٣- الإعتذار ١٤- الرثاء ١٥- الوصف ١٦- الإختراع ١٧- الإشتراك ١٨- الموارد ١٩-
- السراقات ٢٠- المطابقة ٢١- التجنيس ٢٢- ماختلط فيه التجنيس والتطبيق ٢٣-
- الترديد ٢٤- التصدير ٢٥- المقابلة ٢٦- التقسيم ٢٧- التطريز ٢٨- التفويف ٢٩- المجاز ٣٠-
- الإستعارة ٣١- التمثيل ٣٢- المثل السائر ٣٣- التشبيه ٣٤- المذهب الكلامى ٣٥-

التشكيك ٣٦- الإشارة ٣٧- التجاوز ٣٨- المساوات ٣٩- التذييل ٤٠- التسهيم ٤١-
التفسير ٤٢- النفي ٤٣- القسم ٤٤- الهزل الذى يراد به الجد ٤٥- الإستطراد ٤٦-
التفريع ٤٧- الإلتفات ٤٨- الإستثناء ٤٩- التتعيم ٥٠- نفي الشئى بإيجابه ٥١- السلب
والإيجاب ٥٢- العكس والتبديل ٥٣- المبالغة ٥٤- الإيغال ٥٥- الغلو ٥٦- الحشو ٥٧-
الإستدعاء ٥٨- الإطار ٥٩- التكرير ٦٠- التضمين ٦١- عيوب الشعر.

فهذه أبواب الكتاب تقرب فى نماذجها من كتب الإختيارات وخاصة ما جاء منها فى
أبواب المعانى لأنه اختيار من الأبيات السائرة والشواهد المعروفة ما وضع الكتاب فى
مضاف تلك الإختيارات ويضع فى الكتاب قواعد أخلاقية وخلقية للشاعر تتصل بسلوكه
النفسى وعلاقته الإجتماعية ليكون وجها من الوجوه أو نموذجا من النماذج وقد حاول أن
يحدد خصائص لكل غرض وضوابط لكل فن من فنون الشعر يناسب معه.

هكذا اقتحم ضياء الدين ميدان البلاغة والبيان فساهم مساهمة فعالة فى ابتداء فنونها
واختراع أنواعها واجتهاد مسائلها كما مرت بنا لمحات تلك المساهمة ودراسة آثاره فى
الصفحات الماضية فنستطيع بها أن نحدد مقدرته فى البلاغة والبيان.

ضياء الدين ابن الأثير ناقدًا

إن الحياة الأدبية عند العرب قد بلغت ذروتها فى النضج والتكامل فى سائر نواحيها فى
القرنين السادس والسابع فبلغ فن الشعر أقصى غاياته من حيث تنوع الأغراض والفنون
ومن حيث الصور والأساليب وكذلك النقد العربى ارتقى ارتقاء مفرطاً لا حد له حتى تغيرت
أوضاعه وتعددت مظاهره فوضعت له قواعد دقيقة وقوانين منظمة وجرد من تأثير العصبية
والأهواء والثورات العاطفية واعتمد على الشعور الهادئ والتحليل والبرهان وتعليل الظواهر
الأدبية وارجاع كل شئى الى أصل وسبب.

وكان هناك طائفة من النقاد عادت الى تراث العربية فألفوا كتباً فى النقد الأدبى ومناهجه
من وجهة نظر السابقين وبذلوا جهوداً مشكوراً فى استخلاص مقائيس النقد الأدبى من

تأثرات العصبية والأهواء وتغيير أوضاعه عن مظاهره السالفة فاعتمدوا على البراهين والشعور الهادئ والطبع والذوق السليم.

فقد اضطلع بالتأليف جماعة من النقاد فى دراسات النقد والنقاد السابقين منهم سالم بن أحمد بن أبى الضفر اليمنى المتوفى ٦١٠هـ فى نقد الشعر ، واسامة بن منقذ فى البديع فى نقد الشعر، وابن أبى الأصبع فى تحرير التحبير وبدائع القرآن، وابن عصفور فى السرقات الشعراء، وابن الدهان فى المآخذ الكندية من المعانى الطائفة وغيرهم.

وكان ضياء الدين ابن الأثير من أولئك النقاد الذين وضعوا اللبنة فى هذا الصرح العتيد، وكتابه " المثل السائر" من أجمع المؤلفات النقدية فى عصره لأصول النقد والبلاغة حتى ليعد خلاصة ذكية لا تخلو من إصالة لدراسات النقد والبلاغيين السابقين ، أفاض فيه بكثير من الآراء والأفكار الحرة فى الأدب والأدباء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربى بالأجلال والإكبار.

يقول ابن أبى الأصبع فى تحرير التحبير: تأثر نقده بثقافته الجامع وخاصة فى علوم القرآن والسنة والبيان وقد علق فى البيان بكثير مما كتب العلماء السابقون.... ولم ينزل أحد ممن عاصره من علماء البيان من نفسه منزلة ضياء الدين فقد ورد ذكره له مقرونا بالثناء مقدار حق قدره معتبرا لآرائه مقدما لها وإن اختلف وإياه أحيانا فى مواضع".^{١٠٨}

ويقول أنيس المقدسى: ومما لا ريب أنه من طبقة البارزين من الأدباء القدامى، يكتفى ان نذكر له كتابه المشهور " المثل السائر " فهو من أهم الكتب القديمة التى صنف فى البلاغة والنقد الأدبى ولا نبالغ إذ قلنا إن ابن الأثير كان فى هذا الكتاب آخر حلقة من السلسلة العظيمة التى انتظمت قدامة بن جعفر فى نقد الشعر و ابا هلال العسكري فى الصناعتين و ابا الحسن الجرجاني فى الوساطة و عبد القاهر فى أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز وابن رشيق فى العمدة وابن سنان الخفاجى سر الفصاحة و سواهم من كبار النقاد والبلاغيين

" ١٠٩

تميز ضياء الدين عمن مارس النقد فى عصره من النقاد حين يجعل أهم غاية لديه هي إبراز دور الناقد القدير فى تعليم البيان من خلال التطبيق الذى أجراه على نماذج من نثره أولا

^{١٠٨} - ابن أبى الأصبع : تحرير التحبير: ص ١١

^{١٠٩} - أنيس المقدسى : مقدمة رسائل ابن الأثير ص ٩

ثم على نماذج من نثر الآخرين أو شعرهم ، فهو لا يكتفى بحكم المعرفة فحسب بل يكبر حكم الذوق السليم الذى يراه أكبر من حكم القواعد الموضوعية يقول فى المثل السائر :
 "إعلم أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذًا ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك ، هذا.. ! فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول إمكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلبا فإن حمل النصال غير مباشرة للقتال ، وملاك صناعة المنظوم والمنثور الطبع فلا تغنى الآلات شيئا اذا لم يكن للمرء ثم طبع لها وهذا هو السبب الذى نراه أن صاحب الطبع فى المنظوم يجيد فى الهجاء دون المدح أو فى المدح دون الهجاء".^{١١٠}

ففى هذه العبارة خير توضيح لما للموهبة الفطرية والذوق السليم من أهمية فى النقد الأدبى وفيها لباقة الناقد البصير الرصين الذى لا ينطق بالحكم الا إذا كان قوى الصدع كفيلا بالإقناع .

ومما يدل أن نقده كان نقدا تطبيقيا هو أنه يرسل نظر الناقد الخبير فيوضح مواطن القبح والجمال ويورد طائفة من الآثار الأدبية فيبدى رأيه فيها ويحاول إصدار أحكام على الأدباء وعلى إنتاجهم على أساس بعض ما ألفه ، بصرف النظر وراءه مما قد يكون الأديب قد أحسن فيه أو أساء ، مثلا تحدث فى فصل تنافر الحروف عن شعر إمراء القيس فبين موضع القبح فيه ثم أوضح طريقة التجنب عنها بتقديم عدة الألفاظ بنفس المعنى واللفظ فإنه يقول :

ومما يدخل فى هذا الباب أن تجتنب الألفاظ من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة او قصيرة ، ومثال ذلك قول إمراء القيس فى قصيدته اللامية التى هى من جملة القصائد السبع الطوال :

غداثره مستشزرات إلى العلا * تضل العقاص فى مثنى ومرسل

فلفظة مستشزرات مما يقبح استعمالها لأنه تثقل على اللسان ويشق النطق بها وإن لم تكن طويلة لأننا لو قلنا مستنكرات أو مستنفرات على وزن مستشزرات لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة ، ولربما إعترض بعض الجاهل في هذا الموضع ، وقال إن كراهة هذه اللفظة إنما هي لطولها ، وليس الأمر كذلك فإننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزركان ذلك الثقل أيضا وسببه أن الشين قبلها ، تاء " وبعدها ، زاء " فتثقل النطق بها والا فلو جعلنا عوضا من الزاء راء ومن الراء فاء فقلنا مستشرف لزال ذلك الثقل.

لقد رآني بعض الناس وأنا أعيب على امرء القيس في هذه اللفظة المشار اليها فأكبر ذلك لوقوفه مع شهرة التقليد في أن امرء القيس أشعر الشعراء فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة وقلت له لا يمنع إحسان امرئ القيس من إستقباح ما له من قبح.

وإذا أنعمنا النظر في نقد ضياء الدين في هذه العبارة نلمس الروح العلمية عنده لأنه يقوم بتقديم مثال من شعر امرئ القيس فيبين موطن النشوز والثقل فيه ثم يوضح طريقة التجنب بتقديم عدة ألفاظ بنفس المعنى والوزن ثم يعمد طريقة الجدل فيفترض أمامه خصوما يعترض عليه في ما يقول فيفصل اعتراضه وحجته ثم ينقض حجته بحجة أقوى منها ، وبعد رد الإعتراض يعلن طريقة التي يناهض فيها أرباب القديم الذين يقدسون ذلك القديم ويكبرون كل انتقاد يوجهه الى شاعر أو كاتب عاش في الجاهلية أو العصور الأولى للإسلام ، فالنقد لا يميز بين القديم والمحدث ولا يتغاضى عن قبح بمجرد أنه قديم ولا يخضع للتقليد لمجرد أنه تقليد".^{١١١}

وقد مر بنا القول أن ضياء الدين قرأ كثيرا من الشعر واطلع على كثير مما ألف في النقد والبلاغة ثم انهمك من خلال ذلك في شق طريق في الترسل محاولا أن يتفوق على القاضي الفاضل معتقدا نفسه أحق برئاسة ديوان الإنشاء لدى السلطان صلاح الدين فعمد لفتا لنظر السلطان و ذوى الأمر الى معارضة الفاضل في رسائله فاذا أنشأ الفاضل رسالة أنشأ مثلها يقول ابن خلكان : فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات ومجاولات^{١١٢}

وقد وصلنا من هذه المعارضة شيئ غير قليل في رسائله المنشورة وفي المثل السائر وهناك نقد الفاضل مثلا يقول: وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم على البيساني رحمه الله عن

^{١١١} - حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي ٦٥٣: دار الجيل بيروت ١٩٨٦م

^{١١٢} - ابن خلكان : ٣١/٥

الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى ديوان الخلافة ببغداد فى سنة ٥٧١ هـ وضمنه ما أبلاه فى خدمة الدولة من فتح الديار المصرية و محو الدولة العلوية وإقامة الدعوة العباسية و شرح فيه ما قاساه فى الفتح من الأهوال ، فقال ضياء الدين فى نقده : ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه الخطابة حقها الا انه اخل بشئ واحد وهو أن مصر لم تفتح الا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات وكان الفتح فى المرة الثالثة و هذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ... وقد سألتنى بعض الإخوان أن أنشئ فى ذلك كتابا الى ديوان الخلافة معارضا للكتاب الذى كتبه عبد الرحيم رحمه الله فأجبتة الى سؤاله وعددت مساعى صلاح الدين يوسف ابن ايوب ... الى أن قال وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدمه فى فن الكتابة بأنه كيف فاتته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه^{١١٣}

وقد رفض رأى ابى اسحاق الصابى فى التفرقة بين الكتابة والشعر وكانت تلك التفرقة تقوم فى جانب منها على ان الشعراء يشغلون انفسهم بالوصف والحنين والغزل والمدح والهجاء وان المترسلين يكتبون فى موضوعات اخرى مثل اصلاح فساد او تحريض على جهاد فرد ضياء الدين هذا رأى و أنكره أشد انكار يانه لا فرق بين الشعر والنثر فى الموضوع قائلا: وأى فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام ؟ فكما أن الشاعر يصف الديار والآثار ويحن الى الأهواء والأوطار فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق الى الأوطان ومنازل الأحباب والإخوان^{١١٤}

الفرق بين الشعر والنثر:

لكن الشعر والنثر لا يتطابقان تمام التطابق ولا يتماثلان معاملة كلية بل يبقى بينهما فرق يسير و مسافة صغيرة :منها أن المعانى فى الشعر أغزر والسر فى ذلك ليس قصور النثر عن ذلك وانما لأن الشعر كان أغلب على العرب على مر الزمان فأودعوه كل المعانى^{١١٥} ولهذا صح لمن يريد اجادة النثر أن يدرس الشعر اولا لكى يهتدى الى المعانى التى ينثرها ويحلها فى رسائله وانشائه ، كذلك فان الشعر قد يتقبل الغريب الحسن من الألفاظ ،

^{١١٣} - المثل السائر : ٤٥/١ - ٤٧

^{١١٤} - المثل السائر : تع على الدين : ٢ / ٤١٦

^{١١٥} - نفس المصدر : ١ / ١٣٧

بينما تجئ تلك الألفاظ نفسها نابية في النثر^{١١٥} ، وإن الشاعر إذا أراد أن يشرح امورا متعددة ومعانى مختلفة في شعره احتاج الى الإطالة ، وقد ينظم مأتى بيت أو أكثر ثم لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير بل فى جزء قليل والكثير ردئ غير مرضى ، أما الكاتب فلا يؤتى من قبل ذلك بل يطيل فى الكلام الواحد عشر طبقات من القراطيس ثلاثمئة أو أربعمئة أو خمسمئة سطر وهو مجيد فى ذلك كله^{١١٦}.

المقارنة بين شعر العربى والشعر الفارسى :

ومن هنا يعرض لمقارنة طريقة بين الشعر العربى و الشعر الفارسى فيقول: وعلى هذا فانى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار اليها ، فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من اوله الى آخره شعرا و هو شرح قصص و احوال و يكون مع ذلك فى غاية الفصاحة و البلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه^{١١٧} و هو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس و هو قرآن القوم ، وقد اجمع فصحاءهم على انه ليس فى لغتهم افصح منه و هذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها و تشعب فنونها واغراضها وعلى ان لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر^{١١٨} وقد صاغ قاعدة عامة للفروق بين النثر والنظم بقوله : فاعلم ان كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم وليس كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم يسوغ استعماله فى الكلام المنثور وذلك شئى استنبطه واطلعت عليه لكثرة ممارستى لهذا الفن و لأن الذوق الذى عندى دلنى عليه^{١١٩}

تكلم ضياء الدين عن عناصر الشعر والنثر والفرق بينهما أكثر من مرة الا أنه أفرد الكلام عنهما فى خاتمة المثل السائر فقد ذكر هناك أن المنثور اشرف من المنظوم لأن الإعجاز يتصل به وأن اسباب النظم أكثر، وأن الكاتب أحد دعامتى الدولة فان كل دولة لا تقوم الا على دعامتين من السيف والقلم ، وربما لا يفتقر الملك فى ملكه الى السيف الا مرة او مرتين أما القلم فانه يفتقر اليه على الأيام و كثيرا ما يستغنى به عن السيف^{١٢٠}

^{١١٥} - نفس المصدر: ١٦٦/١

^{١١٦} - نفس المصدر: ٤١٦/٢

^{١١٧} - المثل السائر : ٢ / ٤١٩

^{١١٨} - نفس المصدر: ١٦٨/١

^{١١٩} - نفس المصدر: ٤١٣/٢

ويعترض على الصابي مرة أخرى في حديثه عن الشعر و تميزه اياه بالغموض المحبوب دون النثر معللا في ذلك بان الترسل هو ما اعطاك سماعه في اول وهلة ما تضمنته الفاظه وافخر الشعر ما غمض فلم يعطيك غرضه الا بعد معاطلة وان الشعر بنى على حدود مقررة واوزان مقدرة وفصلت ابياته فكان كل بيت منها قائما بذاته وغير محتاج الى غيره الا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب فلما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه احتيج الى ان يكون الفضل في المعنى فاعتمد أن يلفظ و يدق والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريقة اذا كان كلاهما واحدا لا يتجزأ^{١٢٠}

اعترض ضياء الدين على رأى الصابي هذا ويفند مسألة الغموض اذ يرى أن الأحسن في الشعر والنثر انما هو الوضوح والبيان^{١٢١}

اللفظ والمعنى :

اهتم ضياء الدين بالمعاني أكثر مما اهتم بالألفاظ فانه سحب ايثاره للمعنى على تاريخ الأدب العربي كله فتصور ان العرب كانت دائما تهتم بالمعاني وان الإهتمام بالألفاظ انما يدل على تقدير للمعنى يقول : اعلم ان العرب كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعاني اقوى عندها واكرم عليها واشرف قدرا في نفوسها فاول ذلك عنايتها بالألفاظ لأنها لما كانت عنوان معانيها و طريقها الى اظهار اغراضها اصلحها وزينوها و بالغوا في تحسينها ليكون ذلك اوقع لها في النفس وان هب بها في الدلالة على القصد فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظهم و حسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا اطرافها فلا تظن ان العناية اذ ذاك انما هي بألفاظ فقط بل هي خدمة منهم للمعاني^{١٢٢}

وقد أدته عنايته بالمعاني إلى أن صنف رسالة في المعاني المبتدعة كما يقول : و قد صنفت كتابا وسميته " بالرسالة في المعاني المبتدعة" وأشارت فيه الى المفاضلة بين الكلامين المختلفي المعنى و حققت القول في ذلك فليؤخذ من هناك^{١٢٣}

^{١٢٠} - نفس المصدر طبعة بدوى : ٢/ ٥٢-٥٣

^{١٢١} - المثل السائر طبعة عى الدين : ٢/ ٤١٥

^{١٢٢} - المثل السائر تج بدوى : ٢/ ٦٥-٦٦

^{١٢٣} - الإستدراك: ص ٦٠

وكذلك ألف كتاباً آخر فى المعاني سماه " عمود المعاني " يقول: وهكذا يجرى الحكم فى أعمدة المعاني وما يخرج من شعبها ، وقد ألقت فى ذلك كتاباً و سميته " عمود المعاني " وجعلته مقصوراً على ضروب المعاني الموجودة فى النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة وما يخرج عنها من الشعب ، وهذا كتاب تعبت فى تأليفه زمناً طويلاً وأنا ضنين به ^{١٢٥} يقول : اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدراً فى نفوسها ... فالعرب انما تحسن ألفاظها وتزخرفها عناية منها للمعاني التي تحتها فالألفاظ اذن خدم للمعاني ، والمخدوم أشرف من الخادم فاعرف ذلك وقس عليه ^{١٢٦}

النتائج التي ترتب علي تولعه بالمعاني :

وقد ترتب على تولعه بالمعاني نتائج هامة فى تقييمه الشعر والنثر منها أنه لم يرض بقبول المعنى العادي فإذا مر بمعنى عادى حاول أن يتسلط عليه تصويره فيبين ما عنده من المعنى الدقيق الموافق ليرفع مستواه كما هو شأنه لما وقع نظره على بيت المنخل :

ولقد دخلت على الفتاة * الخدر فى اليوم المطير

ناقش ضياء الدين لرجل قرأ الحماسة على شيخ من مشيخة علماء العربية بالعراق وسأله عن شرح أستاذه لهذا البيت ، فأخبره بشرحه - أنه دخل على هذه المرأة فى يوم يجنى فيه المطر فلم يعجبه وأخذ يعلق عليه قائلاً إن كان أراد هذا فقد خاب وخسر ، وإن كان ابو تمام فهم ذلك منه واختار فهو أخيب وأخسر ، فوجم الرجل وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه سائلاً ضياء الدين ما الذى عندك ؟ فقال : ان المنخل قد وصف نفسه بالشجاعة والإقدام وقوة الجنان ، فهو فى البيت يريد أن يقول : إنه بلغ من جرأته وشجاعته أنه دخل على المرأة وزوجها حاضر فى البيت ، فلم تحل مراقبة الزوج بينها وبينه ، ولم يمنعه من الوصول اليها خوف زوجها". ^{١٢٧}

لم يرض ضياء الدين فى معنى البيت أن يكون المقصود باليوم المطير محض اقتران دخوله على صاحبتة بيوم ماطر ، بل ذهب خاطره الى ما هو أعمق من ذلك ، فان اليوم المطير

^{١٢٥} - نفس المصدر : ١١-١٢

^{١٢٦} - المثل السائر : ٥٢/٢-٥٣

^{١٢٧} - الإستدراك : ٢٢-٢٣

يمنع الناس من السفر والنقل ولهذا أراد الشاعر أن يصور مدى جرأته بهذا البيت ويشير الى أنه دخل على تلك الفتاة وزوجها حاضر في البيت أما اذا كان يريد الشاعر محض نزول المطر فقد خاب وخسر.

الألفاظ خدم للمعاني وهي أشرف قدرا:

يقول :اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا في نفوسها ... فالعرب انما تحسن ألفاظها وتزخرفها عناية منها للمعاني التي تحتها فالألفاظ اذن خدم للمعاني ، والمخدوم أشرف من الخادم فاعرف ذلك وقس عليه".^{١٢٨}

المفاضلة بين الشعراء:

و يخرج من تولعه بالمعاني نظريته على جانب عظيم من الأهمية فى النقد العربي وهى المفاضلة بين الشعراء ، تلك هي نظرية شغل بها النقاد من قديم ، تفحص ضياء الدين دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين حيث لم يترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا عرضه على نظره^{١٢٩} فوجد موضوعات الشعر لدى الإسلاميين ثم لدى المحدثين من بعدهم أكثر اتساعا من موضوعات الجاهليين وأن المعاني لديهم أوفر وأغزر فاستقر رأيه على أن أعظم الشعراء العربية على الإطلاق هم ابو تمام و المتنبي والبحتري أما الأولان فبسبب المعاني واما الثالث فبسبب اللفظ ، فانهم عنده لات الشعر وعزاه ومنااته الذين ظهرت على ايديهم حسناته و مستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء ، و جمعت بين الأمثال السائرة و حكمة الحكماء : أما ابو تمام فانه رب معان وصيقل اذهان والباب وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذى برز فيه على الأضراب.

وأما ابو عبادة البحتري فانه أحسن فى سبك الألفاظ على المعاني وأراد أن يشعر فغنى ولقد حاز طرفى الرقة والجزلة على الإطلاق ، وأتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ من سلاله الماء فأدرك بذاك بعد المرام مع قربه الى الأفهام.

^{١٢٨} - المثل السائر : ٥٣/٢

^{١٢٩} - نفس المصدر : ٣٦٨/٢

وأما ابو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قيادة ما أعطاه لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ولا فيه متلثماً وذلك أنه اذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا و السلاحين قد تواملا ^{١٢٩}

ثم ارتفع أبو تمام من بين هؤلاء الثلاثة وقصر عنه المتنبي الا فى الحكم والأمثال والإبداع فى وصف مواقف القتال ^{١٣٠}

لقد كشفت لنا المفاضلة بين الشعراء عند ضياء الدين عن موقفه فى تفضيل الشعراء الإسلاميين على الجاهليين وبالتالى تفضيل فحول الشعراء المحدثين على الإسلاميين معتمدا على العناصر الفنية من حيث الصنعة المعنوية واللفظية وعلى العناصر الأخرى التى جعلها مقياسا لعمل عمله فى جهود الشعراء وانتاجهم كعنصر الزمن وعنصر العرف والعنصر الأخلاقى والإجتماعى، وقد قسم على أساس مقائيسه الفنية شعراء العرب القدامى ومحدثين الى طبقات جعل على رأسها ابا تمام و ابا الطيب المتنبي والبحتري ثم الفرزدق وجريرا والأخطل ثم من جاء من الشعراء المحدثين كأبى نواس و بشار بن برد ومن نحى نحوهم يقول: وقد كانت العرب الذين أنشأوا قول الشعر وابتدأوه وهم أهل الفصاحة والبلاغة طبعاً من غير تعلم يجيدون فى القليل من أشعارهم ، وهذا أمرؤ القيس وزهير والأعشى قد قيل انهم أشعر العرب ومع هذا فان الردئ من أشعارهم كثير وليته خرجوا كفافاً ، ومما أعجب منه انى وجدت الأئمة من علماء العرب يقفون مع تقدم الزمانى فى تفضيل الشعراء ويتركون النظر فى فضيلة أشعارهم ، وهم فى هذا بين أمرين : أما انهم لم يتحققوا معرفة البيان من الفصاحة والبلاغة ولا نقبوا عن أسرارهما اللفظية والمعنوية وأما انهم رأوا أن الفضيلة فى الزمن دون الفضيلة ، ونسوا قول النبى صلى الله عليه وسلم : نحن الآخرون السابقون ، أى نحن الآخرون زماناً ، السابقون فضلاً وهذا الحكم يقع فى كل من تأخر زمانه وتقدم فضله وكذلك أقول فى الشعر فان من المتأخرين من فاق الأولين ،

^{١٢٩} - نفس المصدر : ٣٦٩ / ٢

^{١٣٠} - نفس المصدر : ٣٦٩ / ٢

ثم يبين رأيه بصراحة وجرأة في ثوراته النقدية فيقول : والذى أدانى اليه نظر الإجتهااد دون التقليد أن جريرا والفرزدق والأخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية وبينهم أولئك فرق بعيد ، واذا أستفتيت قلت : ان ابا تمام والبحتري والمتنبئ أشعر من الثلاثة المذكورين أعنى جرير والفرزدق والأخطل ، وليس عندى أشعر منهم فى الجاهلية ولا فى الإسلام^{١٣١}

ثم تقدم موضحا نظريته فى المفاضلة على مشكلة الزمن وعلى عنصر المعانى فقال : لا شك أن امرأ القيس أو من كان فى طبقته ليس لأحدهم رأسان أو لسانان أو كان له أربعة أيد أو أربعة أرجل ان كان النظر انما هو الى تقدم الزمان فلا شك ان اولئك اشعر وان كان النظر انما هو الى الألفاظ والمعانى فلو عاش امرؤ القيس ثم مات ثم بعث من بعد ذلك لما أداه فكره الى تدقيق النظر فى هذا المعنى الذى أورده المتنبي فى هذا البيت :

لو قلت للذنف المشوق فديته * مما به لاغرته بفدائه.

ثم مضى فى تحدى امرئ القيس فى عدم الإتيان بالمعانى اللطيفة فى شعره كالذى أتى بها فى السيوف والخوف حيث يقول : ومن أين لإمرئ القيس لطافة خاطر يستخرج منه قول المتنبي فى السيوف والخوف ووصف الجيش مثل قول المتنبي شعر:

صدمتهم بخميس أنت غرتك * وسمهرته فى وجهه غمم

وكان أثبت ما فيهم جسومهم * يسقطن حولك والأرواح تنهزم

ثم يعلق على هذين البيتين بقوله " ولو لم يكن للمتنبي من شعره سوى هذين البيتين لأستحق بهما فضيلة التقدم على الشعراء^{١٣٢}

ويقول فى موضع آخر : والمنصف من علماء البيان المحققين منهم يعطى المتنبي حقه من الفضيلة ، وماذا يقال فى رجل خمسة أسداس العالم مجمعون على فضله وتقدمه وذلك انه جميع بلاد المشرق من اذربيجان والى حدود الصين لا يمارون فى انه اشعر الشعراء قاطبة و هذه البلاد أكثر من نصف المعمور من الارض واما باقى البلاد من المغرب والجنوب والشمال فان منهم من وافق المشاركة فى تفضيله على الشعراء قاطبة ومنهم من يسوى بينه وبين المجيدين من الشعراء ... وقد قيل ان اسير كتاب سار فى الأرض ديوان المتنبي وكتاب

^{١٣١} - الإندراك : ص ٢٤-٢٥

^{١٣٢} - الإندراك : ص ٢٥-٢٧

الحماسة وعلى ان ديوان المتنبي اسير لانه وصل الى قوم لا يعرفون العربية كالهند والروم وغيرهم .. وقد تأملت الأشعار بدويتها وقرويتها فلم أنتفع بشعر شاعر قديم أو حديث كما انتفعت بشعر ابي الطيب المتنبي رحمه الله^{١٣٣}

ويذكر رايه في بقية الشعراء فيعجب بجريز لتصرفه في المعاني وقدرته عليها حيث يقول:
وقد تأملت كتاب النقائص فوجدت جريرا رب تغزل ومديح وهجاء وافتخار وقد كسى كل معنى من هذه المعاني الفاظا لاثقة به و يكفيه من ذلك قوله :

وعاو عوى من غير شئ رميته * بفافية انفاذا تقطر الدما

وانى لقوال لكل غريبة * ورود اذا السارى بليل ترنما

وبعد ذكر هذه الأبيات يعلق عليها بقوله ولو لم يكن لجريز سوى هذه البيات لتقدم بها الشعراء^{١٣٤}

هكذا استحسن من شعراء المحدثين ابي نواس وبشار بن برد ومن شعراء العباسيين ابن الحجاج ولم يعجبه من ابن المعتز وابن وكيع وافراطهما في التشبيه،

السراقات الشعرية:

ومن تلك النتائج الهامة التى خرجت من تولعه على المعانى -السراقات الشعرية، وكثيرون من النقاد عرضوا لهذا الموضوع ولكن ضياء الدين ابن الأثير كان من أوضحهم وأقدرهم وأعلمهم بالأمر فقد أفرد للسراقات بابا موسعا يقع فى نحو ثمانين صفحة فى المثل السائر تناول فيه أهمية هذه الدراسة وطرقها وأقسام السراقات من نسخ وسلخ ومسح وكان كتابه الإستدراك محورا لبيان السراقات وكان نصيب ابن الدهان فيه وافرا لأنه صاحب الكتاب الذى يستدركه يقول: وكنت سافرت الى الشام سنة ٥٨٧ هـ ودخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط فى قصيدة أولها :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه"

ويزعمون أنه من المعانى الغريبة وهو:

أغار اذا آنست فى الحى أنة * حذارا عليه أن تكون لحبه "

^{١٣٣} - الإستدراك: ٣-٤

^{١٣٤} - المثل السائر : ٢ / ٣٩٩

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر ابى الطيب المتنبئى فى قوله :

لو قلت للدفن المشوق فديته * مما به لأغرته بفدائه "

وقول ابى الطيب ادق معنى وان كان قول ابن الخياط ارق لفظا ثم انى وقفت على مواضع

كثيرة من شعر ابن الخياط أخذها من شعر ابى الطيب المتنبئى^{١٣٦}

ولضياء الدين فى موضوع السرقات الشعرية كلام كثير تكلم عنها فى كتابيه الجامع الكبير

والإستدراك ويعد الأخير من كتبه هو العمدة فى آرائه فى السرقات وقد عد به من أعظم

النقاد العرب الذين درسوا السرقات دراسة خصبة مجدية وفصلوا القول فى ضروبها .

ويخرج من كلامه فى المفاضلة بين الشعراء وبينان منزلتهم التى اسبغها عليهم موقفه من

المتنبئى وابى تمام والبحترى وابن جنى وغيرهم فلم تمنعه من ان يذكر معايبهم ويتكلم عن

جيدهم ورديئه ويوجه النقد واللوم لهم كما رأيناه يذكر ردئ المتنبئى وردئ ابى تمام

والبحترى اللذين فضلهم على جميع الشعراء.

موقفه من أبى تمام ونقده:

ولقد مر بنا القول فى بيان المفاضلة بين الشعراء عن موقفه من ابى تمام حيث يقول: ان

جريرا والفرزدق والأخطل أشعر ممن تقد من شعراء الجاهلية ، وبينهم وبين أولئك فرق

بعيد ، وإذا استفتيت قلت : إن ابا تمام والبحترى والمتنبئى أشعر من الثلاثة المذكورين

وليس عندي أشعر منهم فى جاهلية ولا إسلام ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه و

مناته الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر ومستحسناته^{١٣٧}

ويرى أن أبا تمام هو إمام الناس شعرا و معرفة بالشعر وهو عنده أشعر من المتنبئى و سبب

تقديمه أنه رب معان وصيقل اذهان والباب فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذى برز فيه

على الأضراب ، وإذا وقف ناقد الشعر على الأبيات بجملتها رأى الجميع مختارا بديهة

النظر فاذا فكر وانعم النظر فى المأخوذ منها والمتروك علم حينئذ مقدار ما عند ابى تمام^{١٣٨}

ومع هذا فقد عاب أبا تمام قائلا: وأما ابو تمام فإني أذكر ما له من الردئ^{١٣٩} فيذكر له

شعرا :

^{١٣٦} - المثل السائر طبعة بدوى: ٢٢٣ / ٣ - ٢٢٤

^{١٣٧} - المثل السائر طبعة عى الدين: ٢٧٠ / ٢ و الإستدراك: ٢٥ و الوشى المرقوم: ١٠ و المثل السائر طبعة بدوى: ٢٢٦٣

^{١٣٨} - الإستدراك: ص ٢٢ و ١٩ و المثل السائر طبعة عى الدين: ٣٩٤ / ٢

أنت دلو وذو السماح أبو مو * سى قليب وأنت دلو القليب
 ويعيبه بقوله : وهذا البيت ردئ جدا ، ويكفيه من الردئ هذا البيت وحده ، وهو يقابل
 ردئ المتنبي كله ^{١٣٩}

ثم يعيبه مرة أخرى باضطراب معانيه و اعوجاجها كما فى قوله :
 ولو كان فى عاجل من آجل بدل * لكان فى وعده من رفته بدل
 فعلق عليه بقوله : وهذا من معانيه المضطربة المعوجة ، فان فى العاجل من الآجل ابدالاً
 كثيرة ، فان العاجل هو المطلوب المحبوب بل لو عكس المعنى لاستقام ^{١٤٠}
 ويذكر من معانيه أن أبا تمام كثيراً ما يورد الرذل السفاسف من الكلام فى مثل قوله :
 ما زال يهذى بالمكارم والعلا * حتى ظننا أنه محموم
 فقال فى نقده والله يعلم من المحموم المدح أم الشاعر ؟ وها هنا يطيف بى طائف
 التعجب ، فان مثل أبى تمام على ما كان عليه من الفصاحة طبعاً مع علمه و معرفته
 بالفصيح والأفصح من الكلام كيف يخفى عنه رداءة هذه الأبيات ، وانها فى أسفل سافلين
 وما أعرف عذراً أعتذر به عنه ^{١٤١}

و يرى أن أبا تمام كان يلجأ كثيراً الى الإسراف فى الصنعة مما يسلب كلامه الرونق يقول
 فى المثل السائر عند الكلام عن المطابقة : وقد أكثر أبو تمام من هذا فى شعره فأحسن فى
 موضع وأساء فى موضع ^{١٤٢}

هذا موقفه من أبى تمام الذى فضله على جميع الشعراء قاطبة فلا شك أنه صريح فى النقد
 و جرى فى إظهار ما له من معاييب و مساوي فكيف حاله اذا وصل الى من دونه ؟

موقفه من المتنبي ونقده :

ومما مر عرفنا عنه أن أبى الطيب المتنبي عنده ثانى هؤلاء الثلاثة منزلة وانه خاتم الشعراء
 فقد أعجب بدقيق معانيه فيقول : وأما أبو الطيب المتنبي فانه أراد أن يسلك مسلك أبى
 تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه من الشعر من قيادة ما أعطاه ولكنه حظى فى شعره

^{١٣٨} - الإندراك : ٤٤

^{١٣٩} - الإندراك : ٤٥

^{١٤٠} - الإندراك : ٤٧

^{١٤١} - الإندراك : ٤٧

^{١٤٢} - المثل السائر طبعة محى الدين : ٢ / ٢٨٢

بالحكم والأمثال واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال .. وهو وإن انفرد بطريق صار أبا
عذره فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره و على الحقيقة فإنه خاتم الشعراء^{١٤٣}
ويقول فى الإستدراك : والمنصف من علماء البيان المحققين منهم يعطى المتنبي حقه من
الفضيلة ، وما ذا يقال فى رجل خمسة أسداس العالم مجمعون على فضله وتقدمه وذلك أن
جميع بلاد المشرق من أذربيجان الى حدود الصين لا يمارون فى انه أشعر الشعراء قاطبة^{١٤٤}

ويذكر أبياتا من شعر المتنبي فيعلق عليه بقوله : ولو لم يكن للمتنبي من شعره سوى هذين
البيتين لاستحق بهما فضيلة التقدم على الشعراء^{١٤٥}
ويقول فى موضع آخر :إنى ما تركت ديوان فحل من الفحول العرب حتى طالعت فحفظت
منه شيئا فلم أجد لأحد منهم فى مراثى النساء ما يقرب من هذه الأبيات التى للمتنبي
وهى قوله شعر :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال

ولو كان النساء كمن فقدنا * لفضلت النساء على الرجال^{١٤٦}

ويسطر فى ذكر أمثلة لدقة المتنبي و لطافة معانيه حتى إذا وصل الى قوله :

أتراها لكثرة العشاق * تحسب الدمع خلقة فى المآقى

يقول : وهذا بمفرده يعدل دواوين كثيرة من الغزل ، ولو لم يكن للمتنبي غيره لكفاه^{١٤٧}
ومع ذكر مثل تلك المحاسن والفضائل للمتنبي يذكر ما له من جيد وردئ وينقده بجرأة
قائلا : ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى،وعين المعرفة التى ما ضل
صاحبها وما غوى وجدته أقساما خمسة خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره،
وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره ، و خمس من متوسط الشعر ، وخمس دون
ذلك، وخمس فى الغاية المتقهرة لا يعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها ولو لم يقلها أبو

^{١٤٣} - المثل السائر : ٢ / ٣٦٩

^{١٤٤} - الإستدراك : ٣

^{١٤٥} - الإستدراك : ٢٧

^{١٤٦} - الإستدراك : ٢٦

^{١٤٧} - الإستدراك : ٣٦

الطيب لوقاه الله شرها ، فانها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام
الأقوام^{١٤٨}

ويعيبه مرة أخرى بمثل ما عاب به أبا تمام ، فمن ذلك عدم وضعه المعانى فى مواضعها
مثل قوله شعر :

أذاق الغوانى حسنه ما أذقننى * و عف فجازاهن عنى بالصرم

وأسمع من ألفاظه اللغة التى * يلذ بها سمعى و لو ضمنت شتمى

فقال فى نقده : وهذا البيت فى هذا الموضع من الغث البارد ، لكن لو مدح بمعناه كاتب أو
شاعر فقيل إنه يسحر بحسن كلامه حتى لو هجا به لاستلذ المهجو هجاءه لكان واقعا فى
موقعه ... ثم يقول : وكم من شاعر يتناول معنى حسنا فيسئى الصنع فى تأليف ألفاظه والعبارة
عنه حتى يعد من معايبه".^{١٤٩}

موقفه من البحترى ونقده :

وهو ثالث الثلاثة الذين فضلهم على جميع الشعراء وهو صاحب الديباجة المشرقة والسبك
الرائق لما كان أبو تمام والمتنبى من أرباب المعانى يقول : فانه أحسن فى سبك اللفظ على
المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة فبينما يكون فى شظف نجد
اذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال أنا
وابو تمام حكيمان والشاعر البحترى ، ولعمرى إنه أنصف فى حكمه وأعرب بقوله هذا عن
متانة علمه فان أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ
من سلاله الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه من الأفهام وما أقول إلا أنه أتى فى
معانيه باختلاط الغالية ورقى فى ديباجة شعره الى الدرجة العالية^{١٥٠}

وقد عابه بمثل ما عاب به الأولين فمن ذلك عدم إحسانه فى التخلص وتقصيره بالإجادة
فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى مثل قوله فى باب التخلص : والشعراء متفاوتون فى هذا
الباب ، وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى
كالبحترى فان مكانه فى الشعر لا يجهل وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس

^{١٤٨} - المثل السائر : ط معى الدين : ٣٦٩/٢ و قريب من معنى هذه العبارة فى الإستدراك ص : ٤٤

^{١٤٩} - الإستدراك : ٤٤

^{١٥٠} - المثل السائر : ٣٦٩/٢

قربا ضوءها بعيدا مكانها وكالقناة لنا مسها خشنا سنانها ، وهو على الحقيقة قينة الشعراء فى الإطراب ، وعنقاؤهم فى الإغراب ، ومع هذا فانه لم يوفق فى التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا ، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئا مرضيا الا اليسير^{١٥٢}

موقفه من شراح الحماسة و نقدهم:

ويعيب شراح الحماسة وشروحهم فنراه يبدأ بإنكار فهمهم مستدلا على سوءه بما يعرضه من دلائل جهلهم وهذا يمثل صراعه مع اللغويين والنحويين فان طريقة فهمه للشعر تختلف عن طرق فهمهم فانه يرى فى الشعر شيئا آخر غير مجرد ألفاظ مرصومة وتراكيب نحوية وغريب أو وحشى وهو ما كان يراه اللغويون والنحويون يقول ضياء الدين : وعرض على بعض الإخوان ممن عنده فضيلة كتاب الحماسة وقد قرأه على شيخ من مشيخة علماء العربية بالعراق فأخذته إلى يدي و تصفحته فأول ما خرج منه القطعة الراهية للمنخل :

ولقد دخلت على الفتا * ة الخدر فى اليوم المطير

فسنح لى خاطري فى تلك الحال أنه أراد كذا وكذا ثم قنت لذلك الرجل: ما شرح لك شيخك من معنى هذا البيت فقال هذا معنى ظاهر لا يسأل عنه فقلت وما الظاهر ؟ فقال يرد أنه دخل على هذه المرأة فى يوم يجئ فيه المطر، فعابه ضياء الدين على هذا الشرح ولم يوافقه ثم ينقده بقوله: إن كان أراد هذا فقد خاب وخسر ، وإن كان أبو تمام فهم ذلك منه واختاره فهو أخيب وأخسر^{١٥٣}

ويقول أيضا ثم إنى تصفحت الكتاب فوقع نظري على أبيات أخرى فى عدة مواضع وسألته عنها فقال ما سألت شيخي عنها ولا هو قال فيها شيئا وصدق فى قوله فان شروح الحماسة التى فى أيدي الناس من شرح المرزوقى وشرح أبى زكريا وغيرهما لا يعرضون الى شئ من المعانى الدقيقة التى يسأل عنها وغاية ما عندهم أنهم يذكرون الإعراب ويفسرون الكلمة اللغوية والشعر ليس المراد منه ذلك فان الشاعر ما جلس يفكر ويدقق النظر فيما

^{١٥٢} - المثل : ٢٦٣/٢

^{١٥٣} - الإستدراك : ٢٣

يصنعه من المعانى ويختاره من صوغ الألفاظ من أجل كلمة لغوية يودعها فى شعره ولا من أجل تصحيح الإعراب وإنما مراده من الشعر أمر وراء ذلك كله ^{١٥٣}

موقفه من اللغويين والنحويين ونقدمهم :

اختلف ضياء الدين مع اللغويين والنحويين الذين يقيسون الكلام بمقاييس اللغة والقواعد فحسب وحمل عليهم بشدة وأكثر النقد واللوم بهم ، ولخلافه معهم أمثلة كثيرة كلها تدور حول محور واحد هو الذوق ومما لاحظناه من ذلك إعتراضه على أحمد بن يحيى بن ثعلب فى كتاب الفصيح فيقول : إنه عد كلمة إمة بالكسر من الفصيح وليست كذلك وإمة بالكسر ليست بحسنة واستعمالها قبيح ، ورأيت صاحب كتاب الفصيح قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة ، ويا ليت شعرى مالذى رآه من فصاحتها حتى اختارها ؟ وكذلك قد اختار الفاظا أخرى ليست بفصيحة ولا لوم عليه لأن صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير ، وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية أو نقل كلمة لغوية وما جرى هذا المجرى وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها ^{١٥٤}

ويتصل بهذا نقده لإبن سنان الخفاجى فى قياسه للفظ الفصيح وهو قوله : ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ فى الأذن نغمة كنغمة أوتار وصوتا منكرا كصوت الحمار وأن لها فى الفم حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل وهى تجرى على مجرى النغمات والطعوم فيعترض على آراء بن سنا هذه و يناقشه بقوله : ونحن نرى الأمر على خلاف ذلك فان حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام فحسن ما تحسن من الألفاظ وقبيح ما تقبح ^{١٥٥}

وحمل على الحريرى كما حمل على زعماء اللغة والأصوليين والفقهاء أمثال الغزالى ولم يعجبه فى الحريرى تكلفه فى مقاماته وخروجه أحيانا الى الإحالة والتعقيد اذ يقول متجبا ممن يذهبون مذهب الحريرى : ولقد رأيت جماعة من متخلفى هذه الصنعة يجعلون همهم مقصورا على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها واذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغثاثة والبرد يعتقد أنه أتى بأمر عظيم ولا يشك فى أنه

^{١٥٣} - الإستدراك : ٢٤

^{١٥٤} - المثل السائر ط محى الدين : ٢٨٨/١

^{١٥٥} - المثل السائر : ١٥٠ / ١ - ١٥٢

صار كاتباً مغلماً وإذا نظر إلى كتاب زماننا وجدوا ذلك وتلك الطريقة ليست من البيان فى شئى لأنها فى واد وهو فى واد^{١٥٦}

وفى كتابه الإستدراك تتميم للحملة الموجهة منه الى اللغويين والنحويين التى بدأها فى المثل السائر والجامع الكبير وكان نصيب ابن الدهان وافرا لأنه ألف الإستدراك ليؤاخذ على ما كان من ابن الدهان ويناقشه فى مؤاخذته للمتنبئى من أبى تمام ثم يستدرك عليه وقد أكثر من لومه لتعرضه لدراسة الشعر ونقده لأنه ليس من فرسان هذا الميدان ولا من رجال هذه الحلبة وهو نحوى لغوى وإن له ميدانا غير ميدان الناقد إذ النقاد ميدانهم الفصاحة والبلاغة ومعرفة أسرارهما وبيان قدرة الشعراء ومعرفة ما يقولون وما يبدعون ووزن ما يجددون وكشف الجديد والمسروق من كلامهم وما الى ذلك ولقد صرح أنه ما ألف الإستدراك الا لنقد ابن الدهان لتعرضه لنقد الشعر فقال :

ولما وجدت ابن الدهان قد ألف كتابه الموسوم بالمآخذ الكندية من المعانى الطائفة أنشأت كتابى ووسمته بالإستدراك فى الأخذ على المآخذ وذكرت جميع ما أخذه من أبى تمام وتكلمت على الحسن والقبيح ، ثم بينت أن علم الشعر والمعرفة بجيده ورديئه لا يحيط النحوى به علما بمجرد معرفته بعلم النحو ، وذاك أنه ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الإصطلاح المتفق عليه فى أصل اللغة وتلك دلالة عامة لأنها دلالة كل لفظ على كل معنى فى أنه صواب أو خطأ من جهة ذلك الإصطلاح لا غير ، وأما صاحب الشعر فإنه ينظر فى دلالة الألفاظ على بعض المعانى ، وتلك دلالة خاصة ، وهى أن تكون على هيئة مخصوصة^{١٥٧}

ويظهر من ذلك موقفه من الشعراء والنحويين ومكانة علم الشعر من النحو والنسبة بينهما كنسبة الخاص من العام إذ يقول : فكم من شاعر مجيد لا يعرف للنحو كتابا ولا للغة بابا ، وكم من نحوى مجيد لا يعرف قرض الشعر ، ولا يميز بين جيده ورديئه ولو أن النحو

^{١٥٦} - المثل السائر : ١ / ١٥١ و ٢ / ٢٥٣

^{١٥٧} - الإستدراك : ٥

واللغة كانا يساعدان على صناعة الشعر فحسب لكان الخليل بن أحمد و سيبويه أشعر أهل الأرض^{١٥٨}

تكلم ضياء الدين فى مقدمة كتاب الإستدراك عن عيوب خمسة التى وقع فيها ابن الدهان نقده فيها وبين سبب تأليفه للكتاب إذ يقول :

فإنى وقفت على كتاب من تأليف الشيخ أبى محمد سعيد بن المبارك بن على الدهان النحوى البغدادى رحمه الله وسمه بالمآخذ الكندية من المعانى الطائفة ووجدت النظر يتطرق اليه من خمسة وجوه :

الأول منها: أنه تصدى لذكر المعانى التى أخذها أبو الطيب المتنبى من أبى تمام حبيب بن أوس ، وقد ترك مثل الذى أخذ ، وأهمل بقدر الذى أثبت ، وإذا كان لم يحط به علما فالأولى له أن يترك الخوض فيها و الإنتصاب بالتأليف.

والثانى : أنه يذكر معنى للمتنبى فى بعض المواضع ويقول : هذا مأخوذ من أبى تمام فى قوله كذا وكذا فإذا تصفح ذلك لا يوجد هذا مأخوذا من هذا ولا بينه وبينه معاملة ولا مشابهة وهذا العيب أقبح من الأول.

الثالث : أنه يذكر بيتا من الشعر ويعزوه الى المتنبى ولا يكون له ويذكر بيتا آخر ويعزوه الى أبى تمام أو الى أبى عبادة البحترى ولا يكون له وهذا عيب ثالث الا أنه دون الثانى فى القبح.

الرابع : أنه أطال المقدمة واختصر الكتاب الذى وضعت المقدمة من أجله فكان كمن بنى دارا فجعل دهليزها ذراعا وعرضها شبرا أو كمن صلى الفريضة واحدة وصلى النافلة عشرا عن نفسه.

الخامس : أن المقدمة لا تشاكل الكتاب لأنه قصرها على أشياء خارجة عن الغرض المقصود: منها أنه ذم العصبية ، ومراده بذلك أن ينفى عن نفسه أنه تعصب على المتنبى...

فهذه عيوب خمسة وجدت في الكتاب المشار اليه وإذا كان بهذه الصورة فلم تكن بذلك الرجل العالم الى تأليفه لأنه عليه لا له.^{١٥٩}

وهذا الحكم الذي حكمه ضياء الدين في نقد ابن الدهان ينبئ عن تقدم في النقد إذ أنه معلل ولم يكن حكما عاما ، وقل أن نجد حكما من ناقد متقدم فإنه لم يحذو حذو سابقه ممن نصبوا أنفسهم لهذا الفن.

ويتصل بهذا نقده لابي الفتح عثمان بن جنى في شرح بيت للمتنبي وهذا النقد تميم لحملته على النحويين واللغويين يقول :

وهذا ابي الفتح بن جنى قد كان من علم النحو على درجة لم ينته اليها غيره ، ومع هذا فلما انتدب لتفسير شعر المتنبي كشف عن عورة كان في غنى عنها ، لأنه أخطأ في مواضع كثيرة خطأ فاحشا ، وذلك انه جاء الى أبيات من شعره فشرحها بالضد مما تضمنته من المعنى وقد عيب عليه ذلك^{١٦٠}

ومما أخطأ فيه خطأ فاحشا أنه قال في شرح هذا البيت :

تبلى خدى كلما ابتسمت * من مطر برقه ثناياها

فقال : المراد من هذا البيت أنها كانت كلما ضحكت ترشش من ريقها على خده شئ شبيه بالطل ، فنقده ضياء الدين وحمله بشدة بقوله : وذلك غريب غريب غريب ، وما كنت أتوهم أن أحدا من بنى آدم عنده من إعوجاج الذهن الى هذه الغاية ولو كان النحو نافعا في هذا المقام لنفع لهذا الرجل^{١٦١}

ولم تكن ثوراته النقدية قاصرة على اللغويين والنحويين بل تعداهم الى الأصوليين والفقهاء والبلاغيين والفلسفيين والأدباء وغيرهم أمثال الزمخشري والآمدي وابن سنان الخفاجي مثلا في باب الإلتفات ذكر رأى الزمخشري فعاب عليه : إذ يعتبروه اللغويون مجرد عدول عن المخاطب الى الغائب أو العكس ، بينما يعتبره الزمخشري تفننا في التعبير تطرية لنشاط

^{١٥٩} - الاستدراك : ١ - ٣

^{١٦٠} - الاستدراك : ١٤

^{١٦١} - الاستدراك : ١٧

السامع وإيقاظا للإصغاء اليه ^{١٦٢} فاعترض عليه ضياء الدين لهذا الرأي ويرى فيه إقلا من شأن هذا الفن الذى يكثر وروده فى القرآن ويرى فيه أمرا أخطر من مجرد الإنتقال من أسلوب لآخر لتطرية نشاط السامع مثل تعظيم شأن المخاطب أو غيره من الدلالات البيانية مما يترتب على العبارة التى يرد فيها وكذلك الحال فى اختلاف صيغ الفعل وتبادلها فى العبارة ^{١٦٣}

وتقد علماء العربية وهاجم على أصحاب البيان أمثال الآمدى و الخفاجى بقوله :وقد ألف الناس فيه (علم البيان) كتباً و جلبوا ذهباً و حطباً وما من تأليف الا وقد تصفحت شينه و سينه و علمت غثه و سمينه فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك الا كاتب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى غير أن كتاب الموازنة أنفع أصولاً و أجدى محصولاً و كتاب سر الفصاحة وإن نبه فيه على نكت منيرة فانه قد اكثر مما قل به مقدار كتابه على أن كلا الكتابين قد أهملوا من هذا العلم أبواباً و لربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً و تركا لباباً ^{١٦٤}

فلم يعجبه ممن سبقه من البلاغيين الا الآمدى فى الموازنة وابن سنان فى سر الفصاحة ويفضل الآمدى ولكنه يتهمة بالتقصير فى مواطن متعددة كما يتهم بذلك ابن سنان الخفاجى .

وتعقب ابن الأفلح فى مقدمته التى ألفها فى أقسام الفصاحة والبلاغة ووصفها بانه قصرها فى تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة ، وبانها قشور لا لب تحتها، وخاصة لقوله أما المعانى المبتدعة فليس للعرب منها شئ وان اختص بها المحدثون يقول فى المثل السائر:

ووقفت على كتاب يقال له "مقدمة بن أفلح البغدادي " قد قصرها على تفصيل الفصاحة والبلاغة وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها مكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشوراً لا لب تحتها لأن غاية ما عند الرجل أن يقول وأما الفصاحة فانها كقول النابغة مثلاً أو كقول

^{١٦٢} - المثل السائر : ٥/٢

^{١٦٣} - المثل السائر : ٥/٢ - ١٩

^{١٦٤} - المثل السائر : ٤-٣/١

الأعشى أو غيرهما ثم يذكر بيتا من الشعر أو أبياتا ، وما بهذا نعرف حقيقة الفصاحة ..وكذلك يقول في غير الفصاحة ^{١٦٦}

موقفه من الفلاسفة :

وكان موقفه من الفلاسفة موقف العداوة والبغض والعناد كما يبدو ذلك في ثنايا كتابه المثل السائر في مواضع متفرقة فهو يرى رجالها من أمثال ابن سينا والفارابي رجلا مغرورين أضلهم أرسطو وأفلاطون يذكر في المثل السائر :

حضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم فأخذت في وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأى فصاحة هناك وهو يقول : تلك إذا قسمة ضيزى ؟ فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف ؟ فقلت له أعلم أن لاستعمال الألفاظ اسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا والفارابي ولا من أضلهم مثل أرسطاطاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة ضيزى فإنها في موضعها لا يسد غيرها مسدها ^{١٦٧}

وهو حيناً ينفي أن يكون الشعراء والكتاب المحدثين كأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحترى وكعبد الحميد الكاتب والصابي قد اطلعوا على شيء من علوم اليونان وفلسفتها وحيناً يذم الشفاء لابن سينا بكلام يدل على جهله بالكتاب يقول ضياء الدين في المقالة الثانية من المثل السائر وهو يتكلم عن المعاني الخطابية :

وهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئاً منه ولا مسلم بن الوليد ولا أبو تمام ولا البحترى ولا أبو الطيب المتنبي ولا غيرهم وكذلك الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد والصابي وفان ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب اليونان قلت لك في الجواب : هذا باطل بي أنا فأني لم أعلم شيئاً ما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا وانساق الكلام الى شيء ذكر لأبي علي بن سينا في بعض الخطابة والشعر وذكر ضرباً من

^{١٦٦} - المثل السائر : ٣٤٧/١ و ١٩٢ / ٢

^{١٦٧} - المثل السائر : ١٥٦/١

ضروب الشعر اليونان يسمى اللاغوزيا وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى على ووقفنى على ما ذكره فلما وقفت عليه استجھلته فانه طول وعرض كأنه يخاطب اليونان وكل الذى ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا^{١٦٧}

وكان ضياء الدين فى أثناء عمله النقدى يتهم الأصمعى و أبا عبيدة وغيرهما فى بشار بن برد إنه أشعر الشعراء المحدثين فتهكم بآرائهم وهاجمهم بشدة بقوله : وهم عندى معذورون لأنهم ما وقفوا على معانى أبى تمام ولا على معانى أبى الطيب ولا وقفوا على ديباجة البحترى^{١٦٨}

وهاجم أبا العلاء المعرى هجوما عنيفا ويتهمه بعمى البصيرة والبصر لقوله : ليس فى شعر ابى الطيب لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها فقال فى نقده : ولكن الهوى كما يقال أعمى وكان أبو العلاء المعرى أعمى العين خلقة وأعماها عصبية فاجتمع له العمى من جهتين^{١٦٩}

ذلك هو الموقف النقدى الذى يعد ضياء الدين ابن الأثير على اساسه ناقدا ذا شخصية وفكرة واضحتين وخاتمة المطاف وقمة النقاد فى العصور النقدية وإنه فى سياق توضيحه الرأى عرض لكثير من الآراء النقدية السابقة فأقرها أو هاجمها بحدة حتى لا يكاد يترك ناقدا أو بلاغيا أو منشئا دون أن يغمز من آرائه ، وكان أكثر النقاد إلحاحا على المعنى وأشدهم جرأة فى النقد التطبيقي كما يظهر ذلك كله أثناء سفرنا هذا .

أهم المسائل النقدية التى تكلم عنها ضياء الدين :

لما درسنا كتبه النقدية وخاصة المثل السائر حتى وصلنا الى نهاية دراستنا نرى أن نذكر أهم المسائل النقدية التى تطورت بمجهوداته ومجهودات غيره ممن مارس النقد فى تلك الفترة

^{١٦٧} - المثل السائر : ٣١١ / ٢

^{١٦٨} - المثل السائر : طبعة بدوى : ٢٧٢ / ٣

^{١٦٩} - المثل السائر : طبعة بدوى : ٤١١ / ١

كما بينها الدكتور جوزيف الهاشم وزملاءه فى كتابهم " المفيد فى الأدب العربى " ^{١٧٠} فمن أبرز ما يعرض من تلك المسائل المهمة - الأمور الآتية :

١. الطبع و الذوق السليم : يعتبرهما أصلا فى الأدب وصناعته ومدار علم البيان وبلاغته ويأمرهما للناقد البصير من ضروراته يقول :

إعلم أيها الناظر فى كتابى ، أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك أستاذا وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ! ^{١٧١}

وهو يعلن أن صناعة الكتابة طبع وكسب وان الكسب لا يجدى اذا لم يقم على الطبع والذوق الفطرى وان الطبع لا يغنى عن الكسب أيضا وقد اشترط للأديب الكاتب أن يكون لديه ثمانية من المعارف وجعل على رأسها الطبع فان الطبع نواة الخلق والابداع فانه اذا لم يكن ثمة طبع فلا تغنى تلك المعارف شيئا ومثال ذلك كمثال النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ^{١٧٢}

وقد يعبر عن هذه الموهبة الفطرية بالفيض الإلهى اذ يقول: إن المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحد ... وهى تأتى من فيض إلهى بغير تعليم ولهذا اختص بها بعض الناشرين والناظمين دون بعض ^{١٧٣}

٢. سعة الثقافة : افترض للناقد أن تتوفر ثقافته فإنه يحتاج لأن يهيم فى كل واد فيتعلق بكل فن يقول: ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم ^{١٧٤} ويحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة

^{١٧٠} - المفيد فى الأدب العربى : تأليف جوزيف هاشم ، أحمد أبو حاتم ، أحمد أبو سعيد وإيليا حاوى : ص ١٨٢ - ١٩٣ : المكتبة

التجارى بيروت ١٩٦٤ م

^{١٧١} - المثل السائر : طبعة بدوى : ٣٥/١

^{١٧٢} - نفس المصدر : ٣٨-٣٥ / ١

^{١٧٣} - نفس المصدر طبعة محى الدين : ٣٤٥/ ١

^{١٧٤} - المثل السائر طبعة بدوى : ٣٨/١

العروس والى المنادى فى السوق على السلعة .. والسبب فى ذلك أنه مؤهل لأن يهيم فى كل واد فيحتاج أن يتعلق بكل فن^{١٧٦}

٣. اختلاف المؤهلات : التفت ضياء الدين الى اختلاف المؤهلات فى كل إنسان والى التفاوت بين وجوه الطبع لدى كل أديب يقول : إن صاحب الطبع المنظوم يجيد فى المديح دون الهجاء ، أو فى الهجاء دون المديح ، أو يجيد فى المراثي دون التهاني أو فى التهاني دون المراثي وكذلك صاحب الطبع المنثور^{١٧٧}

وهذا الحريري صاحب المقامات فانه يبدع فى فن المقامات ولا يبدع فيما سواه : فقد كتب فى أثناء مقاماته رقاعا فى مواضع عدة فجاء بها منحنطة عن كلامه فى حكاية المقامات لا بل جاء بالغث البارد الذى لا نسبة له الى باقى كلامه فيها وله أيضا كتابة أشياء خارجة عن المقامات إذا وقف عليها أقسم أن قائلها ليس قائل تلك لما بينهما من التـفاوت البعيد".^{١٧٨}

٤. النقد علم : حاول ضياء الدين أن يرسخ قواعد النقد على أسس متينة من المنطق والعقل والمعرفة الواسعة بحقيقة الأدب وغايته ويهدف من وراء ذلك كله إلى أن يجعل النقد علما ذا أصول ، على النقاد والكتاب أن يراعوها لدى كل عمل من أعمالهم الأدبية نلمس ذلك فى حديثه عن آلات علم البيان وأدواته والحكم على المعاني والترجيح بينهما والحقيقة والمجاز وأركان الكتابة والطريق الى تعلمها وفى حديثه عن اللفظة المفردة والمركبة والصناعة المعنوية وما تشتمل عليه من الأبواب.

٥. معرفة القواعد الأدبية : افترض على الأديب أن يعرف القواعد الأدبية ليستنير بها ويستفيد فى تغذية ما عنده من طبع فعلم العروض مثلا، يجب على الشاعر

^{١٧٦} - نفس المصدر : ٦٢/١

^{١٧٧} - المثل : ٣٨/١

^{١٧٨} - المثل : ٣٨/١

معرفته كما يقول: لسنا نوجب عليه المعرفة لينظم بعلمه فان النظم مبنى على الذوق ولو نظم بتقطيع الأفاعيل لجاء شعره متكلفا غير مرضى أى إنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ويكون ذلك جائزا في العروض".^{١٧٩}

٦. شرائط النقد : قيام النقد على التقرى والإستنتاج والتعليل وإيراد الشواهد برصانة علمية ودقة ووضوح من ذلك قوله فى ضرورة معرفة الأديب لمسائل النحو والصرف: أما النحو فانه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعلم الخط وهو ما ينبغى اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن مضرة اللحن... والكاتب إذا كان عارفا بالمعاني مختارا لها ، قادرا على الألفاظ مجيدا فيها ولم يكن عارفا بعلم النحو ، فانه يفسد ما يصوغه من الكلام ويختل عليه ما يقصده من المعاني، وأما التصريف فانه اذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معاني كلامه وإنما تفسد عليه الأوضاع وان كانت المعاني صحيحة".^{١٨٠}

٧. نقد النقاد: تقدم ضياء الدين بجرأة لإظهار ما كان من الأدباء من التقصير وبيان هفواتهم وتبيان سقطاتهم حتى لا يكاد يترك ناقد أو بلاغيا أو منشئا دون أن يهاجمهم بحدة فيغمز رأيا من آرائه مثلا يقول: وقد ألف الناس فى علم البيان كتباً وجلبوا ذهباً وخطبا وما من تأليف الا وقد تصفحت سینه وشينه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك الا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ... على أن كلا الكتابين قد أهملنا من هذا العلم أبوابا ولربما ذكرنا فى بعض المواضع قشورا وتركنا لبابا".^{١٨١}

^{١٧٩} - المثل : ٦١/١

^{١٨٠} - المثل : ٤٤-٤٢/١

^{١٨١} - المثل : ٣٤-٣٣/١

٨. النقد الفني : تناول ضياء الدين الأثر الأدبي من حيث شكله وصياغته واهتم أكثر ما اهتم بجمال اللفظة وجرسها وحسن اختيارها وانسجام الأصوات المنبعثة منها وما تتركه في الأذن من جميل الوقع والأثر يذكر في المثل السائر :

ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ويكره صوت الغراب وينفر منه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في سهيل الفرس ؟ والألفاظ جارية هذا المجرى فانه لا خلاف في أن لفظتي المزنة والديمة حسنتان وان لفظة البعاق قبيحة يكرها السمع وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهى تدل على معنى واحد^{١٨٢}

ومن مظاهر النقد الفني أنه يعتمد على الصور البيانية وعلى معطيات البلاغة فيطبق قواعدها وكأنما كان للنقد الأدبي عند العرب عمود يراعيه النقاد مراعاة الشعراء لعومد الشعر أما أركان عمود النقد فالفصاحة في المفرد والمركب والحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والتجريد والإلتفات والوصل والفصل والكتابة والتعريض والتضمين والتوشيح والإيجاز والإطناب وغير ذلك مما ورد في علوم المعاني والبيان والبديع.

وإذا كان الباحث قد مثل أحسن تمثيل عمود الشعر العربي فان ضياء الدين ابن الأثير قد مثل أحسن تمثيل عمود النقد العربي ففي باب التشبيه يعرض لجميع أنواع التشبيه ويذكر ما يؤيد رأيه من أصناف الشعر والنثر وآي القرآن فيقول مثلاً :

ومن شروط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ..ومن هنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال فقال : هامة عليها من الغمام عمامة وأنملة خضبيها الأصيل فكان الهلال منها قلامة ، وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء فانه أخطأ في قوله أنملة وأي مقدار للأنملة بالنسبة الى تشبيه حصن على رأس جبل ؟^{١٨٣}

^{١٨٢} - المثل : ٩١/١

^{١٨٣} - المثل : ١٠٢/٢

و يقاس على ذلك فى سائر الموضوعات البيانية وانه يسعى الى بلورة علم الجمال الأدبى عند العرب وقد كان فى هذا أعظم قدرا وكان نقده نقدا فنيا خالصا لا يلتفت كثيرا الى البيئة والتاريخ وأثرهما فى الأدب.

٩. السرقات الشعرية : ان السرقات الشعرية أمر شائع من قديم ذكر فى سر الفصاحة وفى الصناعتين و فى العمدة وفى الوساطة بين المتنبي وخصومه وغيرها، ولكن ضياء الدين ابن الأثير كان من أوضحهم وأعلمهم بالأمر وأقدرهم على تقييم ذلك فقد تكلم عنها فى المثل السائر كلاما مستفيضا وقسم السرقات الى النسخ والسلك والمسخ وما يتفرع عنها من الأقسام وقد فصل الكلام فى كل قسم منها وأتى عليها بالشواهد والبراهين متبعا طريقة علمية واضحة قائمة على المنطق وعمق المعرفة و سعة الإطلاع .

آراء نقدية تفرد بها ضياء الدين :

١. محاولة التفريق بين النحو والبيان : يرى أن معرفة النحو فضيلة تامة الا أنها خارجة عما يقتضيه البيان يقول : أما علم النحو فانه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعلم الخط وهو ينبغى اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن مضرة اللحن".^{١٨٣}

٢. نظريته فى الوحشى من اللفظ : يقول الوحشى قسما أحدهما حسن والثانى قبيح أما الأول فغرابته متأتية من قلة أستعماله وله مواطن يجيئ فيها جميلا وأما الثانى فغلظ ثقيل على السمع كربه على الذوق لذلك وجب الإبتعاد عنه.

٣. رأيه فى التضمين : يقول وفى التضمين نظر، بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة كتضمين الايات القرآنية والأخبار النبوية، وبين معيب معدود من عيوب الشعر، وهو أن يطول المعنى عن أن يحتل العروض تمامه فى بيت واحد فيقطع بالقافية ويتمه فى البيت الثانى، وهو عندى غير معيب لأنه ان كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على

الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيبا إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى، والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، والفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير^{١٨٥}.

٤. لا حد للأديب : قد مر بنا أن ضياء الدين اشترط للأديب الكاتب الثقافة الواسعة والإطلاع الدائم والتعلق بكل فن من الفنون : حتى إنه يحتاج الى معرفة ما تقوله الناذبة بين النساء و الماشطة عند جلوة العروس والى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة و هاهو يقول : شيثان لا نهاية لهما : البيان والجمال^{١٨٦}.

٥. النقد علم وفن : انطلاقا من اهتمامه بمسألة الذوق و التمسك به فى الصناعة الأدبية نستنتج أنه يفهم النقد على وجهين : الأول وجه علمي يتجلى فى القواعد التى يعقدها والثاني وجه ذوقي خاص بالناقد وحده كما أشار إليه بقوله : وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام واعلم أيها الناظر فى كتابي أن مدار علم البيان على حل كم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم^{١٨٧}.

٦. اعتبار القرآن المثل الأعلى : اعتبر ضياء الدين القرآن الكريم " المثل الأعلى " فى البلاغة العربية وصفاء التعبير وحسن الديباج فقد اشترط فى الكاتب من بين الآلات التى ينبغى توفرها له حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه فى مطاوى كلامه يقول : كفى بالقرآن وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته فإنه تجارة لن تبور ومنبع لا يغير وكنز يرجع إليه وذخر يعول عليه^{١٨٨}.

^{١٨٥} - المثل طبعة بدوى : ٤٠٠/٣ - ٤٠١

^{١٨٦} - المثل : ١ / ٦١ - ٦٢

^{١٨٧} - المثل : ١ / ٣٥ - ٣٨

^{١٨٨} - المثل : ٤ / ١

٧. الموازنة بين الشعراء : لم يكن ضياء الدين مبتدع هذه الطريقة بل سبقه اليها كثيرون أبرزهم الآمدي في الموازنة بين الطائيين الا أن ضياء الدين زاد على الطائيين شاعرا ثالثا وهو المتنبي وحاول أن تأتي موازنته أتم من موازنة سابقيه وتكون أعمق نظرا ، ولقد نجح في ذلك في تبين الخصائص التي تميز بها الشعراء الثلاثة فجاءت موازنته غزيرة المحتوى ، كثيفة الأفكار ، تجمع الى متضمناتها دقة في نقد ضياء الدين ونظرة شاملة تحيط بالكلية والجزئية وتدرك الروابط بينهما ، وانها تتمثل إعتداد الناقد بنفسه ووقوفه على دواوين الشعراء قديمها ومحدثها وإكباره للشعراء الثلاثة حتى جعلهم آلهة الشعر عند العرب وفهمه لأشعارهم وما تحتوى من خصائص القديم والجديد كما يقول : وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر ومستحسناته وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء".^{١٨٨}

٨. التولع على المعانى : كان ضياء الدين مولعا على المعانى فلذلك رجع دواوين الشعراء الثلاثة بالحفظ والإستظهار كما يقول : اننى لم أعدل اليهم اتفاقا وانما عدلت اليهم نظرا واجتهادا وذلك انى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب المتنبي للمعانى الدقيقة ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبى عبادة البحتري ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتملها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ".^{١٨٩}

٩. الألفاظ خدم للمعانى : يقول ضياء الدين فاذا رأيت العرب قد اصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا اطرافها فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط بل خدمة للمعانى^{١٩٠}

^{١٨٨} - المثل : طبعة بدوى : ٢٢٦/٣-٢٢٧

^{١٨٩} - المثل : طبعة بدوى : ٢٢٩/٣

^{١٩٠} - نفس المصدر : ٥٣/٢

١٠. إيماءة إلى الشعر الملحمي: يظهر من بحثه في الشعر والنثر والمقارنة بينهما أن

الشعر العربي خال من الملاحم كما يقول:

إن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة في شعر واحتاج الى الإطالة بأن ينظم مأتى بيت أو ثلاث مائة بيت أو أكثر من ذلك فانه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه بل يجيد في جزء قليل والكثير منه رديء غير مرضى، والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلاث مئة سطر أو أربع مئة أو خمس مئة وهو مجيد في ذلك وهذا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه...

وعلى هذا فاني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله الى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغتهم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف "بشاه نامه" وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فقهاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها، وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر^{١١}

هكذا كان ضياء الدين ابن الأثير ذا شخصية أدبية بارزة كان له مواقفه في علم الأدب والبلاغة وفي النقد الأدبي كما كان له تأثيره العميق في عالمي الفن والأدب وقد كان على كل حال عنيفا في نقده كثير التحدث عن نفسه مما جر عليه كره الناس ونقمهم كما عرفناه.

ويجدر بنا في ختام هذا الباب أن نورد آراء الأستاذ أحمد محمد عنبر نقتطعها من كتابه جولة مع ضياء الدين بن الأثير في كتابه المثل السائر" يقول :

فكتابه يعتبر الخطوة الأخيرة لاكتمال النقد العربي المبني على القواعد الصحيحة والذوق السليم.

أما الخطوة الأولى فكانت من الجاحظ في تدوين بعض المصطلحات البيانية والشواهد الكثيرة في البيان والتبيين.

ثم تليها خطوة ابن المعتز في تدوينه مصطلحات البيان وجمع أقسامه في كتابه البديع وبيانه انها ليست من اختراع أمثال بشار وأبى نواس كما يدعون بل هي في القرآن وفي كلام العرب.

ثم كان أبو هلال العسكري في الصناعتين وابن رشيق في العمدة وابن سنان في سر الفصاحة وبجوارهم الآمدى في الموازنة والقاضى الجرجاني في الوساطة كان كل اولئك الخطوة الواسعة التالية لخطوة ابن المعتز.

ثم كانت الخطوة الواثبة الجبارة لعبد القاهر الجرجاني في الدلائل والأسرار .

ثجاء ابن الأثير خاتمة المطاف في هذا الطريق القويم الذى يختلف عن الطريق الذى سار فيه معاصره السكاكى واضع علوم البلاغة في قواعد جافة في كتابه مفتاح العلوم ثم جاء القزوينى فى التلخيص ثم شراح هذا التلخيص فزادوا تلك القواعد جفافا بنظراتهم الضيقة. وكان الفرق بين ابن الأثير وبين هؤلاء هو عدم اعتماده على القواعد وحدها بل هو يعتمد على الذوق أيضا ثم إنه لم يكن ينظر الى الأدب والبلاغة نظراتهم الفلسفية الجافة بل كان يكره الفلاسفة والمتكلمين ويحمل عليهم فى كتابه كما ذكرت.

ويمتاز عنهم فوق ذلك بأنه أشاع فى كتابه حياة خصبة باعتماده على الأمثلة والشواهد الكثيرة التى توضح القاعدة لمن يهتم بالقاعدة وتمتع القلب لمن يريد تذوق الأدب.

ثم فى الكتاب نظرات سبق بها عصره واتفق فيها مع أحداث نظريات الأدب وتذوقه كما أشرت إلى ذلك فى مواضعه.

وفى الكتاب طرق عملية لتعليم الأدب والتخرج فيه منها حل معانى الشعر والقرآن والحديث لمن يريد أن يكون مقلدا أو أن يكون إماما مجتهدا.

وفيه نظرات وتقدير صحيح لآراء السابقين وإن كان التوفيق قد يخطئه أحيانا فى عرضه آراءهم لكن ذلك لا يطعن فى قدرته واستقلاله.

ثم فى الكتاب فوق ذلك تقرير لنظرية إعجاز القرآن بفصاحته وهو أوسع كتاب تعرض لهذه المسألة عمليا ولم يكتف بإثباتها نظريا بالاستدلال الذى تفوق فيه عبد القاهر .
ففى كل نوع من أنواع الصناعة اللفظية والمعنوية كان يذكر أمثلة من القرآن ويشرح المراد منها فيصيب غرضين : تجلية مسألة الإعجاز عمليا وتدريب من يريد تعلم صناعة البيان فوق ذلك.

وأخيرا فالكتاب سجل تاريخى للأدب فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع بما أورده من أمثلة كثيرة له ولصديقه عبد الرحيم صاحب الطريقة الفاضلية، ومن يستعرض فيه الأمثلة والشواهد منسوبة الى عصورها حتى عصره يستطيع أن يؤرخ للأدب العربى وللنقد فى أكثر من ثمانية قرون مستعينا بنظرات ابن الأثير الصادقة فى الحكم على الأدباء والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين وفضل الكتاب لا حد له ولا قدرة لى على الإحاطة بكل فضائله^{١٢}

^{١٢} - أحمد محمد عنبر :جولة مع ضياء الدين بن الأثير فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر :ص ٧٥-٧٧ طبعة دار الكتاب العربى مصر سنة ١٩٥٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

دراسة نقدية حول آثار ضياء الدين

* آثاره الموجودة

* آثاره المطبوعة

* آثاره المخطوطة

* آثاره المفقودة

آثاره الموجودة

بلغ عدد آثاره ٢٨ كتابا ولكن لم توجد منها إلا ١٨ كتابا والمطبوع منها ١١ كتابا والمخطوط منها ٧ كتب والمفقود ١٠ كتاب وهي حسب ما يلي:

آثاره المطبوعة

١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
٢. الجامع الكبير في صناعة الكلام من المنظوم والمنثور
٣. الوشي المرقوم في حل المنظوم
٤. كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب
٥. الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان
٦. ديوان ترسل / رسائل ابن الأثير
٧. رياض الأزهار
٨. المفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء
٩. الأدعية المائة المختارة
١٠. المرصع في الأدبيات
١١. مناظرة بين الخريف والربيع

آثاره المخطوطة

١. البرهان في علم البيان
٢. مؤنس الوحدة
٣. تحفة العجائب وطرفة الغرائب
٤. رسالة في الأزهار
٥. البديع
٦. القول الفائق
٧. كنز البلاغة

آثاره المفقودة

١. المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء
٢. مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي وديك الجن
٣. المجرد من الأخبار النبوية
٤. المجرد من أمثال الميداني
٥. عمود المعاني
٦. السرقات الشعرية
٧. رسالة في أوصاف مصر
٨. رسالة في الضاد والظاء
٩. المختار من ديوان ترسل
١٠. مختار في الأحاديث النبوية

إن أديبنا ضياء الدين ابن الأثير الجزري -مع أعماله الرسمية في ظل الدولة الأيوبية- ترك لنا آثارا قيمة خالدة في مختلف العلوم والفنون لاسيما في النقد والبلاغة وصناعة الإنشاء ،التي تدل على نشاطاته الفعالة واهتمامه الأصيل بالعلم والأدب وصحوته الذاتية في الذوق وفي الفكر والفن ، ولكنه من سوء حظنا لم تصل آثاره إلينا بأجمعها بل فقد بعضها كر الغداة ومر العشى ،حتى أصبح نسيا منسيا لا نكاد نعرف عنه إلا بما أشار إليه ضياء الدين في المثل السائر وغيره من الكتب ، وبعضه لا يزال في عالم المخطوطات موجود في شتى المكتبات ، وما طبع من آثاره إلا قليل لم يتجاوز حد العشرة ، فعلى هذا تنقسم آثاره إلى ما هو موجود وما هو مفقود ، والموجود منه إلى ما هو مطبوع وما هو مخطوط .

ويمكن توزيع آثاره حسب ما اشتملت عليه من الموضوعات إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول منها ما تشتمل على المختارات من الشعر والحديث والأمثال ويدخل فيها من مؤلفاته : المختارات من شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبى ، ومؤنس الوحدة ، وتحفة العجائب وطرفة الغرائب ، والمختارات من الأحاديث النبوية ، وتجريد أمثال الميداني وغيرها .

والقسم الثاني منها ما تحوى على المؤلفات التي تختص بالدراسات الأدبية ويدخل فيها من تصانيفه "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور" و "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" و "الاستدراك" و "عمود المعاني" و البديع و "كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب" و "البرهان في علم البيان" وكنز البلاغة و"المرصع في الأدبيات" والقول الفائق " والسرقات الشعرية" وما إلى ذلك.

والقسم الثالث منها ما يتضمن على مؤلفاته الإنشائية مثل المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء " و مفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء " و الوشى المرقوم في حل المنظوم " و رياض الأزهار" وديوان ترسله وما أشبه ذلك .

فنتعرض في هذا الباب آثاره وفق ما التزمنا عليه في التقسيم وندرسها حسب موضوعاتها مع ذكر الطباعة في المطبوعات ، والمكتبة في المخطوطات ، والمصادر في المفقودات ، والله الموفق وبه نستعين وهو حسبي ونعم الوكيل .

آثاره المطبوعة

١ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر

ومن آثاره المطبوعة المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، إن شهرة أديبنا ضياء الدين على مر الزمان مقترنة بشهرة هذا الكتاب أكثر من اقترانها بأي منصب تولاه أو أى كتاب ألفه فإنه جمع فيه فأوعى ولم يترك شيئاً فيما يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، وقد طبع هذا الكتاب مرات نذكره فيما يلي :

الطبعة الأولى : طبع فى بولاق لأول مرة بتحقيق الشيخ محمود الصباغ سنة ١٢٨٢ من الهجرة فى ٥٠٤ صفحات وبهامشه " أدب الكاتب " لابن قتيبة^١

الطبعة الثانية : وطبع فى المطبعة البهية سنة ١٣١٢ فى ٣٢٤ صفحة .^٢

الطبعة الثالثة : وطبع فى القاهرة بواسطة مكتبة محمود توفيق سنة ١٩١٣ فى ٣٤٤ صفحة وبهامشه أدب الكاتب لابن قتيبة.^٣

الطبعة الرابعة : وهى طبعة ممتازة تقع فى نحو ألف ومائة صفحة ذات قطع متوسط فى مجلدين كبيرين حققها محمد محي الدين عبد الحميد - المدرس فى قسم التخصص بكلية اللغة العربية بالجامع الأزهر بمصر، وطبع فى مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٩٣٩ م.

وامتدح المحقق الجهود المضيئة التى بذلها فى إخراج الكتاب ، وذكر أنه اعتمد فى تحقيقه على نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية ، وعلى نسخة لديه ، ونسخة الشيخ أحمد محمد

^١ - محمد عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة / ١٢٢ .

^٢ - نفس المصدر السابق

شاكر ، وعلى طبعة بولاق ، والطبعات الأخرى ، كما راجع جميع النصوص التي اشتمل عليها الكتاب في مظانها الأولى ، وهذه الطبعة حسنة جدا ورقا وحروفا لا ينقصها سوى الفهارس التوضيحية لأنه ليس لها سوى فهرس الأبواب .^٤

الطبعة الخامسة : ثم طبع بمطبعة الرسالة بالقاهرة بتحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوي طبانة فى ثلاث مجلدات سنة ١٩٦٢م ، المجلد الأول يضم مقدمة الكتاب والمقالة الأولى والمجلد الثانى يحوى المقالة الثانية والمجلد الثالث يشتمل على خاتمة الكتاب وعلى كتاب الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد المدائنى ويلحقه فهرس الكتاب التفصيلي .

ومما يجدر بنا أن نذكره هنا كما قال الدكتور عبد الله الحمدان: وهو أن أكثر التعليقات مطابقة لتعليقات عبد الحميد بتغيير يسير فى بعض الكلمات والعبارات ، مع أنهما لم يشرا الى طبعة عبد الحميد لا من قريب ولا من بعيد وكأنه لم يكن وهذا ما يثير أكثر من سؤال عن السر فى تجاهل الدكتورين لجهود سابقهما .^٥

وفى تحقيق الدكتورين زيادة عما فى تحقيق عبد الحميد تراجم لبعض الأعلام ، وبيان لمواضع الآيات فى السور ، وشرح بعض المفردات اللغوية ، إضافة الى الفهارس التفصيلية .

الطبعة السادسة : وقد وجدت فى مكتبة جامعة الكويت نسخة أخرى مطبوعة من منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية السورية العربية دمشق سنة ١٩٩٦ م حققها وقدم لها وعلق عليها الدكتور سمر روى الفيصل فى قسمين وسماه المختار من التراث العربى من كتاب المثل السائر لابن الأثير الجزرى .

^٤ - محمد عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة / ١٢٢-٢٣ .

^٥ - محمد عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة / ١٢٤ .

موضوع المثل السائر و محتوياته

موضوعه :

اختلف الباحثون فى موضوع المثل السائر فقال بعضهم إنه كتاب فى البلاغة والبيان لأنهم وجدوا فيه خلاصة لما قام به البلاغيون من مباحث البلاغة ودراسة فنونها ، وعده بعضهم أنه كتاب أدب لأنهم نظروا إلى ما فيه من الشعر والنثر والأمثال وغيره . واعتبره الأكثرون أنه كتاب فى النقد الأدبي من ناحية اشتماله على كثير من مباحث النقد الأدبي فقد جمع فى ثناياه خلاصة ما انتهى إليه النقد فى عصره ، وبالجمله إن هذا الكتاب منبع لأشتات العلوم ذكر فيه صاحبه الأدب والبلاغة والنقد مع الرسائل والإنشاء فهو من أهم الكتب التى وضعت على ظهر الأرض .

محتوياته :

جعل ضياء الدين ابن الأثير كتابه على مقدمة ومقالتين : أما المقدمة فهى تشتمل على أصول علم البيان وأما المقالتان فتشتملان على فروع ، أولاهما فى الصناعة اللفظية والثانية تختص بالصناعة المعنوية ، وتتكون المقدمة من عشرة فصول هى :

١. فى موضوع علم البيان
٢. وفى آلات علم البيان وأدواته
٣. وفى الحكم على المعانى
٤. وفى الترجيع بين المعانى
٥. وفى جوامع الكلم
٦. وفى الحكمة التى هى ضالة المؤمن
٧. وفى الحقيقة والمجاز
٨. وفى الفصاحة والبلاغة

٩. وفى أركان الكتابة

١٠. وفى الطريق إلى تعلم الكتابة

أما المقالة الأولى : فجعلها فى الصناعة اللفظية وهى تشتمل على قسمين الأول منه فى اللفظة المفردة ، وتحدث فيها عن ثلاثة أشياء : الأول اختيار اللفظة المفردة ونظم كل كلمة مع أختها المشكلة لها لئلا يجيئ الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، ومعرفة الغرض المقصود من ذلك الكلام مع اختلاف أنواعه.

والثاني منها فى اللفظة المركبة وهى لتركيبها مع غيرها تصير فى الحكم غير ما كان لها فى الحالة المفردة و قد تحدث عنها ضياء الدين حديثا مستفيضا وأتى بالأمثلة والشواهد فيشعب الموضوع وينسقه ، والألفاظ المركبة عنده ثمانية أنواع من البديع وهى :

١. السجع فى المنثور

٢. والترصيع فى المنظوم

٣. ولزوم ما لا يلزم

٤. والتجنيس

٥. والموازنة فى المنثور

٦. والمعاظلة اللفظية

٧. واختلاف صيغ الألفاظ

٨. وتكرير الحروف

وأما المقالة الثانية : فجعلها فى الصناعة المعنوية وهى تشتمل على ثلاثين نوعا من علم البيان ويقسمها إلى قسمين الأول منه فى الكلام عن المعانى إجمالا والثانى منه فى تفصيل ما أجمله و يقدم لها بمقدمة يتعرض فيها لأثر الفلسفة واليونان فى البيان العربى ويحاول أن ينفى تأثر البيان العربى بالفلسفة وأقوال الحكماء وأشار إلى المعانى المبتدعة والمعانى المقلدة وعوامل الإبداع والإختراع وإلى أثر الحوادث المتجددة والأحوال الشاهدة وذكر أمثلة من شعر أبى تمام

و البحترى والمتنبئى وأبى نواس وجملة معانيه المبتكرة ومن كتبه ورسائله ثم انتقل إلى أبواب هذه المقالة فذكر الأنواع الثلاثين ويتكلم فى كل نوع منه بما تيسر له وهى :

١. الاستعارة
٢. والتشبيه
٣. والتجريد
٤. والالتفات
٥. وتوكيد الضميرين
٦. عطف المظهر على ضميره والإفصاح به
٧. التفسير بعد الإبهام
٨. استعمال العام فى النفى والخاص فى الإثبات
٩. التقديم والتأخير
١٠. الحروف العاطفة والجارة
١١. الخطاب بالجملة الإسمية والفعلية والفرق بينهما
١٢. قوة المعنى لقوة اللفظ
١٣. عكس الظاهر
١٤. الإستخراج
١٥. الإيجاز
١٦. والإطناب
١٧. التكرير
١٨. الإعتراض
١٩. الكناية والتعريض
٢٠. المغالطات المعنوية
٢١. الأحاجى
٢٢. المبادئ والإفتتاحات

- ٢٣. التخلص والإقتضاب
- ٢٤. التناسب بين المعانى
- ٢٥. الإقتصاد والتفريط والإفراط
- ٢٦. الإشتقاق
- ٢٧. التضمين
- ٢٨. الإرصاء
- ٢٩. التوشيح
- ٣٠. السرقات الشعرية

و يضمن كل من هذه الأنواع فروعاً وأقساماً بينها عند عرض الموضوعات فى الكتاب، وهنا نستعرض المقدمة بفصولها والمقاليتين بأنواعها بالإيجاز :

الفصل الأول من المقدمة: فى موضوع علم البيان

تحدث فيه عن موضوع علم البيان واستغرق الكلام فى توضيحه فقال: فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحو يشتركان فى أن النحو ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الواضع وذلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة وهى دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وراء النحو والإعراب وقال آلا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة".^٦

الفصل الثانى فى آلات علم البيان وأدواته

تكلم فى هذا الفصل عما يحتاج إليه الكاتب فى تنشئة ثقافته الكتابية كي يقتدر على الجمع بين الثقافات المختلفة يقول: أعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات

كثيرة وقد قيل ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل فن".^٧ ويتكلم عن الطبع فإن الطبع هو نواة الخلق والإبداع وملاكه ثم ينتهى من الكلام على الطبع إلى الكلام عن الأدوات التى تثقفه وتجمله فيذكر من الآلات .. النحو والصرف واللغة وأمثال العرب وأيامهم والإطلاع على تأليفات المتقدمين من المنظوم والمنثور ومعرفة الأحكام السلطانية كالإمامة والإمارة والقضاء والحسبة ، وحفظ القرآن الكريم والتمعن فى آياته والتدرب باستعمال وحفظ الأخبار النبوية وحفظ الأشعار الكثيرة ومعرفة العروض والقوافى وما إلى ذلك.

الفصل الثالث فى الحكم على المعانى

تحدث فيه عن المعنى الظاهر والمؤول والمستنبط وفائدته الإحاطة بأساليب المعانى على اختلافها وتباينها وصاحب هذه الصناعة مفتقرة الى هذه ، والأصل فى المعانى أن تؤخذ من ظاهر الألفاظ ما دامت تحتل التأويل.^٨

الفصل الرابع فى الترجيح بين المعانى

يبين فيه الحقيقة والمجاز ويدل على طرق الترجيح بينهما معتمدا على مقاييس تتصل بنص العبارة والألفاظ وصلتها بالسياق ويتعرض للمعانى من حيث مفاهيمها العقلية والدينية وقيم الفرق بين الترجيح العقلي وبين الترجيح الفقهي الدينى ويطول الكلام فيه حتى يملأ ما يقرب ثمان أوراق".^٩

نفس المصدر، تح بدوى طبانة : ٣٨/١

نفس المصدر السابق ، تح بدوى طبانة : ٦٢/١

الفصل الخامس فى جوامع الكلم

يذكر فيه مأخذ جوامع الكلم مستدلا بقول النبى صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم وهو أن بعض الألفاظ تتضمن من المعانى ما لا تتضمن أخواتها مما يجوز استعمالها فى مكانها سواء كان على الحقيقة أو على المجاز ويشير هنا إلى هذا القسم أنه إستخرجه ولم يكن لأحد فيه قول سابق.^{١٠}

الفصل السادس فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن

وهى إخبار عن أمثال وحكم ومدارها الإيجاز قال النبى صلى الله عليه وسلم: كلمة الحكمة ضالة المؤمن" يقول ضياء الدين : ومذ سمعت هذا الخبر النبوى جعلت كدى فى تتبع أقوال الناس فى مفاوضاتهم ومحاوراتهم فإنه قد تصدر الأقوال البليغة والحكم والأمثال ممن لا يعلم مقدارها فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عددا".^{١١}

الفصل السابع فى الحقيقة والمجاز

يرى أن المجاز من أهم أركان علم البيان لا بل هو علم البيان بأجمعه فإن فى تصريف العبارات على الأسلوب المجازى فوائد كثيرة.^{١٢}

نفس المصدر السابق : تح محى الدين عبد الحميد : ٣١/١ وبدوى : ٧٨/١

المثل السائر ، تح بدوى طبانة : ٨١/١

الفصل الثامن فى الفصاحة والبلاغة

يبين فيه طرفى علم البيان وهما الفصاحة والبلاغة فالفصاحة عنده يدل على السهولة والوضوح وحسن الوقع فى السمع والبلاغة تختص بجمال التركيب .^{١٣}

الفصل التاسع فى أركان الكتابة

يقول إن شرائط الكتابة كثيرة أما أركانها فخمسة وهى : جودة المطلع ، واشتقاق الدعاء من المعنى الذى بنى عليه الكاتب ، خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة ، وأن تكون الألفاظ فيه غير مخلوقة بكثرة الاستعمال ، ألا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن والحديث ، ولا بد من إبداع هذه الأركان فى كل كتاب بلاغى ذى شأن ، ولم يذكر الشرائط لكثرتها .^{١٤}

الفصل العاشر فى الطريق إلى تعلم الكتابة

يتحدث فى هذا الفصل عن تجربته ثم يبين الطريق إلى تعلم الكتابة فقال : ولما حببت إلى هذه الفضيلة وبلغنى الله منها ما بلغنى وجدت الطريق إلى تعلم الكتابة ينقسم إلى ثلاث شعب : الأول أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الألفاظ والمعانى ثم يحذو حذوهم وهذى أدنى الطبقات .

والثانى : أن يمزج كتابة المتقدمين عما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة إما تحسين ألفاظ أو فى تحسين معانى وهذه هى الطريقة الوسطى .

والثالث : ألا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شئ منها بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدة دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجابة فى

^{١٣} . نفس المصدر السابق : ٩٠/١

^{١٤} - - ٩٦/١

الألفاظ والمعاني ثم يأخذ الإقتباس من هذه الثلاثة فيقوم ويقع ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدى حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه واخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة وهذه هي طريقة الإجتهد^{١٥}.

ثم يتحدث عن ثلاث طرق لحل الشعر فيعرض نماذج من كتاباته و من كتابات غيره ويذكر في حل آيات القرآن أنه ينبغي المحافظة على ألفاظها وكذلك الأخبار النبوية ثم يأخذ في حل تلك المعاني واحدا بعد واحد ولا يقنع بذلك بل يعاود تلاوة السور مرة ثانية ويفعل ما فعل ثم يفعل مرة أخرى وفي كل مرة يظهر له من المعاني ما لم يظهر له فيما سبق وقد ملأ صفحات عدة بأمثلة من كتاباته التي استخدم فيها المعاني من القرآن والحديث .
هذه خلاصة ما بينه ضياء الدين في فصول مقدمة الكتاب العشرة وقد جعلها مدخلا إلى الدراسة التفصيلية لجوانب البيان التي يتحدث عنها تفصيلا في المقالتين .

المقالة الأولى في الصناعة اللفظية

قسم المقالة الأولى إلى قسمين :الأول في اللفظة المفردة ،و الثاني في اللفظة المركبة ويذكر أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى تأليفه إلى ثلاثة أشياء الأول :اختيار الألفاظ المفردة والثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشكلة لها لئلا يجنى الكلام قلعا متنفرا عن موضعه والثالث : الغرض المقصود من ذلك على اختلاف أنواعه .

ويتكلم في القسم الأول عن فصاحة اللفظة المفردة وشروطها ويذكر أن هناك ألفاظا قد تشترك في المعنى ولكنها تتفاوت من ناحية الفصاحة باختلاف الوضع والمناسبة فيتضح منه الفرق بين الكتاب والشعراء والخطباء والفرق بين الطبائع وهو مع ذلك لا يسلم الفرق الكبير بين اللفظة المفردة بقدر الفرق في التركيب فالألفاظ القرآن مثلا نفسها ألفاظ اللغة كانت معروفة متداولة بين العرب مع ذلك يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه بالتركيب ، ثم يورد قول من يسوى بين جميع

الألفاظ فقال إن من الألفاظ حسن وقبيح ولا قيمة لرأى من يسوى بين جميع الألفاظ فى الحسن بدعوى أن العرب كانت تنطق كل الألفاظ فكلها حسن أما العرب فى الحسن بدعوى فلا شك إنهم كانوا يستحسنون اللفظ فقط كما نستحسن ولكنهم كانوا يستعملون غير الحسن أيضا وليس من الضروري أن نستحسن ما استحسنوه ولو كان قبيحا وإنما نأخذ منهم صحة اللغة والنحو فقط فى رواية".^{١٦}

ثم قسم الألفاظ إلى ثلاثة أقسام : الأول ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زمننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشى ، والثانى ما تداول استعماله الأول دون الآخر ويختلف فى استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله ، والثالث وهو الوحشى الغليظ و يسمى المتوعر وليس وراءه فى القبح شئ ، وهو ما يجمع بين الغرابة والثقل على السمع ، ثم بعد ذلك تحدث عن الألفاظ المركبة وهى التى يحدث لها بعد تأليفها صورة مركبة تختلف فى رأى الناظر عن صورتها المفردة كما يحصل للدرر حالة الأفراد والتركيب يقول ضياء الدين :

وذلك أنه يحدث عنه فوائد التأليفات والإمتزاجات ما يخيّل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة ، ومثال ذلك من أخذ اللآلى ليست من ذوات القيم العالية فألفها وأحسن تأليفها فخيّل للناظر لحسن تأليفه وإتقان صنعه أنها ليست تلك التى كانت منثورة مبددة وفى عكس ذلك من يأخذ لآلى من ذوات القيم العالية فيفسد تأليفها فإنه يضع من حسننها وكذلك يجرى حكم الألفاظ العالية مع فساد تأليفها".^{١٧}

وصناعة التأليف عنده تضم ثمانية أبواب من البديع هى السجع ، والتجنيس ، والترصيع ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الألفاظ ، وتكرير الحروف ، و المعاضلة اللفظية وكلها فى النظم والنثر إلا السجع والموازنة فإنهما فى النثر فقط وإلا الترصيع فإنه فى الشعر ، والترصيع يقابل السجع فى النثر.

^{١٦} . المثل السائر : تح محى الدين عبد الحميد : ٩٠/١ و بدوى طبانة: ١٦٣/١

^{١٧} . المثل السائر : تح محى الدين عبد الحميد : ١٩١/١

ثم يخالف هذا الإجمال حين يفصل القول عنها فقد اغفل الترصيع كقسم وتحدث عنه في ثنايا السجع وزاد المعازلة اللفظية وهي النوع السابع مع أنه لم يذكره في الإجمال كما لم يذكر المنافرة بين الألفاظ في ترسيم المنهج بل ذكر تكرير الحروف بدلا عنها .

المقالة الثانية في الصناعة المعنوية

يقسم الصناعة المعنوية إلى قسمين الأول في الكلام عن المعاني إجمالاً والثاني في التفصيل ما أجمله ويقدم لها بمقدمة يذكر فيها أثر الفلسفة واليونان في البيان العربي ، أما القسم الأول فقد أبدى رأيه في الاختراع ورد على من ينكره أبلغ رد واستشهد بنصوص كثيرة من كلامه ومن كلام غيره وقد ملأ ثمان عشرة صفحة بأمثلة من كلامه وحده، يذكر فيما ابتدعه من المعاني من قول الشاعر :

“ أقبلت ربائب الكناس في مخضر اللباس ”

فقل إنما يختزن الخضرة من الألوان ليصح تشبيههن بالأغصان ثم يقول وهذا معنى غريب، وربما يكون قد سبقت إليه إلا أنه لم يبلغني بل ابتدعه ابتداءاً^{١٨}. وفيما بعد أخذ يرد على من ادعى أن العرب أرباب الفصاحة كانت تعنى بالألفاظ فقط دون المعاني فقال :اعلم أن العرب كما كانت تعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى وأكرم عليها وأشرف قدرا في نفوسها^{١٩}.

هذا كلامه في المعاني إجمالاً ثم يشرع بيانها تفصيلاً في فنونها الثلاثين فيبدأ بالنوع الأول وهو :

^{١٨} . المثل السائر تح محي الدين عبد الحميد : ٢٠٨/١

^{١٩} . نفس المصدر السابق : ٢١١ / ١

النوع الأول الاستعارة

ويبين فيه المجاز عامة وهو عنده قسمان: توسيع فى الكلام وتشبيهه ، وتقع الاستعارة ضمن التشبيه ويفرق بين الاستعارة والتشبيه بوجود تقدير الأداة وحسن إظهارها فى التشبيه وإمكان إظهارها وقبح إظهارها فى الاستعارة مع وجوب طى المستعار له ، ويناقش حدود الاستعارة عند من سبقه وينتهى إلى حد يرتضيه وهو قوله : نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طى ذكر المنقول عنه .^{٢٠}

ثم أخذ يمثل للاستعارة من القرآن والحديث ويروى لبعض العرب ولشعرائه الثلاثة الذين يفضلهم وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى ويرد الآمدى والخفاجى أبى هلال العسكري فى بعض أخطائهم فى خلط الاستعارة بالتشبيه ويبين جمال الإستعارة أو قبحها على عامل آخر هو عنصر أصيل فى نقده أعنى عنصر الذوق .

النوع الثانى التشبيه

يفصل القول فى التشبيه والتمثيل ويعجب من تفريق علماء البيان بين التشبيه والتمثيل لأنهما فى نظره باب واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع ويقسم التشبيه إلى قسمين مظهرا ومضمرا ثم يقسم المضمرا إلى خمسة أقسام ويلغى القسم الخامس قائلا بأن كثيرا من علماء البيان يخلطون فيه التشبيه بالاستعارة وهو فى الحقيقة التشبيه ثم يقسم التشبيه من حيث الحسية والمعنوية ومن حيث الأفراد والتركيب ويجيء بالأمثلة والشواهد من القرآن والحديث والشعر ومن كلامه ويختم الكلام فيه بذكر التشبيه القبيح.^{٢١}

^{٢٠} . نفس المصدر : ٣٦٥/١ :

^{٢١} . المثل السائر طبع بولاق ص : ٢٣٢

النوع الثالث التجريد

يذكر فيه قول أبى على الفارسي وهو أن العرب يعتقدون أن فى الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره وهو بعينه هو ، ثم يبين حد التجريد فيقول : التجريد هو إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب " ثم يقسم التجريد إلى قسمين تجريد محض وتجريد غير محض فيجئى بالأمثلة لكل قسم منهما

٢٢

النوع الرابع الإلتفات

الإلتفات عنده خلاصة علم البيان وزيدته إذ يقول " وهذا النوع خلاصة علم البيان التى حولها يدندن واليها تسند البلاغة وعنهما يعنن وحقيقته مأخوذ من إلتفات الإنسان من يمينه إلى شماله " ثم يقسم الإلتفات إلى ثلاثة أقسام :

١. الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة
 ٢. والرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر
 ٣. الإخبار عن الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي
- ويجمع القول فى الإلتفات عن فوائد بيانية كثيرة تتعلق بالأسلوب وتغيره من حال إلى حال ويبحث عن آثاره فى البيان كما يبحث عن ميزة كل صيغة من صيغ المجهول وعن صيغ الأفعال ودرجتها البيانية ، ويبين كيف أن الخطاب أكثر استحضارا وأقرب ، ثم يعرض لاستخدام البيان لهذه الخصائص فى التعبير لبعث جوانب التأثير والمعانى المراد عنها .^{٢٢}

النوع الخامس توكيد الضميرين

هذا النوع وكذلك عطف المظهر على ضميريه واستعمال العام فى النفي والخاص فى الإثبات والتقديم والتأخير والحروف الجارة والعاطفة والخطاب بالجمليتين كله من صميم علم النحو ولكن

^{٢٢} . المثل السائر ، تحمى الدين عبد الحميد : ٢٥٠/١

^{٢٣} . نفس المصدر السابق : ٢٥٣/١

أديبنا ذكر هذه الأنواع فى باب علم البيان وله عذره لأن النحو والبيان ما كانا منفصلين فى عهده وما كان النحو مقتصرًا على حرفية القوانين كما وجدناه .^{٢٤}

النوع السادس عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده

قال ضياء الدين : وإنما يعتمد إليه لفائدة وهى تعظيم شأن الأمر الذى أظهر عنده الإسم المضر ، ومثال ذلك قوله تعالى " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " فقد صرح الله سبحانه كلمة " الله " فى قوله ثم الله ينشئ النشأة " مع إبقائه مبدأ فى قوله تعالى " كيف يبدئ الخلق " ^{٢٥}

النوع السابع التفسير بعد الإبهام

التفسير بعد إبهام يكون فى الكلام للمبالغة وتعظيم الحال ، والغرض منه هو الإبهام من غير تفسير وهو ضرب من الإيجاز أورده الرماني وجماعة من البلغاء اعتبروه الذروة فى البلاغة .^{٢٦}

النوع الثامن استعمال العام فى النفى والخاص فى الإثبات

يتحدث فى هذا الفصل عن مقاييسه الذوقية فيورد قوله تعالى " ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما " ^{٢٧} فالتأفيف أدنى درجة وهو مخالف القياس وكان ينبغى إذا لوحظ القياس أن لا يثبت النهر لأن نفى التأفف يلزم نفى النهر ولكن للقرآن قياسا آخر وهو أحق أن يتبع ، وقد أورد فى هذا الباب مثلا جميلا للتدرج المعنوي ما جاء من الصفات الواردة على شئ واحد كقول البحترى شعر :

^{٢٤} . نفس المصدر طبع بولاق ص : ٢٦٣

^{٢٥} . سورة العنكبوت : ٢٠/٢٠

^{٢٦} . زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده فى النقد : ص ٩٥

^{٢٧} . سورة بن إسرائيل : ٢٣/١٥

يتفرقن كالسراب وقد خضن * غمارا من السراب الجارى
كالقسي المعطفات بل السهم * مبرمة بل الأوتار^{٢٨}

النوع التاسع التقديم والتأخير

يكون التقديم والتأخير فى العبارة لوجهين الأول: الإختصاص ، والثانى مراعاة النظم . وهذا الأخير ابتدعه ضياء الدين كما ادعاه هو ويرى أن أسلوب الكلام يلتزم التقديم والتأخير لمراعاة النظم وموافقة السجع ، ثم يتحدث عن تقديم الظرف وتأخيره فى النفي والإثبات وتقديم الحال وغيره ثم يتعرض لبعض العيوب الناشئة من التقديم والتأخير كالمعاظلة اللفظية ويجيب بمثال من شعر الفرزدق :

” وما مثله فى الناس الا مملكا * أبو أمه حى أبوه يقاربه ”
يمدح بذلك خال الأمير وترتيبه الصحيح ” وما مثله فى الناس حى يقاربه الا ملك أبو أمه أبوه
أى هو خاله^{٢٩}

النوع العاشر الحروف العاطفة والحروف الجارة

تحدث فيه عن جانبهما البيانى دون النحوى ويذكر أن ما يقوله هو فى هذا الفصل لم يذكرها أحد ممن سبق من رجال البيان واهتم بذكر استعمالها فى القرآن ويعرض بعض الآيات التى جاء فيها استعمالها فيبين دقة القرآن فى استخدامها بما يناسب المعانى فى السياق ويبتدئ براعته فى تحليل الآيات .^{٣٠}

^{٢٨} . المثل السائر، تح عى الدين عبد الحميد : ٣٥/٢ وديوان البحرى طبعة هندية ص: ٣٤/١

^{٢٩} . المثل السائر : ٤٦/٢

^{٣٠} . المثل السائر ط بولاق ص ٢٨٣

النوع الحادي عشر الخطاب بالجملة الفعلية والإسمية

ذكر فيه الفرق بين الجملتين وعن توكيدهما بالمؤكدات المختلفة وانتقد مثال النحويين "والله لأقومن" فقال إن ذلك لغو من الكلام لأن القيام هنا ليس فيه من الأمر العزيز ولا من الأمر العسير ما يحتاج معه من التأكيد ولو قيل لأقومن إليك بأسلوب التهديد لكان ذلك واقعا موقعه.^{٣١}

النوع الثاني عشر قوة اللفظ لقوة المعنى

وقد سبقه إلى الكلام في هذا الموضوع ابن جني ثم هو يورد من جديد إلا أن ابن جني يرى زيادة المعنى بزيادة المبنى وهو يرى قوة الدلالة بزيادة المبنى ثم يمثل بقوله تعالى "ورتل القرآن ترتيلا" فإن لفظة رتل على وزن فعل ومع هذا أنه ليست دالة على كثرة القراءة وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر^{٣٢}

النوع الثالث عشر عكس الظاهر

وهو أن يؤتى بكلام معناه غير ما يؤد إليه ظاهر اللفظ أي نفى الشيء بإثبات ، مثل قول الشاعر : لا ترى الضب بها ينجر " فقد يفهم منه أن هناك ضبا ينجر وضبا لا ينجر ولكن الشاعر يريد أنه لم يكن هناك ضب أصلا فلم يكن هناك إنجرار.^{٣٣}

^{٣١} . نفس المصدر ص ٢٦٨

^{٣٢} . المثل السائر : ٢ / ٦٤

^{٣٣} . نفس المصدر : ٢ / ٦٦

النوع الرابع عشر الاستدراج

وهذا النوع من ابتداعه الذى أشار إليه أنه اخترعه إياه فقد استخرجه من القرآن الكريم وهو مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال مثل قول الله تعالى " وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب" وقد علق عليه ضياء الدين تعليق الفاهم الخبير المتمكن مبينا أنه كيف استدراج الرجل المؤمن من آل فرعون .^{٣٤}

النوع الخامس عشر الإيجاز

يبين حد الإيجاز فيقول : وهو حذف زيادات الألفاظ " ثم يقول وهذا النوع من الكلام شريف لا يتعلق به الا فرسان البلاغة ممن سبق إلى غايتها وما صلى وضرب فى أعلى درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانه وتعذر إمكانه ، ثم يتكلم عن المحذوفات وعن أثرها فى بلاغة العبارة ثم يبين الضرب الثانى من الإيجاز ، ويجيئى بالأمثلة من القرآن والحديث والشعر ولم يذكر لنفسه الا مثالا فى وصف القلم ومثالا فى وصف بستان ثم أورد مثالا لنفسه فملأ به أربع عشرة صفحة يعارض به القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى رحمه الله .^{٣٥}

النوع السادس عشر الإطناب

يقول فيه أن مثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه من ثلاث طرق : الإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه ، والإطناب والتطويل هما الطريقتان المتساويتان فى البعد إليه الا أن طريق الإطناب تشتمل على منزله من المنازه لا يوجد فى طريق التطويل. فلا يرى فيه مجرد

^{٣٤} . نفس المصدر ط بولاق ص : ٢٩٤

^{٣٥} . المثل السائر ط بولاق ص ٢٩٧

تطويل بل يفرق بينه وبين الإيجاز ثم يقسم الإطناب إلى قسمين ، إطناب فى الجملة الواحدة ، وإطناب فى الجملة المتعددة ، ثم يعرض أمثلة من البلاغة فى الإطناب ويطول الكلام فيه .^{٣٦}

النوع السابع عشر التكرير

يبحث فى هذا الفصل عن التكرير وهو عنده دلالة اللفظ على المعنى مرددا ويقسمه إلى قسمين : الأول تكرير فى اللفظ والمعنى ، والثانى: تكرير فى المعنى فقط ثم يقسم كلا القسمين إلى المفيد وإلى غير المفيد ويدخل ضمن الإطناب - التكرير والإعتراض اللذان جعلهما نوعى السابع عشر والثامن عشر .^{٣٧}

النوع الثامن عشر الاعتراض

وقد مر آنفا أن الاعتراض داخل تحت الإطناب .^{٣٨}

النوع التاسع عشر الكناية والتعريض

نقد السابقين فى هذا الفصل لأنهم خلطوا بين الكناية والتعريض ثم حاول أن يفصل بينهما قائلا : أن الكناية هى ما وردت وتجاوزها جانباً الحقيقة والمجاز ، وجاز حملها على الجانبين معا ، أما التعريض فهو اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى لا المجازى ، وبين سبب الخلط فقال إن الكناية معنى يفهم بعد الكلام سواء أكان حقيقة أو

^{٣٦} . نفس المصدر ص : ٣٣١

^{٣٧} . نفس المصدر ص : ٣٥٤

^{٣٨} . نفس المصدر ص : ٣٧٢

مجازا فلا مانع أن يكون الكلام استعارة وهو في نفس الوقت كناية لكن المعنى الحقيقي للفظ حينئذ لا يراد بل يراد المعنى المجازي ثم المعنى الثاني اللازم عنه . ويذكر عن إطلاعه على غير اللغة العربية بأنه وجد الكناية والتعريض في اللغة السريانية في الإنجيل وفي اللغة الفارسية.^{٣٩}

النوع العشرون المغالطات المعنوية

وهي من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية وحقيقته أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شئ آخر وينقصه والنقص أحسن موقعا وألطف مأخذا وقد مثل له من كتابته ومن الشعر .^{٤٠}

النوع الحادي والعشرون الأحاجي

ويقال له أغاليط الكلام أو الألغاز وألغاز جمع لغز وهو الطريق الذي يلتوى بسالكه ويشكل عليه وقد يسمى المعنى وهذا القسم متصل بالتورية وهو عنده كل معنى يستخرج بالحدس والحذر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا .^{٤١}

النوع الثاني والعشرون المبادئ والإفتتاحات

تحدث عنها في الفصل التاسع من المقدمة كأحد الأركان الخمسة للكتابة " وذلك بأن يجعل الكلام من الشعر أو من النثر أو من الرسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام " وقد اهتم بها البلغاء والنقاد من قديم بمطالع القصائد لأنه أول ما يصفح الأسماع وعليها يعتمد الأثر الأول للقصائد ، ثم يتحدث عن مطالع الشعر والرسائل وعن مطالع السور القرآنية ويجيئ بأمثلة من

^{٣٩} . المثل السائر ط بولاق ص : ٣٧٢

^{٤٠} . نفس المصدر ص : ٣٩٢

القرآن والحديث والشعر ومن الرسائل لنفسه ، وهنا يعود إلى انتقاصه للصابي في افتتاحاته على الرغم من التزامه السجع فأسلوبه لا بأس به والفضل في ذلك لما يملأ به كلامه من معاني القرآن والحديث والشعر .^{٤٢}

النوع الثالث والعشرون التخلص

هو الخروج من معنى إلى معنى آخر والأصل فيه الخروج من النسيب إلى المديح في الشعر ، ويرى ضياء الدين أن الخروج من غزل إلى مديح أغزل منه ، ويذكر هنا بعض ما قاله النقاد السابقون في التخلص ثم ناقش آراءهم فذكر منهم الغانمي فإنه أخطأ في قوله إن القرآن خال من التخلص " فاعترض عليه قائلا " وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعد والتذكير إلى الإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد وعيد ومن محكم إلى متشابه " ... ثم يقول يا لله العجب كيف يزعم الغانمي أن القرآن خال من التخلص ! ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فإنها قصة برأسها وهي مضمنة شرح حاله معى اخوته من أول أمره إلى آخره وفيها عدة تخلصات في الخروج من معنى إلى معنى وكذلك إلى آخرها .^{٤٣}

النوع الرابع والعشرون التناسب بين المعاني

يتحدث فيه عن أقسامه الثلاثة أي المطابقة وصحة التقسيم وترتيب التفسير فالمطابقة في علم المعاني ضد التجنيس في الألفاظ بأن يكون المعنيان ضدين مثل سواد وبياض وليل ونهار ويتصل بها المؤاخاة فإنه في الأصل ذكر المعنى مع أخيه لا مع الأجنبي فيقرن الوصف بما يقرب منه ويلتئم به .^{٤٤}

ومن التناسب صحة التقسيم لا فساد وليس كما يذهب إليه المتكلمون من قسمة عقلية كقولهم " الجوهر لا تخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة و مفترقة معا أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة " فهي قسمة صحيحة من العقل لاستيفاء الأقسام

^{٤٢} . المثل السائر ط بولاق ص : ٤٠٤

^{٤٣} . نفس المصدر ص : ٤١٧

^{٤٤} . المثل السائر ط بولاق ص ٤٢٩

جميعها وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده . وهنا ينتقد الفلاسفة مع المتكلمين وهذا يدل على معرفته طريقة الفلاسفة والمتكلمين على الرغم من إنكاره عليهم فهو مخالف لهم في تذوقه الأدب تذوقا صحيحا ، و ترتيب التفسير أيضا من التناسب بين المعانى وقد ذكر له أمثلة من إنشائه وحده .^{٤٥}

النوع الخامس والعشرون الإقتصاد والتفريط الإفراط

يبين حد لكل من الضروب الثلاثة فالتفريط التقصير فى المعانى عن المطلوب والإفراط الإسراف والزيادة أو الغلو فيها والإقتصاد الاعتدال والتوسط بين الطرفين أى موافقة معنى الكلام المضرر فى العبارة للغرض وقد ذكر أمثلة لكل قسم منه وأطنب الكلام فيه.^{٤٦}

النوع السادس والعشرون الإشتقاق

الإشتقاق من مباحث الصرف وهو على ضربين : صغير و كبير فالصغير إسم الفاعل والمفعول نحو سالم ومسلم ، والكبير تغيير ترتيب حروف الصيغة مثل رقم وقمر ، ويذكر أن جماعة من علماء البيان يفصلون الإشتقاق عن التجنيس وليس كذلك بل التجنيس أمر عام لهذا النوعين من الكلام .^{٤٧}

النوع السابع والعشرون التضمين

التضمين عند النقاد من عيوب الشعر وهو على ضربين - الحسن والمعيب ، فالتضمين الحسن هو ما يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يضمن الآيات والأخبار النبوية وهو يرد على وجهين كلى أو جزئى ، وأما التضمين المعيب فهو تضمين الإسناد وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الأول منها مسندا إلى الثانى فلا يقوم الأول بنفسه ولا يتم معناه الا بالثانى وهذا هو المعداد من عيوب الشعر وأما عند ضياء الدين فهو غير معيب لأنه

^{٤٥} . نفس المصدر ص : ٤٢٩

^{٤٦} . نفس المصدر ص : ٤٤٧

^{٤٧} . المثل السائر ط بولاق ص : ٤٥٥

إذا كان السبب في عيبه مجرد تعلق البيتين في المعنى فليس ذلك بعيب وشاهده على ذلك القرآن فان آياته تتعلق بعضها ببعض فلا تفهم كل واحدة منهن الا بالتى تليها ولو كان عيبا لما ورد في كتاب الله عز وجل .^{٤٨}

النوع الثامن والعشرون الإرساد

وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها لها أى أعدها له فإذا أنشد صدر البيت عرف ثانى صدر قافيته وذلك من محمود الصنعة لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض وقد سمي أبو هلال العسكري هذا النوع التوشيح ، وقد جاء الإرساد في القرآن أيضا ، وقد تحدث ضياء الدين في هذا الفصل عن شعبذات الحريرى وأمثالها من تأليف رسالة مهمة الحروف وأخرى معجمة وسمى ذلك شعبذة ومعالجة ومصارعة.^{٤٩}

النوع التاسع والعشرون التوشيح

يقول في باب التوشيح وهو أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفین فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى على شعره من القافية الأخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح ، والتوشيح يجرى في المنثور أيضا لكن استعماله في الشعر أحسن منه في الكلام المنثور .^{٥٠}

^{٤٨} . نفس المصدر ص : ٤٥٧

^{٤٩} . نفس المصدر ص : ٤٦٠

^{٥٠} . المثل السائر ط بولاق ص : ٤٦٥

النوع الثلاثون السرقات الشعرية

عد بحثه فى السرقات الشعرية من أمتع المباحث فى المثل السائر وأوفاهها فقد أفرد لها بابا موسعا يقع فى نحو من ثمانين صفحة ، تناول فيه أهمية هذه الدراسة و هو باب أصيل من أبواب النقد ، وكلامه هنا حلقة من سلسلة متكاملة بدأها فى كتابه الجامع الكبير وتبعها هنا ثم أتمها فى كتابه الإستدراك ، تكلم هنا عن فائدتها وعن أقسامها الثلاثة وبين أثناء كلامه عنها - الموازنة بين الشعراء فانتقد بعضهم وفضل بعضهم على بعض ، أما الفائدة فقال : واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى إذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول لكن لا ينبغي لك أن تجعل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى نفسك بالسرقة^{٢١}

ويرى أنه لا عيب فى الأخذ عن السابقين لأنه لا يوجد من لم يتأثر بأحد وانما المراد على كيفية الأخذ وإخفائه فى ذلك يقول : فإذا قيل إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدعا ، عورض ذلك بما ذكرته ... والصحيح أن باب الإبتداع للمعانى مفتوح الى يوم القيامة ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له الا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه أولا يطلق عليه إسم الإبتداع لأول قبل الآخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول كقولهم فى الغزل : شعر ،

عفت الديار وما عفت * آثارهن من القلوب ،

وكقولهم فى المديح شعر : إن عفاءه كالبحر وكالسحاب ،

وهكذا أورد كثيرا من المعانى المشتركة التى لا يختص بها شاعر دون شاعر فتوارد الشعراء عليها لا يسمى سرقة على رأى ضياء الدين ، ثم تقدم خطوة فذكر أنه ألف كتابا فى السرقات وقسمها فيه إلى ثلاثة أقسام : النسخ والسلخ والمسلخ ثم يقول وهاهنا قسمان آخران أخللت بذكرهما فى الكتاب الذى ألفتة فأحدهما المعنى مع الزيادة عليه والآخر عكس المعنى وهذان القسمان ليس

سلخا ولا مسلخا ولا نسخا، وكل قسم من هذه الأقسام يتفرع ويتنوع وتخرج به القسمة إلى مسالك دقيقة .

ثم استأنف فتحدث عن تجربته الشعرية ومدى حفظه منها لأن الوقوف على السرقات الشعرية لا يمكن الا بحفظ الأشعار الكثير ، ويطول الكلام فى البحث عن الموازنة بين الشعراء وفى المفاضلة أحد الشاعر على الآخر ويحلل قصائد شاعرين فيذكر الفاضل من المفضل فى المعانى والأسلوب ويظهر رأيه أن التقدم الزمنى ليس له كبير أهمية فى تقديم شاعر على شاعر ويفصل القول فيه.

ويختم الكتاب بذكر رأيه فى شرف علم البيان ورأيه فى إعجاز القرآن ثم الإعتراض على الصابى فى حديثه عن الشعر دون النثر بأن الإحسان من منثور الكلام يخالف طريق الإحسان فى منظومه ثم يذكر أن العجم يفضلون فيه العرب ويشير إلى " شاه نامه " للفردوسى قائلا إنه قرآن القوم ، يقول :

" وعل هذا فإنى وجدت العجم يفضلون فيه العرب فى هذه النكتة المشار اليها فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعر وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف " بشاه نامه " وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع القوم وفصحاءهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر ^{٩٢}

المثل السائر بين ناقيه ومنتصره

ولما كان كتابه المثل السائر يحمل أهمية كبرى فى سماء الأدب والنقد وصناعة الإنشاء ويشار إليه بالبنان اهتم به الأدباء والعلماء والنقاد اهتماما بالغاً فراحوا يكتبون بحوثاً ودراسات حول

^{٩٢} . المثل السائر تح بدوى طبانة قسم الرابع ص : ١٤

فعالياته النقدية والأدبية في الثناء عليه أو الحط من شأنه وظلوا بين مؤيده منتصر له وبين معارض له متحامل عليه ، فيليق بنا أن نذكر الفرقتين وبحوثهما في الأوراق الآتية بالإيجاز فنقول :

إن الدكتور محمد زغلول سلام أستاذ شرف في اللغة العربية وآدابها بجامعة خرطوم قام في صف منتصره فألف كتاباً حول فعالياته النقدية لم يوجد مثله حول كتبه وسماه " ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد " وقد طبع هذا الكتاب من مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٦ م ، وكتب الدكتور المذكور أيضاً بحوثاً جيدة حول المثل السائر أخرجها دار المعارف المصرية بإسم ضياء الدين ابن الأثير تحت سلسلة " نوايغ الفكر العربي " رقم ٣٦.

وللأستاذ أحمد محمد عنبر سفر نفيس مع ضياء الدين في كتابه المثل السائر سماه " جولة مع ضياء الدين بن الأثير في كتابه المثل السائر " طبع هذا الكتاب من مطابع دار الكتاب العربي بمصر عام ١٩٥٤ م.

إن الأستاذ محمد عنبر نقده فأعنف فيه أحياناً وانتصر لرأيه أحياناً أخرى فلما أن تم جولته قال ليس معنى هذا أن نتيجة هذه الرحلة هي سوء رأى في ابن الأثير كلا والله فإنني به لجد معجب وما ذكرته عنه ليس إلا نقداً يسيرة بالنسبة إلى فضله العظيم في كتابه العظيم^{٣٣} وأظهر من عارضه هو عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني في كتابه " الفلك الدائر على المثل السائر " يقول ابن خلكان : ولما فرغ أي ضياء الدين ، من تأليفه أي المثل السائر كتبه الناس عنه فوصل إلى بغداد منه نسخة فانتدب له الفقيه الأديب عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن حسين بن أبي الحديد المدائني وتصدى لمؤاخذته والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه الفلك الدائر على المثل السائر^{٣٤}

ثم يقول ابن خلكان : فلما أكمله وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي أحمد فكتب إلى أخيه المذكور :

^{٣٣} . أحمد محمد عنبر: جولة مع ضياء الدين بن الأثير في كتابه المثل السائر ص ٧٥

^{٣٤} . ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢٧ / ٥

المثل السائر يا سيدى * صنفتم فيه الفلك الدائر

لكن هذا فلك دائر * تصير فيه المثل السائر **

نشره بدوى طبانة وأحمد الحوفى فى نهاية المثل السائر من دار النهضة المصرية عام ١٩٦٤ م ولم ينشره المحقق محى الدين عبد الحميد فى طبعته لأنه لم يجد فيه ما يبعث على تحقيقه و بذل الجهد فيه إذ يقول : ولا أحب أن أعلق على هذا الكلام ولكنى أقول إنى لما قرأت الكتاب وكنت أفكر فى نشره بأسفل صفحات هذا الكتاب عند مواطن النقد لم أجد فيه ما يبعث على تحقيقه وبذل الجهد فيه ^{٥٦}

وإضافة إلى ذلك يقول محى الدين " والواقع أن كتاب الفلك الدائر يبدو لمن يتصفحه وهو منصف أن روح التحامل هى التى أملت على مؤلفه وأنه كتب مع رغبته ملحة فى النيل من ابن الأثير والغض من عمله ... فتعرض فى الغالب لما لا ينبغى أن يتعرض له أديب يؤثر اللباب على القشور وترك أشياء هى أولى بالنظر والرعاية " ثم يقول ولم يكتف ابن أبى الحديد بهذا الكتاب بل انتهز الفرصة فى شرحه " نهج البلاغة " فينقل كلام ابن الأثير ويعترض عليه ^{٥٧}

ويقول شهاب الدين النجفى فى مقدمة أسد الغابة : ولعمري أن ردود ابن أبى الحديد غير متوجهة إليه ولا واردة عليه كما هو واضح فى الغاية لمن ارتوى من كاس الأدب تعرف أو كان من العرب بشرط الإنسلاک فى طريق الإنصاف والتحرز عن إعتساف ^{٥٨}

ويقول بدوى طبانة : يتبين من دراسة الفلك الدائر أن ابن أبى الحديد كان معجبا بنثر ابن الأثير وبراعته فى حل المنظوم والاقتباس من القرآن والحديث النبوى ويغلب على نقده الموضوعية ... بعضه حق وبعضه مجانب للحق وبعضه أنه يتحامل أحيانا ويقسو على ابن الأثير ^{٥٩}

^{٥٥} . نفس المصدر ص : ٢٧ / ٥

^{٥٦} . مقدمة المثل السائر للمحقق محى الدين عبد الحميد ص : يز

^{٥٧} . نفس المصدر ص : يط

^{٥٨} . مقدمة أسد الغابة لشهاب الدين النجفى

^{٥٩} . مقدمة الفلك الدائر لبدوى طبانة ص : ٣٢-٢٩

هكذا وجدنا الفلك الدائر محاولة ضئيلة للنقد على المثل السائر لأنه قليل الشأن من الناحية العلمية وإن صاحبه كان عاملا الغيرة ماثلا في تأليفه دفعه عليه الحسد والحقد والعناد والغيرة كما يدل قوله الآتي:

إن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جدا وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن وأوصلوا منه نسخا معدودة إلى مدينة دار السلام أشاعوه وتداولوه كثير من أهلها فاعترضت عليه بهذا الكتاب^{٦٠}

وقام خليل بن أبيك الصفدى فى صف خصوم ضياء الدين فصنف كتابه المعروف " نصره الشاعر على المثل السائر" أخرجه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الأستاذ محمد على السلطاني سنة ١٩٧٢م^{٦١}

يتناول الصفدى فى كتابه هذا كثيرا من نظرات ضياء الدين البلاغية والنحوية واللغوية والنقدية بالاعتراض والنقد فيوضح رأيه فيه مدعما آراءه بما أوتى من ذوق صقلته الممارسة الأدبية فى الشعر والنثر ، يتفق كتاب الصفدى مع الفلك الدائر فى اتجاهه العام ويختلف فى كثير من الأصول ويمتاز عليه بالرأي الصائب والذوق البصير ثم ينفرد عنه فى اعتراضه على ضياء الدين فى مسألة خلق المعاني وضرورة المشاهدة للإبداع على مثالها ويعيب عليه فى آخر الكتاب تفضيله النثر على الشعر، على أن الصفدى لا ينكر تقدم ضياء الدين فى العلم والأدب وفضله فيهما إذ يقول :

على أننى لا أنكر ما له فيه من الإحسان والنكت التى هى لعين هذا الفن إنسان ، فإنه لم يأل جهدا فى التوقيف الذى وقفه ولم يقتصر فى التثقيف الذى ثقفه ، وقد نسبه على مخبات هذا الفن ، وأشار إلى اقتناص ما شرد منه وما عن ، وإذا اتفق للشاعر أو للكاتب مراجعة المثل السائر والفلك الدائر وهذه الأوراق فلا مرية فى أن ذلك يفيد فوائد جمة^{٦٢}

^{٦٠} . الفلك الدائر ص : ٣-٤

^{٦١} . مجلة قافلة الزيت ص ٤٢ سنة شوال ١٣٩٣

^{٦٢} . نصره الشاعر على المثل السائر للصفدى ص: ٤-٥

أخيرا فى استطاعنا أن نقول إن المثل السائر من أهم الكتب التى صنف فى البلاغة والنقد الأدبى وصناعة الإنشاء وأعظمها وله ميزات خاصة يمتاز بها تحت أديم السماء وكفى بما ذكره ابن خلكان أهمية وميزة ، يقول ابن خلكان :

” ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبيله كتابه الذى سماه ” المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ” وهو فى مجلدين كبيرين جمع فيه فأوعى ولم يترك شيئا مما يتعلق بفن الكتابة الا ذكره “^{٦٣}.

ولعز الدين التنوخى رأى حول المثل السائر أبداه أثناء تعليقه على الجامع الكبير فى مجلة المجمع العلمى بدمشق بقوله : اشتهر به شهرة أدبية طغت على شهرته السياسية وعرف بعلوم البلاغة والبيان أكثر مما عرف بالوزارة والديوان ولا أعرف أدبيا له رأى فى البيان وأساليبه الا وللمثل السائر أثر بين فى تقويم أسلوبه وإرشاده إلى وسائل الملكة العربية “^{٦٤}.

و يقول الدكتور محمد زغلول سلام بعد ما طول الكلام فى ذكر نقد اللاحقين واعتراضات المعترضين :

” ولم تنقص اعتراضات المعترضين من مكانة ضياء الدين وكتابه المثل السائر بل ظلت منزلتها سامقة وازدادت سموقا بتوالى الزمن واستطاع المثل السائر أن يرقى إلى مرتبة كتب الأدب الكبير فيطاول البيان والتبيين والكامل واشتهر بين علماء البلاغة والبديع وكتاب الإنشاء وما ندر من هؤلاء من ألف فى القرون التالية كتباً ولم ينقل عن المثل السائر أو الجامع الكبير ومن أبرز من نقل عنه القلقشندي فى صبح الأعشى وأعجب بآرائه وكتابات وقرنه فى إحدى رسائله بالمتنبى إعجابا به ، والنويرى فى نهاية الأرب وقد لخص فيه آرائه البيانية عن المثل السائر ، وشهاب الدين محمود الحلبي صاحب ” حسن التوسل إلى صناعة الترسل ” وتقى الدين السبكي صاحب ” عروس الأفراح ” ، سعد الدين التفتازانى صاحب ” المختصر المعانى ” ، وابن حمزة العلوى صاحب ” الطراز ” وابن حجة الحموى صاحب ” خزانة الأدب وثمرات الأوراق ” وقد عده فى كتابه الأخير من كبار الكتاب واختلف موقف هؤلاء فى تأثرهم به بين معجبين برسائله وآرائه

^{٦٣} . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٥ / ٢٧

^{٦٤} . مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق : الجزء الأول من المجلد الخامس والثلاثون عام ١٩٦٠ م

البيانية ... وكذلك تأثر بطريقته فى الكتابة بحل المنظوم والقرآن والحديث جماعة من الكتاب المتأخرين".^{٦٥}

ويقول الدكتور أنيس المقدسى فى فضل الكتاب وصاحبه : ومما لا ريب أنه من طبقة البارزين من الأدباء القدامى ، يكفى أن نذكر له كتابه المشهور " المثل السائر" فهو من أهم الكتب القديمة التى صنفت فى البلاغة والنقد الأدبي لا نبالغ إذ قلنا أن ابن الأثير كان فى هذا الكتاب آخر حلقة من السلسلة العظيمة التى انتظمت قدامة ابن جعفر فى نقد الشعر وأبا هلال العسكري فى الصناعتين وأبالحسن الجرجاني فى الوساطة وعبد القاهر فى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وابن رشيق فى العمدة وابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة وسواهم من كبار النقاد والبلاغيين^{٦٦}

وللدكتور بدوى طبانة دراسة مستفيضة حول المثل السائر وآراء ضياء الدين نشرت فى مجلة تراث الإنسانية يقول فيها :

" وبالمثل السائر عرف ابن الأثير علما من أعلام الدراسات الأدبية عالما وأديبا وبلاغيا ناقدا وهو أساس شهرته التى طغت على شهرته السياسية التى أقصى ما يتطلع إليه أمثاله وهو منصب الوزارة الذى شغله مدة طويلة وقد كانت شهرته مقترنة على مر الزمان بشهرة كتاب المثل السائر أكثر اقترانها بأى منصب تولاه أو أى كتاب ألفه".^{٦٧}

ويقول الأستاذ محمد عنبر : وكتابه يعتبر الخطوة الأخيرة لاكتمال النقد العربى المبني على القواعد الصحيحة والذوق السليم ... وهو سجل تاريخى للأدب فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع بما أورده من أمثلة كثيرة له ولصديقه عبد الرحيم صاحب طريقة الفاضلية ومن يستعرض فيه الأمثلة والشواهد منسوبة إلى عصورها حتى عصره يستطيع أن يؤرخ للأدب العربى وللنقد فى أكثر من ثمانية قرون مستعينا بنظريته الصادقة فى الحكم على الأدباء والشعراء

^{٦٥} . محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ص : ٣٧١

^{٦٦} . أنيس المقدسى ، مقدمة رسائل ابن الأثير ص : ٩

^{٦٧} . مجلة تراث الإنسانية : ١١٣-١٠١ / ٢

جاهليين وإسلاميين و عباسيين وفضل الكتاب بعد ذلك لا حد له ولا قدرة لي على الإحاطة بكل فضائله^{٦٨}

ويقول الدكتور عبد الكريم الأشر : يعتبر المثل السائر أجمع كتاب نقدى فى عصره لأصول النقد والبلاغة حتى ليعد خلاصة ذكية لا تخلو من إصالة لدراسات النقاد والبلاغيين السابقين ، وأيضا يقول : والذى ينتهى إليه رأينا فى المثل السائر أنه كتاب عظيم بالقياس إلى مرحلته الزمنية دل فيه ضياء الدين على انفتاح وسعة ونفوذ فى الحس وقدرة على التذوق والتحليل وانتصار لكثير من قيم الفن الصحيحة ومقاييسه فوق ما حوى الكتاب من تلخيص مركز لدراسات النقاد والبلاغيين السابقين على ابن الأثير وأكثر ما يؤخذ عليه أن النظرات الشخصية فيه لا تكون مذهباً نقدياً متسقاً واضحاً ولا نظرية نقدية عامة فهو اذا شبيه بعمدة ابن رشيق".^{٦٩}

ولقد صدق الدكتور أحمد أمين حين قال : ومن أهم الكتب النقدية كتاب المثل السائر لابن الأثير وهو كتاب قيم مملوء بالالتفاتات الأدبية الرائعة التى تدل على ذوق بارع".^{٧٠} ثم قام الدكتور محمود فرج العقيدة فذكر أوصافاً حميدة جامعة لا يوصف بمثلها أحد وهو قوله : " وكتاب ابن الأثير هذا صورة واضحة لثقافته المتنوعة فهو كتاب نقد وأدب بحيث لو جرد من أبحاثه البلاغية لكان فى مقدمة كتب النقد والأدب وهو كتاب بلاغة وبيان بحيث لو جرد مما فيه من نقد وأدب لكان من أوفى كتب البلاغة والبيان ثم هو بإزاء ذلك مثال لرسائل ذلك العصر الإنشائية والديوانية البديعة التى تغلب عليها طريقة القاضى الفاضل التى تجاوزت إنشاء الرسائل إلى التأليف كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين الإصفهاني وهو طريقة السجع والتجنيس والتضمين وحل الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والصناعية اللفظية بأجلى مظاهرها ولا عجب فى ذلك فإن ابن الأثير عاصر القاضى الفاضل وعاشره وراسله"^{٧١}

^{٦٨} . أحمد محمد عنبر : جولة مع ضياء الدين ابن الأثير الجزرى فى كتابه المثل السائر ص ٧٧

^{٦٩} . مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق : ٤٢ / ٥٣٣ - ٣٩

^{٧٠} . أحمد الأمين : النقد الأدبى ص: ٤٥٢

^{٧١} . محمود فرج العقيدة: مجلة الأزهر : ١٣ / ١٢٤ - ٢٥ عام ١٩٩٤ م

٢. الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور

ومن آثاره المطبوعة " الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور" لم يذكره ابن خلكان فى وفياته وعده الزركلى فى الأعلام من المخطوطات وقد نشره المجمع العلمى العربى العراقى بتحقيق د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد عام ١٩٥٦م.

اعتمد المحققان فى تحقيق الكتاب على مخطوطة دار الكتب المصرية (المرقمة ٢٧٠ بلاغة)، وبذلا جهودا شاقة فى اخراجه بهذه الصورة، وجاء الكتاب فى ٢٧٤ صفحة بطباعة حسنة جدا .

وفاتهما النسخة الموجودة بمكتبة خدا بخش بكنه فوهى بالهند التى تعود الى القرن السابع الهجرى وهى مكتوبة بخط نفيس مشكول تحت رقم ١٢٠٩٥ ج بلدية، وليته كانت هذه النسخة عند المحققين وقت اخراجهما الكتاب فلعلها كانت أشد معونة لهما فى التحقيق^{٧٢}

محتويات الجامع الكبير ومباحثه

إن الجامع الكبير والمثل السائر متحدان فى الموضوع والمنهج متماثلان فى غالب الأبواب ، فبدأ الكلام فيه بمقدمة شبيهة بمقدمة المثل السائر يتكلم فيها عن ألف قبله فى علم البيان وما أفاده ثم يذكر ما أضافه هو ،

ويوزع الكتاب على قطبين الأول فى الأشياء العامة والثانى فى الأشياء الخاصة وقسم القطب الأول الى فنين الأول فيما يجب على مؤلف الكلام -الإبتداء به فيدور الكلام حول ما دارت فيه مقدمة المثل السائر والفن الثانى فى الكلام على الألفاظ والمعانى وهو ثلاثة أبواب الباب الأول فى الألفاظ المفردة والمركبة والثانى فى الكلام على المعانى والثالث فى تفضيل الكلام المنثور على المنظوم ،

^{٧٢} . مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق : الجزء الرابع ج ٣٥ / ٦٦٦ عام ١٩٦٠

والقطب الثانى يتكلم فيه على فنين الأول فى الفصاحة والبلاغة والثانى فى ذكر أصناف البيان وانقسامتها ويشتمل على بابين الأول فى الصناعة المعنوية وقد تكلم فيه عما تكلم عنها فى المثل السائر فى المقالة الثانية كالإستعارة والتشبيه وغيرها والباب الثانى فى الصناعة اللفظية وتحدث فيه عما تحدث عنها فى المقالة الأولى فى المثل السائر الا أنه ذكر فى الباب الأول تسعة وعشرين نوعا وفى المثل السائر ثلاثين نوعا وفى الثانى سبعة ابواب وفى المثل السائر ثمانية فقد تواردا الكتابان على أربعة وعشرين بابا واختلفا فى الباقي وقد تكلمت عنها بالتفصيل فى الباب الثالث فلا نعيدها هنا.

٣. الإستدراك

ومن آثاره المطبوعة " الإستدراك فى الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعانى الطائفة " طبع بمطبعة الرسالة بالقاهرة بواسطة مكتبة الإنجلو المصرية عام ١٩٥٨ م قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور حفى محمد شرف ، ويقع فى نحو ٢١٥ صفحة ذات قطع متوسط وفى آخره فهرس للموضوعات وفهرس المراجع وفهرس الأعلام والأماكن ولم نجد له طبعة سواها.

وهذا هو ثالث مؤلفات ضياء الدين يبدو أنه ألفه بعد أن ألف المثل السائر والجامع الكبير وجمال جولات رائعة فى النقد وميدان البيان، ألفه ليطبق فيه نظرياته وآرائه التى بثها وأرسى أصولها فى كتابيه السابقين كما يفهم من قوله فى بحث الألفاظ والمعانى وهو:

" ولو أخذت فى استقصائه لاتسع المجال لكنه يوجد فى كتابى الموسوم بـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " فإنه موضوع لبيان أسرار الألفاظ والمعانى وتفصيل أقسامها^{٣٣}

ألفه ليرد به على النحوى اللغوى أبى سعيد بن المبارك بن الدهان المتوفى ٥٦٩ هـ فى كتابه الموسوم بالمآخذ الكندية من المعانى الطائفة " ويؤاخذة على ما كان منه ، ويناقشه فى مؤاخذته للمتنبئ ، ويستدرك على ما تركه من المآخذ، وينقده فيما أخذه على المتنبئ ، لأن ابن الدهان

كان لغويا نحويا لا علاقة له بالشعر ونقده فلم يرض بالنقد الموجه منه للمتنبئ يقول فى مقدمة الكتاب :

" ولما وجدت ابن الدهان قد ألف كتابه الموسوم "بالمآخذ" أنشأت كتابى هذا وسميته بالإستدراك فى الأخذ على المآخذ وتكلمت على الحسن والقبح فى مواضعه ثم بينت أن علم الشعر والمعرفة بجيده ورديئه لا يحيط النحوى به علما بمجرد معرفته لعلم النحو"^{٧٤}

أما الكتاب فيبدأ بمقدمة طويلة مع نقده لابن الدهان ، وأهم ما يتحدث فيها عن الشعر ونقده والمفاضلة بين الشعراء والسرقاات الشعرية والشعر القديم والمحدث وموقف النحويين واللغويين من الشعر ونقده ثم يورد ما أورده ابن الدهان من سرقاات المتنبئ من أبى تمام فاستدركه عليه بما تيسر له ،

يبدأ الكلام فيه بالهمزة وينتهى بالياء ويقسم كل حرف منها الى فصلين :الأول فى ذكر ما أورده ابن الدهان والثانى فى المستدرك عليه ،ويذكر أثناء كلامه نظريات جديدة كنظرية عمود المعانى وما يخرج عنه من الشعب فيشير هناك الى كتابه الذى ألفه فى عمود المعانى^{٧٥} ثم تكلم على توارد الشعراء على عمود المعانى وما خرج على هذا العمود وما صار من الشعب ثم أوضح ما خرج من الشعب بالأمثلة الكثيرة .

٤. الوشى المرقوم فى حل المنظوم

ومن آثاره المطبوعة الوشى المرقوم فى حل المنظوم ، ذكره فى المثل السائر أكثر من مرة وقال عنه ابن خلكان : وله كتاب الوشى المرقوم فى حل المنظوم وهو مع وجازته فى غاية الحسن والإفادة^{٧٦}

^{٧٤} . نفس المصدر : ص:٥٠

^{٧٥} . الإستدراك ص: ١١-١٢ ، يقول فيه : وقد ألف فى ذلك كتابا وسميته "عمود المعانى" وجعلته مقصورا على ضروب المعانى الموجودة فى النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة وما يخرج عنها من الشعب وهذا كتاب تعبت فى تأليفه زمنا طويلا وأنا ضنين به.

^{٧٦} . المثل السائر ؛ تح عى الدين عبد الحميد : ٣٣٠/١ و وفیات الأعيان لابن خلكان : ٢٧/٥٠

نشره إبراهيم الأحذب لأول مرة من مطبعة ثمرات الفنون في بيروت عام ١٢٩٨ بغير أى تعليق عليه وبدون ذكر المخطوطة التى اعتمد عليها وكتب على غلافه " هذا كتاب الوشى المرقوم فى حل المنظوم تصنيف الوزير الأجل العالم الفاضل ضياء الدين ابى الفتح نصر الله بن محمد الشهير بـان الأثير تغمده الله برحمته " وصفحاته ١١٢. ^{٧٧}

ثم طبع بمطبعة منشورات المجمع العلمى العراقى فى بغداد سنة ١٩٨٩ بتحقيق الدكتور جميل سعيد ^{٧٨}

والنسخة التى حصلنا عليها هى من مطبوعات دار الفكر اللبنانى عام ١٩٩٢ والتى حققها وعلق عليها الشيخ عبد الله الشعار ولكنه لم يوضح عن المخطوطة التى اعتمد عليها . ألفه بعد تأليف المثل السائر كما يبدو من قوله فى مقدمة الوشى المرقوم:

" ولما ألغت كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر قصرت فصلا منه على ذكر هذه الطريقة وأتيت فيها بالمعانى الجليلة التى لا تفتقر الى الفهم الدقيق غير أنى أحلت فى مواضع منه على هذا الكتاب وجعلت لذلك رمز الإختصار ولهذا مكاشفة الإسهاب وقد سميته بالوشى المرقوم فى حل المنظوم ^{٧٩}

وجعل الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول فيبدأ بمقدمة طريفة يتكلم فيها عما يحتاج اليه الكاتب ويذكر ضمنه ما تحمل هو من الشدائد فى سبيل تحصيل ملكته تلك فيقول:

" وقد تتبعت أقوال الناس فى محاوراتهم فاستفدت بذلك فوائد كثيرة حتى من أكار وفلاح وأعجمى من الأعجام الأغتام ومن يجرى مجراهم فلا تقنع أيها الخائض فى هذا البحر الذى لا ساحل له الا بأن تفعل ما فعلته ^{٨٠}

^{٧٧} . عبد الله الحمدان ، بنو الأثير الفرسان الثلاثة ص: ١٣٤

^{٧٨} . د. سمر روى الفصيل: مقدمته على كتابه المختار من التراث العربى من كتاب المثل السائر لابن الأثير الجزرى ط. منشورات وزارة الثقافة

فى الجمهورية العربية السورية دمشق عام ١٩٩٦م

^{٧٩} . الوشى المرقوم ص: ٨

^{٨٠} . نفس المصدر ص: ٩-١٠

ثم يعرض موضوعات الكتاب موزعة إلى الفصول الثلاثة الفصل الأول في حل الشعر والفصل الثاني في حل آيات القرآن الكريم والفصل الثالث في حل الأخبار النبوية. والفصل الأول يقسمه إلى ثلاثة أقسام: في حل الأبيات التي لا يجوز تغيير لفظها ، وفي حل الشعر ببعض لفظه و في حل الشعر بغير لفظه ، و يوزع القسم الأول إلى أنواع عشرة و يجيئ بالأمثلة والشواهد و بما اخترعه من المعاني ، و يختم الكتاب بحمد الله بعد أن طول الكلام في حل الأخبار النبوية.

٥. كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب

ذكره الزركلي في أعلامه (٣١ / ٨) وذكره صاحب كشف الظنون باسم "تمثال الطالب لابن الأثير ولم يعين لأي الإخوة الثلاثة، وهو من آثاره المطبوعة طبع بمطبعة منشورات جامعة الموصل في سنة ١٩٨٢ بتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن وهلال ناجي ، واعتمد المحققون في تحقيق الكتاب على نسختين أولاهما مخطوطة خزانة محمد سرور الصبان بمكة المكرمة وهي النسخة التي جعلوها أصلا للتحقيق والثانية مخطوطة الجامعة التونسية فقد انتفعوا منها في المقابلة وإضافة ما سقط من النسخة الأصلية".^{٨١}

يمثل كتابه هذا مرحلة من مراحل اجتهاده وفترة متأخرة من فترات تأليفه فقد أكدت لنا قراءة الكتاب على أن هذا الكتاب قد ألفه ضياء الدين بعد المثل السائر لأنه انفرد هنا بإيراد أبواب جديدة لم يتطرق إليها قبلا ولم يوردها في المثل السائر ولا غيره من مؤلفاته مثلا إنه أورد هنا أبواب النسيب والمديح والإفتخار والرثاء والعتاب والهجاء والإعتذار والوعيد والإنذار والوصف وما إلى ذلك .

والكتاب يضم واحدا وستين بابا كما بيناه في الباب الثالث فلا نذكره مرة أخرى.

^{٨١} . د. نوري حمودي القيسي وزملاءه : مقدمتهم على كفاية الطالب ص : ٢٩-٣٠

و بعض الأبواب منه يشتمل على فصول وأنواع كثيرتين و ذكر أثناء الكلام عن هذه الأبواب كثيرا من النكت الأدبية والنقدية والبلاغية الرائعة التي تنبئ تجربته البلاغية والنقدية وانصرافه الحقيقي إلى علومها فقد استوعب فيه لفنون البلاغة واختار نماذجها الجيدة متحكما في الصيغ البلاغية التي قدمها في كل باب.

٦. رسائل ابن الأثير

نشر الأستاذ أنيس المقدسى مجموعة من رسائل ضياء الدين من دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٥٩ م بمساعدة المجمع العلمي العراقي واعتمد في تحقيقها على مخطوطة ترجع الى القرن السابع الهجرى المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول وعلى مخطوطة مكتبة جامعة بيروت الأميركية ، ذكر المحقق أن النسخة الأولى ترجع الى ما يقرب جدا من عهد ابن الأثير أى بينها وبين ضياء الدين أقل من عشرين عاما فانتخبها أصلا للتحقيق ثم حاول التوفيق بين النسختين فرجح أن مخطوطة استانبول هي المختار من ترسل ضياء الدين الذى أشار اليه ابن خلكان قائلا وله ديوان ترسل في عدة مجلدات والمختار منه مجلد واحد^{٨٢}.

ثم قام بنشر أجزاء من ديوان ترسل ضياء الدين الدكتور نوري حمودى القيسى وحاتم ضامن وهلال ناجى من منشورات جامعة الموصل سنة ١٩٨٢ وهى غير المجموعة التي نشرها الأستاذ أنيس المقدسى كما يقولون : وجدير بالذكر أنه ليس بين هذه المجموعة من رسائل ابن الأثير وبين المجموعة التي ننشرها اليوم أى اشتراك أو تكرار فى الرسائل أو المضمون والراجع عندنا ما نشره المقدسى وما ننشره نحن اليوم أجزاء من ديوان ترسله^{٨٣}.

^{٨٢} . أنيس المقدسى : مقدمته على رسائل ضياء الدين و ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢٧ / ٥

^{٨٣} . د. نوري حمودى القيسى وزملاءه : مقدمهم على كفاية الطالب لابن الأثير ص : ١٩

ثم بعد ذلك نشر الدكتور هلال ناجي مجموعة من رسائله من منشورات جامعة الموصل عام ١٩٨٦م وسماها ديوان ترسل ضياء الدين ابن الأثير وقد حققها وقدم لها وعلق عليها من قبل نفسه^{٨٤}

٧. رياض الأزهار

لم نجد ذكر هذا الكتاب في المصادر الا أن الدكتور سمر روي الفيصل تفرد بذكره في كتابه " المختار من التراث العربي من كتاب المثل السائر لابن الأثير الجزري " المنشور من وزارة الثقافة في الجمهورية السورية العربية عام ١٩٩٦ م وجعله من المطبوعات وذكر أن الدكتور هلال ناجي قام بتحقيقه ونشره من جامعة الموصل سنة ١٩٨٣ م ، ونحن لحد الآن لم نظفر به فلم نقدر على معرفة أصله و موضوعه.

٨. المفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء

ذكره الزركلي في الأعلام : ٣١/٨ ، وهو من آثاره المطبوعة المفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء طبع بمطبعة جامعة الموصل بتحقيق الدكتور هلال ناجي عام ١٩٨٣م^{٨٥}
تحدث فيه عن صناعة الكتابة ورتبه على بابين في مراتب الكتب والرسائل والمخاطبات وكيفية وضع الأسماء ومكانها في صدور الرسائل وصور العنوانات والأدعية والإنهاءات والرتب والألقاب والأسماء ويختمه بأبواب في البديع^{٨٦}

^{٨٤} . د. سمر روي الفيصل : مقدمته على كتابه المختار من التراث العربي من كتاب المثل السائر لابن الأثير الجزري ط. منشورات

وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٩٦م

^{٨٥} . الدكتور سمر روي الفيصل : مقدمته على كتابه " المختار من التراث العربي من كتاب المثل السائر لابن الأثير الجزري " المنشور

من وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية عام ١٩٩٦م

^{٨٦} . محمد زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده في النقد ص:

٩. الأدعية المئة المختارة

طبع هذا الكتاب ضمن كتاب المفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء المذكور أعلاه بتحقيق الدكتور هلال ناجي من منشورات جامعة الموصل سنة ١٩٨٣م^{٨٧}

ذكره ضياء الدين في مواضع متفرقة من المثل السائر والوشى المرقوم قال عنه في المثل السائر :
وكننت ألفت كتابا في ذكر أدعية مخصوصة ضمنته مئة دعاء مما توضع في الكتب السلطانية
والإخوانيات وضمنت على نفسي أن أودع كل دعاء منها معنى آية من القرآن أو خبر من
الأخبار النبوية أو معنى بيت سائر "

وقال في الوشى المرقوم : وقد أوردت هذا المعنى في دعاء آخر بغير هذا اللفظ وذكرته في
كتاب الأدعية التي أنشأتها وقد تقدم ذكره^{٨٨}

١٠. المناظرة بين الخريف والربيع

إن الدكتور نوري حمودي القيسي وزميله عدوه من المطبوعات ولكنهم لم يذكروا المطبعة ، وقد
جاء ذكر هذا الكتاب في نهاية الإرب للنويري^{٨٩}

١١. المرصع في الأدبيات

ذكره صاحب كشف الظنون منسوباً الى أخيه أبي السعادات المبارك ص ١٦٥٦ ، وذكره يوسف
سركيس في معجم المطبوعات ونسبه الى ضياء الدين وقال عنه "المرصع في الأدبيات أستاذة

^{٨٧} . الدكتور سمر روى الفيصل : مقدمته على كتابه " المختار من التراث العربي من كتاب المثل السائر لابن الأثير الجزري " المنشور

من وزارة الثقافة في الجمهورية السورية العربية عام ١٩٩٦م

^{٨٨} . المثل السائر : ٧٠/١ و ٩٧/١ والوشى المرقوم ص : ١٣٤

^{٨٩} . نهاية الإرب للنويري : ١٧٥/١ - ١٧٦ و مقدمة كفاية الطالب ص : ١٩

١٣٠٤ هـ ، وعلى الصفحة الأولى من هذه الطبعة كتب " دخى نشر " أى أنه الطبعة الأولى ، و طبع فى وليمار فرنسا سنة ١٨٩٦م موسوما بـ "المرصع فى الآباء والأمهات ونسب لأخيه أبى السعادات المبارك ابن الأثير ."^{٩٠}

أقول لم يعرف من أبى السعادات تأليف فى الأدب إذ كان ميدانه الحديث واللغة فإذا صحت نسبة الكتاب الى أحد أبناء الأثير الجزرى الثلاثة فهو لضيء الدين ألصق إذ كان ميدانه الأدب والنقد والبلاغة ، وأيضا يمكن أن يكون لأبى السعادات المبارك مرصع فى الآباء والأمهات كما كان لأخيه ضياء الدين مرصع أدبى فيكون هناك كتابان لا تعارض أحدهما الآخر .

آثاره المخطوطة

١. البرهان فى علم البيان

ذكره البغدادى فى هدية العارفين ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون ، والزركلى فى الأعلام^{٩١} و ذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة فى برلين بألمانيا برقم ٧٢٤٨ واسم الكتاب ينبئ عن موضوعه.

٢. مؤنس الوحدة

قال الدكتور محمد زغلول سلام: يشك نسبة الكتاب الى ضياء الدين وهو مجموع يحتوى طائفة من جيد الشعر لجماعة من الشعراء كالبحتري وابن الرومى وابى تمام وآخرين من الشعراء فى

^{٩٠} . يوسف سر كيبس : معجم المطبوعات العربية : ٣٦ / ١ و عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى : ٤٥٠ / ٣ .

^{٩١} . البغدادى : هدية العرفين : ٤٩٢ / ٢ - ٤٩٣ و عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة ص ١٥٠ .

القرنين الخامس والسادس وهو مرتب حسب الموضوعات فيبدأ بالمديح ثم الهجاء ،... فإذا صحت نسبة الكتاب إليه كان ذلك دليلاً جديداً على ذوقه وحسن درايته وتمكنه فى أصول البيان العربى وحذقه بدقائق آياته ، وجاء فى بروكلمان أن منه نسخة بدار الكتب المصرية مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة كوبريللى بالأستانة برقم ١٤٠٠ من مخطوطات القرن السابع الهجرى ، وعلى الصفحة الأولى أنه لابن الأثير ولم يعين أيهم ونسب فى فهرس دار الكتب المصرية الى ضياء الدين اعتماداً على نص فى صدر الكتاب^{٩٢}

٣. تحفة العجائب وطرفة الغرائب

ذكره صاحب كشف الظنون أنه لابن الأثير الجزرى ولم يعين لأيهم هو ، قال الدكتور محمد زغلول سلام : ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٩ مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة كوبريللى بالأستانة رقم ١٠٨٥ وهذه النسخة منسوبة الى ضياء الدين بالتعيين ثم قال الدكتور المذكور وهو مجموعة طريفة من مختار الشعر والنثر فى مشاهد الكون المختلفة من سماء ونجوم وشمس وقمر وماء ونهر وشجر ويقع فى جزئين كبيرين وهى فى موضوعها سبقت نهاية الأرب للنويرى ،^{٩٣}

وذكر جرجى زيدان أن منه نسخة فى المكتبة العثمانية بحلب^{٩٤}

٤. رياض الأزهار

ومنه نسخة خطية فى باريس بالمكتبة الأهلية ، وأخرى فى المتحف البريطانى ، وفى جامعة كمبردج وفى أسعد الآفندى بالأستانة ضمن بعض المجاميع الأدبية ، وكان الدكتور عبد الهادى

^{٩٢} . ضياء الدين وجهوده فى النقد :ص ٦٨ و بروكلمان : ٥٢١/١ و مقدمة كفاية الطالب ص: ٢٠ و بنو الأثير الفرسان الثلاثة ص:

^{٩٣} . حاجى خليفة الله : كشف الظنون : ٣٦٩/١ والدكتور محمد زغلول سلام : ضياء الدين وجهوده فى النقد،ص: ٦٨

^{٩٤} . جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية : ٨١/٣

محبوبة أستاذ كلية الآداب بجامعة الكويت قد أعلن في نشرة أخبار التراث العربي الصادرة من معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية- أنه يعنى بنشرها وتحقيقها معتمدا على مخطوطة جامعة كمبردج ومخطوطة المتحف البريطاني الا أن شيئا من ذلك لم يصدر لحد الآن^{٩٥}

٦. البديع

قال الدكتور محمد زغلول سلام: وهذا الكتاب موضوع فى البلاغة صغير الحجم يتكلم فيه عن أبواب من البديع مجردة فى غالب الظن من المثل السائر أو من الجامع الكبير ، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية^{٩٦}

قال الدكتور نورى حمودى القيسى إن هذا الكتاب وكتابه كفاية الطالب فى الأصل مخطوطتان لكتاب واحد فقد اختلط الأمر على الأستاذ محمد عبد الله الحمدان والدكتور محمد زغلول سلام^{٩٧}

وهناك خلط آخر وهو أنه لما كان يوجد بدار الكتب المصرية مخطوطة تحمل إسم البديع لابن الأثير ضياء الدين فى البلاغة فظن بعض الباحثين .. ومنهم الدكتور محمد زغلول سلام ومحمد محى الدين عبد الحميد أنها لمجد الدين المبارك واستبعدوا نسبتها له لأنه لا يعرف له تأليف فى البلاغة إذ كان ميدنه الحديث والفقه واللغة .

ولكن الذى يظهر جليا أن كتاب البديع المنسوب لمجد الدين هو فى النحو كما نص على هذا فى اسمه " البديع فى شرح الفصول فى النحو لأبن الدهان ، وأما البديع الموجودة مخطوطة منه بدار الكتب المصرية فهو فى البلاغة لضياء الدين ، فإنه قد يكون لمجد الدين المبارك بديع فى النحو كما كان لضياء الدين بديع فى البلاغة .^{٩٨}

^{٩٥} . جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣ / ٨١ و بروكلمان ٥٢١ / ١ ومقدمة كفاية الطالب ص ٢٠

^{٩٦} . محمد عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة ص: ١٥١ والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد: ٦٨

^{٩٧} . الدكتور نورى حمودى القيسى : مقدمة كفاية الطالب ص ٢٢

^{٩٨} . الأستاذ محمد عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة ص: ١٥١

٧. القول الفائق الأديب بعثبي وليد وذكرى حبيب

ينسب الى ضياء الدين هذا الكتاب ولكنه ليس له لأن مؤلفه متقدم عليه ؛ يقول الدكتور محمد زغلول سلام :

والمتصفح للكتاب يلمس بوضوح أنه ليس لضياء الدين ، ويأتيه الدليل فيمن ينقل عنهم المؤلف من رجال القرن الثالث الهجرى وأول الرابع كما أنه يبدو قريب الشبه فى منهجه وأسلوبه من كتاب الموازنة للآمدى إلا أنه ليس مما هو مطبوع منه ولعله متمم له^{١٩}

آثاره المفقودة

١. المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء

ومن آثاره المفقودة "المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء" ذكره ابن خلكان فى وفياته ووصفه قائلا " وهو أيضا نهاية فى باب " وسماه "إبن واصل فى مفرج الكروب " المعانى المبتدعة" وبالعنوان الأول أيضا ذكره البغدادى فى هدية العارفين^{٢٠}

^{١٩} . الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد ص: ٧٢-٧٣ . و عبد الله الحمدان : بنو الأثير الفرسان الثلاثة

ص: ١٥٦

^{٢٠} . ابن خلكان: وفيات الأعيان : ٢٨/٥ ، و ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى الأيوب: ١٠/٣ ، و البغدادى: هدية العارفين:

. ٤٩٢/٢

٢. مجموع اختار فيه شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبئ

ذكره ابن خلكان حين يقول : وله مجموع اختار فيه شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبئ وقال عنه وهو فى مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد ، ثم ذكر ما قال عنه أبو البركات ابن المستوفى فى تاريخ اربل وهو " نقلت من خطه فى آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علقا نفيسا فإنه اخ — * تيار بصير بالأمور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى * الى الشعر من نهج اليه قويم^{١١}

٣. المجرد من الأخبار النبوية :

جمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف خبر من منتخبات الأخبار النبوية وكان يهتم به اهتماما ملحوظا بأن حفظ منه الكثير فلزم مطالعته حتى ينهى مطالعته فى كل أسبوع مرة يقول ضياء الدين عن هذا الكتاب :

وكننت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل فى باب الإستعمال وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته فى كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظرى وخاطرى ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عنى منه شئ ، وهذا الذى أوردته ههنا فى حل معانى الأخبار هو من هناك^{١٢}
ويقول فى الوشى المرقوم : وكننت أتعبت نفسى زمانا فى ذلك حتى جمعت فيه كتابا يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية كلها يحتاج اليه فى أسباب الكتابة وكننت ألزم مطالعته كالحال المرتحل حتى صار لدى منضودا وبلسان قلمى معقودا^{١٣}

^{١١} ابن خلكان: وفيات الأعيان : ٢٨/٥

^{١٢} . المثل السائر : ١٢٨/١

^{١٣} . الوشى المرقوم ص: ٩

٤. المجرد من أمثال الميداني

ذكره ضياء الدين في المثل السائر حين قال : وكنت جردت من كتاب الأمثال للميداني أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذي يدخل في باب الإستعمال^{١٠٤}

٥. عمود المعاني :

تحدث عنه في كتابه الإستدراك حينما تكلم عن أعمدة المعاني وما يخرج من شعبها : قال وهكذا يجرى الحكم في أعمدة المعاني وما يخرج من شعبها .. وكنت ألفت في ذلك كتابا وسميته " عمود المعاني " وجعلته مقصورا على ضروب المعاني الموجودة في النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة وما يخرج عنها من الشعب وهذا كتاب تعبت في تأليفه زمنا طويلا وأنا ضنين به^{١٠٥}

يظهر من كلام ضياء الدين أهمية هذا الكتاب فإلخسارة بفقدانه جسيمة بالغة فياليتنا نجده.

٦ . السرقات الشعرية

ذكره في المثل السائر عن هذا الكتاب فقال : واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثرُوا ، وكنت ألفت فيها كتابا وقسمته ثلاثة أقسام نسخا وسلخا ومسحا^{١٠٦}

^{١٠٤} . المثل السائر تح عى الدين عبد الحميد : ١ / ٦١ . والمثل السائر تح بدوى : ٢٣/١

^{١٠٥} . الإستدراك ص: ١١-١٢ .

^{١٠٦} . المثل السائر : ٣٦٥/٢ .

٧. رسالة في أوصاف مصر:

يذكر ابن خلكان : وله رسالة يصف فيها الديار المصرية وهي طويلة ومن جملتها فصل في صفة نيلها وقت زيادته ، وهو معنى بديع غريب لم أقف لغيره على أسلوبه . وكذلك ذكره البغدادي في هدية العارفين^{١٠٧}

٨ . رسالة في الضاد والظاء

ذكرها البغدادي في هدية العارفين ، وكذلك جاء ذكرها في كشف الظنون^{١٠٨}

٩. مختار في الأحاديث:

ذكره الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد فقال: ومن مختاراته في غير الشعر كتاب جمع فيه منتخبات من الأحاديث^{١٠٩} ولكن هذا الكتاب هو نفسه كتاب " الأخبار النبوية " الذي أشار اليه ضياء الدين في المثل السائر وفي الوشى المرقوم فقد اختلط لديه الأمر كما اختلط لدى الأستاذ عبد الله الحمدان في ذكر كتابيه "البديع" و"كفاية الطالب"

^{١٠٧} . ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/ ٣١ ، و اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين: ٢/ ٤٩٢ .

^{١٠٨} . البغدادي : هدية العارفين : ٢/ ٢٩٢-٢٩٣ . و مصطفى عبد الله حاجي خليفة : كشف الظنون: ٢/ ٢٢٢ .

^{١٠٩} . محمد زغلول سلام : ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد ص: ٦٨ .

١٠ . كنز البلاغة :

ذكره عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ونسبه الى ضياء الدين كما نسبه اليه أحمد بدوى فى الحياة العقلية ولكن السبكى نسبه الى عماد الدين ابن الأثير الحلبى فى عروس الأفراح^{١١٠} يقول الدكتور نورى حمودى القيسى فى مقدمة كفاية الطالب: والصواب أن هذا الكتاب كما ذكر السبكى هو لعماد الدين ابن الأثير الحلبى " ولكن الدكتور المذكور لم يذكر أى دليل على صحة نسبة الكتاب الى عماد الدين ابن الأثير الحلبى فيمكن لنا التوفيق بينهما بأن نقول قد يكون لعماد الدين "كنز البلاغة " كما كان لضياء الدين " كنز البلاغة آخر والله أعلم . وبعد فإننا ما ذكرناه اليوم فى حقل المفقودات قد يظفر به باحث فى مستقبل الأيام ، فيضيئ شمعاً جديدة فى آثار ضياء الدين ابن الأثير الخالدة.

^{١١٠} . عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ١٣ / ٩٨ . و أحمد بدوى : الحياة العقلية : ص ٢٤٨ و عبد الوهاب السبكى : عروس الأراح ص

الباب الخامس

فى الخاتمة ومصادر البحث

الخاتمة

قد تقرر فى أصول البحث أن تحتوى خاتمة البحث بيان مدى ما بذل الباحث من جهد فى كتابة بحثه والإلمام بمراجعته وبيان الجديد فى البحث الذى لم يطرقه الدارسون من قبل^{١١١}.

فبناء على ذلك أقول إنى لم أدخر جهدا فى إعداد البحث بل بذلت فى حدود استطاعتي جهودى كلها فما استخرجت من نتائج وأحكام فهي عصارة جهودى حول عبقرية ضياء الدين العلمية والأدبية ولا أدرى إلى أى مدى قد نجحت ولكنني أعترف بأنني ما سلكت فى سبيل البحث طريق النقل والعرض كما هو شأن كثير من الباحثين .

وأنا متأكد كذلك أن هذا البحث يحتل أهمية خالصة بين كتب الأدب العربي بصفة عامة وفى النقد بصفة خاصة لأنه أول كتاب مستقل يحوي حياة ضياء الدين ومساهمته فى ميدان العلم والأدب مع دراسات جميع جوانبه واتجاهاته.

وقد وسع لى النطاق الذى ضاق على بما رحب الأستاذ محمد زغلول سلام حيث ألف حول فعالياته كتابه المشهور " ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد " وهذا الكتاب أعظم نفعا حول ضياء الدين ، والكتاب الذى كان لى بمثابة المشعل المنير للسفن الضالة هو وفيات الأعيان لابن خلكان.

فقد اتضح لى خلال البحث النتائج المهمة التالية :

أولا النتائج العامة:

لقد كشفت لنا دراسة عصره على ضوء السياسة و الاجتماع والثقافة أنه كان مع الاضطرابات السياسية وعوامل الفساد عصر ازدهار ثقافة إسلامية وتطورها وعصر نهضة

^{١١١} - عبد المنعم الخفاجى : كيف تكتب بحثا جامعا : ص ٣٠ مط مكتبة الإنجلو المصرية بدون تاريخ

علمية وأدبية شاملة كما هو عصر ظهور العلماء الأجلاء والأدباء البارعين والكتاب النابغين فتدفق بفضلهم العلوم والفنون وكثرت الكتب والمؤلفات التي اكتظت بها خزانات الكتب والمكتبات، فكانت لهذه البيئة الثقافية الممتلئة بالكتب والمؤلفات أكبر الأثر في تكوين عقل ضياء الدين وتغذية ذوقه واستواء قريحته، فأصبح علما من أعلام عصره، لم يحظ العالم الأدبي بعده على مثاله أو مثال أنداده السابقين.

وثانيا النتائج الخاصة:

ظهر ضياء الدين بن الأثير في الأوساط العلمية كعالم جليل وأديب كبير وكاتب نابغة وناقد بارع بعناية من عنده ومجهودات بذلها هو، فإن شخصيته خضعت لعامل النشأة ويتعلق بها بيته وجاه أسرته وسلطان أبيه وغناه وسعة ثقافته وكمال تعليمه وقد ورث عنها الاعتداد بالنفس والجرأة كما ظهر ذلك في رسائله ونقده.

وهذا هو الحق أنه ما كان لديه أكبر الشهادات الجامعية ولكنه كان بمنزلة أستاذ الجيل في جيل لأنه قام بتطوير الأدب العربي والنقد والبلاغة وأخرجها من نطاقها الضيق إلى أوسع نطاق.

لقد نشأ ضياء الدين في عصر بلغ فيه التألق البياني في العبارات مبلغا عظيما حتى أصبح التعميق غاية الكاتب يصرف همه الى إلباس الكلام لباسا موشى تثقله الزخارف البديعية وقد كان له يد طولي في هذه الحركة حتى عد من أقطاب هذه الصناعة.

وكان ضياء الدين مولعا بالبديع معجبا بالصناعة فاهتم بهما في كتبه وحرص على صحة المعنى واستقامته مع جزالة اللفظ وإصابة الوصف واتخذ منها جديدا في البحث عن المعنى الصادق المعبر عن وجدان وأحاسيس.

وفيما درست له من مواضع في المثل السائر وجدته أصيلا في المنهج في تناوله الموضوعات من روح متحررة، ولعل الذي أعطاه هذه الشخصية المستقلة كثرة مدارسته لعلوم اللغة المختلفة والإلمام بها، وكثرة مدارسته لكتاب الله الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالنسبة لكتاب الله تعالى تظهر براعته في كثرة استشاده بالقرآن الكريم وتحليل معانيه وبلاغته تحليلًا فنيًا جميلاً .

ودراسته للبيان العربي دراسة أدبية نقدية فهو لا يعطى الجانب القاعدي لفنون البلاغة ما أعطاه له معاصروه أمثال الفخر الرازي و السكاكي بل يذكر القاعدة لكنه فى غير جمود ويولى الجانب المهم للدراسة الأدبية والنقدية المعتمدة على الذوق السليم المثقف .

ولذلك نجد حظ القاعدة عنده قليل وحظ الاستشهاد بالمنثور والمنظوم كثير، وطريقته فى تناول الموضوعات البلاغية ممزوجة بروح النقد لا تقرر قاعدة جافة كالسكاكي ومن نهج نهجه ولكنها تظهر القاعدة فى شكل فنى و إطار أدبي رائع .

تميز ضياء الدين بموقفه المتسامح من قضية السرقات الأدبية التى عرض لها فى كتبه الثلاثة - المثل السائر "و الجامع الكبير" و الاستدراك" ، تناول فيها مسائل الطبع والإبداع والتقليد والألفاظ والمعاني وغاية الأدب وأغراضه وجمع فيه خلاصة آراء سابقيه فى هذا الموضوع وأقام نظرية عمود المعاني ، ولم يكن فى بحثه للسرقات مقلدا للسابقين ولا المعاصرين ، بل كان مجددا فيه الى حد كبير، وتكلم أثناء الكلام فى السرقات عن الموازنة بين الشعراء جميعا، وجعل لها أصولا ينبغى مراعاتها فوضعها أمام القارئ فى هيئة منهج عملي على أساس المفاضلة بين المتفقيين معنى المختلفين لفظا، أو مختلفين لفظا ومعنى ، وكان مجددا فى المفاضلة بين المختلفين لفظا ومعنى، وقد نفى فى المفاضلة اعتبار الزمن ، ويرى أنه لا ينبغى عيب الآخذين من السابقين اذ لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الأول ، وإنما المدار على كيفية الأخذ وإخفائه فى ذلك، ويرى أن باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة.

وكتابه "المثل السائر" وحده يكفل له مكانة عالية سامقة بين رجال البلاغة والنقد وازدادت سموقا بتوالي الزمن حتى عد معلمة رجال العلم أكثر من ثمانية قرون ، واستطاع "المثل السائر" أن يرقى إلى مرتبة كتب الأدب الكبرى وإلى منزلة أهم المراجع فى البلاغة العربية والنقد الأدبي يدلنا على ذلك قول عز الدين التنوخى هذا " ولا أعرف أديبا له رأى فى البيان وأساليبه الا وللمثل السائر أثر بين فى تقويم أسلوبه وإرشاده الى الملكة العربية".^{١١٢}

كما يدلنا قول الدكتور محمد زغلول سلام "و ندرى من هؤلاء من ألف فى القرون التالية كتباً ولم ينقل عن "المثل السائر" أو "الجامع الكبير"، ومن أبرز من نقل عنه القلقشندي فى "صبح الأعشى" والنويري فى "نهاية الأرب" و شهاب الدين محمود الحلبي فى "حسن التوسل الى صناعة الترسل" وتقي الدين السبكي فى "عروس الأفراح" والتفتازاني فى "المختصر المعاني" وابن حمزة العلوي فى "كتاب الطراز" وابن حجة الحموي فى "خزانة الأدب و ثمرات الأوراق وغيرهم".^{١١٣}

وكان ضياء الدين مجددا فى نظرية "المحاكاة" التى تعتبر من أهم الأصول فى النقد الأدبي الحديث فينبغي لنا أن نحییها ونجدها، كما ينبغى لنا أن نستفيد من منهجه التحليلي، ونأخذ من اتجاهه النوقي فى نقد النصوص، فإن آراءه الأدبية و النقدية الحرة تحتل أهمية كبرى فى العالم الأدبي، فينبغي لنا أن نحییها ونضيف إليها من ثقافتنا ما يضمن له البقاء.

وأخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعني وعشاق العلم بما كشفت عن جانب له أهمية فى النشاط الأدبي والفكري وهو حسبي ونعم الوكيل.

محمد محسن الدين

قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة على كرة الإسلامية

يونيو / ٢٠٠٠م

^{١١٣} - صبح الأعشى: ٥٩/١ و نهاية الأرب: ٣٥/٧ و ذكر السبكي فى مواضع مثلاً: ٧٤/١ و ثمرات الأوراق: ١٢٠ و عروس

الأفراح: ٣٩٩/٣ نقلاً عن ضياء الدين وجهوده فى النقد ص: ٣٧٢

المصادر والمراجع

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: تحقيق الدكتور احسان عباس: مطبعة دار الثقافة بيروت بدون ذكر سنة الطبع

٢. الصفدى: الوافى بالوفيات: مط المعهد الألمانى بيروت ١٩٩١م

٣. محمد بن شاکر الکتبى: فوات الوفيات: تح د. احسان عباس: دار صادر بيروت ١٩٧٣م

٤. ابن خلدون: المقدمة: دار الفكر اللبنانى ١٩٨٨م

٥. عمر رضاء كحالة: معجم المؤلفين: دار احياء التراث العربى بيروت ١٩٧٥م

٦. جمال الدين ابن واصل: مفرج الکروب فى اخبار بنى ايوب: مط جامعة الإسكندرية بمصر بدون تاريخ

٧. طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة: دار الكتب العلمية بدون تاريخ

٨. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: مط مصر ١٩٣٦م

٩. تقى الدين المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك: مط مصر ١٩٣٤م

١٠. حاجى خليفة: كشف الظنون: مط استانبول ١٩٤١م

١١. دائرة المعارف الإسلامية: ثابت الفندى و ابراهيم زكى واصحابهما: مط

الأبشيهى ١٩٣٣م

١٢. يوسف اليان سركيس: معجم المطبوعات العربية والعربية: مط مكتبة المثنى بغداد

١٩٢٨م

١٣. خير الله العمرى: تاريخ الموصل: مط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر ١٩٢٨م

١٤. عبد العزيز الدورى: تاريخ العراق الإقتصادى: مط المعارف ببغداد ١٩٤٨م

١٥. فليب حتى: تاريخ العرب المطول: نقله الى العربية د. جبرائيل جبور: مط القاهرة

١٩٦١م

١٦. فريد وجدى: دائرة المعارف، القرن العشرين: مط دار المعرفة بيروت بدون ذكر سنة

١٧. فؤاد آفرام البستاني : دائرة المعارف : قاموس عام لكل فن ومطلب : بيروت ١٩٥٦م
١٨. خيرالدين الزركلي : الأعلام : مط دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٠م
١٩. ابن قاضي شهاب الدمشقي : طبقات الشافعية : مط المزرعة بيروت ١٩٨٦م
٢٠. ابن إياس الإزدى : تاريخ الموصل : مط المجلس الأعلى بالقاهرة ١٩٦٧م
٢١. سليمان صائح : تاريخ الموصل : مط بيروت ١٩٢٨م
٢٢. ياقوت الحموي الرومي : معجم الأدباء : دار الفكر بيروت ١٩٨٠م
٢٣. ياقوت الحموي الرومي : معجم البلدان : دار صادر بيروت ١٩٨٦م
٢٤. ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : دار الكتب العلمية بيروت بغير ذكر تاريخ الطبعة
٢٥. الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير : دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ
٢٦. الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء : مط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣م
٢٧. جوزيف الهاشم وزملاءه : المفيد في الأدب العربي : مط منشورات المكتب التجاري بيروت ١٩٦٤م
٢٨. زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع : مط دار الجيل بيروت ١٩٧٥م
٢٩. بيومي السباعي : تاريخ القصة والنقد في الأدب العربي : مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٥٦م
٣٠. عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي : دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١م
٣١. حنا الفاخوري : الجديد في الأدب العربي : مط منشورات مكتبة المدرسة بيروت ١٩٦٤م
٣٢. حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي : دار النهضة المصرية بغير سنة
٣٣. حنا الفاخوري : الجامع في الأدب العربي وتاريخه : طبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٦م
٣٤. حنا الفاخوري : الموجز في الأدب العربي وتاريخه : دار الجيل بيروت ١٩٩١م
٣٥. ابن كثير : البداية والنهاية : مط السعادة بمصر بدون ذكر سنة
٣٦. احسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب : دار الأمانة بيروت ١٩٧١م

٣٧. الشيخ محمد حصري بك : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة العباسية : دار القلم بيروت ١٩٨٦م
٣٨. محمد رشيد سعدى : قررة العين فى تاريخ الجزيرة : مط الرشيد بومبى - الهند ١٣٢٥هـ
٣٩. ابن النجار البغدادى : ذيل تاريخ بغداد : حيدر آباد - الهند ١٩٧٨م
٤٠. بطرس البستاني : أدباء العرب فى العصر العباسية : دار مارون عبود بيروت ١٩٧٩ م
٤١. عز الدين بن الأثير : اللباب فى تهذيب الأنساب : مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٧هـ
٤٢. عز الدين بن الأثير : الكامل فى التاريخ : دار احياء التراث العربى بيروت ١٩٨٩م
٤٣. عز الدين بن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكة بالموصل : دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٣م
٤٤. عبد اللطيف حمزه : الحكمة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والملوكى : دار الفكر العربى بالقاهرة بدون سنة
٤٥. احمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام مكتبة نهضة مصر بدون ذكر سنة
٤٦. بهاء الدين ابن شداد : سيرة صلاح الدين الأيوبي : دار الكتب العربى بمصر بدون ذكر سنة
٤٧. ابن الصابوني : تكملة اكمال الكمال : مط المجمع العلمى العراقى بغداد ١٩٥٧م
٤٨. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد العربى الى القرن العاشر الهجرى : القاهرة ١٩٦٤ م
٤٩. محمد زغلول سلام : ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد : دار النهضة المصرية ١٩٥٦م
٥٠. محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبي : دار مشاة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٠م
٥١. محمد زغلول سلام : أثر القرآن فى تطور النقد العربى : دار المعارف بمصر ١٩٥٥م
٥٢. محمد زغلول سلام : ضياء الدين ابن الأثير : فى سلسلة نوابغ الفكر العربى : دار المعارف بمصر

٥٣. الدكتور أحمد مطلوب : ضياء الدين ابن الأثير : بغداد ١٩٨٨م
٥٤. على جواد الطاهر : منهج البحث فى المثل السائر : ط الموصل عام ١٩٨٢م
٥٥. صلاح الدين الصفدى : نصره السائر على المثل السائر : ط مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الأستاذ محمد على السلطاني : ١٩٧٢م
٥٦. ابن ابى الحديد المدائنى : الفلك الدائر على المثل السائر : تح الدكتور أحمد الحوفى ويدوى طبانة : دار النهضة المصرية ١٩٦٤م
٥٧. صدر الدين ابو الحسن ابن ابى الفوارس : أخبار الدولة السلجوقية : دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٤م
٥٨. الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلامى السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى : دار النهضة المصرية ١٩٦٧م
٥٩. الدكتور إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبى عند العرب : بيروت ١٩٧١م
٦٠. طاهر درويش : فى النقد الأدبى عند العرب : دار المعارف بمصر ١٩٧٩م
٦١. أحمد الشائب : أصول النقد الأدبى : دار النهضة المصرية : ١٩٧٣م
٦٢. شوقى ضيف : النقد فى سلسلة فنون الأدب العربى : القاهرة ١٩٥٥م
٦٣. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى : لجنة التأليف مصر ١٩٤٦م
٦٤. الدكتور محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب : دار نهضة مصر القاهرة ١٩٤٧م
٦٥. الدكتور محمد مصطفى صوفية : المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوى : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلانات طرابلس ليبيا : ١٩٨٤م
٦٦. الدكتور عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى : دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٣م
٦٧. جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية : دار الهلال بالقاهرة بدون تاريخ
٦٨. مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب : دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٤م
٦٩. كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ترجمة الدكتور محمود فهمى حجازى : مط الهيئة المصرية العامة ١٩٩٣م
٧٠. شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى : عصر الدول والإمارات : دار المعارف بمصر ١٩٩٠م

٦٩. كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ترجمة الدكتور محمود فهمى حجازى : مط
الهيئة المصرية العامة ١٩٩٣م

٧٠. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات : دار المعارف بمصر ١٩٩٠م

٧١. شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ : دار المعارف بمصر ١٩٦٥م

٧٢. الأستاذ أحمد محمد عنبر : جولة مع ضياء الدين فى كتابه المثل السائر فى أدب

الكاتب والشاعر : دار الفكر العربى : بيروت ١٩٥٤م

٧٣. الدكتور أنيس المقدسى : رسائل ابن الأثير : المجمع العلمى العربى العراقى ١٩٥٩م

٧٤. محمود فرج العقيدة : المثل السائر لضياء الدين بن الأثير : مجلة الأزهر : ج ١٣ : ١٢٠ -

١٨١ عام ١٩٩٤م

٧٥. عز الدين التنوخى : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ج ٣٥ : ٦٦٦ عام ١٩٦٠م

٧٦. الشيخ حمد الجاسر : مجلة العرب ج ٦ : عام ١٣٩٠هـ

٧٧. أحمد مطلوب : مجلة المعلم الجديد : ج ٢٢ : ٧٤ عام ١٩٥٩م

٧٨. ابراهيم السامرائى : مجلة المعلم الجديد : ج ٢٠ : ٤٨٨ - ٤٩٣ عام ١٩٥٨م

٧٩. عبد الكريم الأشتري : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ج : ٤٢ : ٥٢٥ عام ١٩٦٧م

٨٠. محمد الطاهر بن عاشور : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ج : ٣٦ : ٦٧٢ عام

١٩٦١م

فهرس المباحث

صفحة	عنوان
٨-٥	١- المقدمة
١٠-٨	٢- كلمة الشكر والتقدير
٣٠-١١	٣- الباب الأول
١٧-١٢	٤- الحالة السياسية
٢٤-١٧	٥- الحالة الاجتماعية
٣٠-٢٤	٦- الحالة الثقافية والأدبية
٥٤-٣١	٧- الباب الثاني
٣٣-٣٢	٨- مسقط رأسه
٣٤-٣٣	٩- اسمه ونسبه
٣٦-٣٤	١٠- أسرته
٣٦	١١- نشأته وتعليمه
٣٨-٣٧	١٢- أساتذته وشيوخه
٥٠-٣٨	١٣- رحلاته العلمية والرسمية
٥٠	١٤- النهاية الأليمة
٥٤-٥١	١٥- مكانته بين الأدباء وصفاته النفسية

١٦- الباب الثالث

١٣٧-٥٥

٥٦

١٧- ضياء الدين بن الأثير أديبا

٦٣-٥٦

١٨- منابع ثقافته

٦٦-٦٣

١٩- أدبه

٧١-٦٦

٢٠- قبسات من أدبه

٧٥-٧١

٢١- خصائصه الفنية و أسلوبه

٧٨-٧٥

٢٢- ضياء الدين بن الأثير شاعرا

٨٠-٧٨

٢٣- ضياء الدين بن الأثير كاتباً

٨٢-٨٠

٢٤- الشروط اللازمة للكاتب عنده

٨٣-٨٢

٢٥- أركان الكتابة عنده

٨٣

٢٦- الطريق إلى تعلم الكتابة

٨٣

٢٧- من يستحق اسم الكاتب ؟

٨٤

٢٨- آثاره في فن الكتابة و صناعة الإنشاء

٨٦-٨٤

٢٩- رسائله

٨٨-٨٦

٣٠- مختارات من رسائله

٩٠-٨٨

٣١- خصائصه الفنية وطريقته في صناعة الإنشاء

٩١-٩٠

٣٢- أسلوبه

٩١

٣٣- ضياء الدين بن الأثير بلاغيا

٩٣

٣٤- آثاره في فن البلاغة

٩٨

٣٥- الفنون البلاغية الواردة في المثل السائر

١٠١

٣٦- الفنون البلاغية الواردة في الجامع الكبير

١٠٢

٣٧- الفنون البلاغية الواردة في كفاية الطالب

١٣٧-١٠٤

٣٨- ضياء الدين بن الأثير ناقدا

١٠٥

٣٩- النقد التطبيقي

- ٤٠- الفرق بين الشعر والنثر ١٠٨
- ٤١- المقارنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي ١٠٩
- ٤٢- اللفظ والمعني ١١٠
- ٤٣- النتائج التي ترتب على تولعه بالمعاني ١١١
- ٤٤- الألفاظ خدم للمعاني وهي أشرف قدرا ١١٢
- ٤٥- المفاضلة بين الشعراء ١١٥ - ١١٢
- ٤٦- السرقات الشعرية ١١٥
- ٤٧- موقفه من أبي تمام ونقده ١١٦ - ١١٧
- ٤٨- موقفه من المتنبي ونقده ١١٧ - ١١٩
- ٤٩- موقفه من البحتري ونقده ١١٩ - ١٢٠
- ٥٠- موقفه من شراح الحماسة ونقدم ١٢٠ - ١٢١
- ٥١- موقفه من اللغويين والنحويين ونقدم ١٢١ - ١٢٦
- ٥٢- موقفه من الفلاسفة ونقدم ١٢٦ - ١٢٧
- ٥٣- أهم المسائل النقدية التي تكلم عنها ضياء الدين ١٢٧ - ١٣٢
- ٥٤- آراء نقدية تفرد بها ضياء الدين ١٣٢ - ١٣٥
- ٥٥- آراء الأستاذ أحمد محمد عنبر حول ضياء الدين وكتابه "المثل السائر" ١٣٥ - ١٣٧

٥٦- الباب الرابع

- ٥٧- آثاره المطبوعة ١٤٢ - ١٧٩
- ٥٨- المثل السائر ١٤٢
- ٥٩- موضوع المثل السائر و محتوياته ١٤٤ - ١٦٦
- ٦٠- المثل السائر بين ناقيه و منتصره ١٦٦ - ١٧٣
- ٦١- الجامع الكبير ١٧٣ - ١٧٤
- ٦٢- الإستدراك ١٧٤ - ١٧٥

١٧٧ - ١٧٥	٦٣- الوشي المرقوم
١٧٨ - ١٧٧	٦٤- كفاية الطالب
١٧٩ - ١٧٨	٦٥- رسائل ابن الأثير
١٨٤ - ١٨١	٦٦- آثاره المخطوطة
١٨٩ - ١٨٤	٦٧- آثاره المفقودة
١٩٧ - ١٨٩	٦٨- الباب الخامس
١٩٢ - ١٨٩	٦٩- الخاتمة
١٩٧ - ١٩٣	٧٠- المصادر والمراجع
٢٠١ - ١٩٨	٧١- فهرس المباحث
